شرح القواعد الحسان في تفسير القرآن

للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى

شرح وتعليق

العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

تحقيق

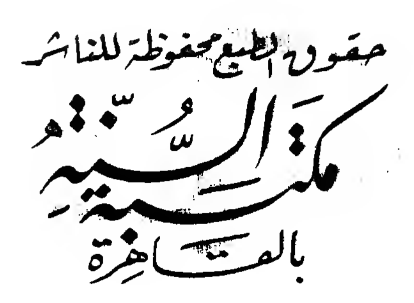
أيمن بن عارف الدمشقي — محمد بن عبد الله الطالبي

صبحي بن محمد رمضان

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة - بالقاهرة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م



رقم الإيداع	٢٠٠٢/١٧٠١١
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977-285-112-1



مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم

القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين «ناصية شارع الجمهورية»
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس : ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي امتن على عباده بنبيه المرسل ﷺ، وكتابه المنزل الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار؛ بما فيه من القصص والأخبار، واتضح به سلوك المنهج القويم؛ والصراط المستقيم، بما فصل به من الأحكام، وفرق بين الحلال والحرام، فهو الضياء والنور؛ وبه النجاة من الغرور، وفيه شفاء لما في الصدور. ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله؛ ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين؛ ونوره المبين، والعروة الوثقى؛ والمعتصم الأوفى. وهو المحيط بالقليل والكثير؛ والصغير والكبير، لا تنقضي عجائبه، ولا تتناهى غرائبه، لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد، ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد، هو الذي أرشد الأولين والآخرين، ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]، فكل من آمن به فقد وفق، ومن قال به فقد صدق، ومن تمسك به فقد هدي، ومن عمل به فقد فاز[(١)].

وبعـد: فلا بد في تناول أي علم من العلوم من معرفة أسسه العامة، ومميزاته الخاصة، حتى يكون الطالب على بصيرة، وبقدر ما يتمكن الإنسان من آلة العلم بقدر ما يحرز من نصر فيه، حيث يلج فصوله من أبوابها، وقد أعطي مفاتيحها، وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢][(٢)]، فإن القواعد التي يحتاج إليها المفسر تستمد

---

(١) إحياء علوم الدين (١/٢٧٢) للغزالي.

(٢) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان (ص ١٩٦).

من المجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار وأصول الفقه وغيرها[١].

ولما كان الأمر هكذا متشعبًا كان من الأجمل والأيسر جمع جملة نافعة من ذلك تعين المسلم على فهم كتاب ربه جل وعلا.

ولقد اجتبى اللَّه بعض عباده ليقوم بذلك العمل، وكانت من أولئك علامة عصره الشيخ ناصر السعدي، فقد أفاض اللَّه تعالى على الشيخ في شهر القرآن بتلك القواعد التي امتازت بالعمق في الفهم والسلاسة في الأسلوب، ثم جاء تلميذه النابغة الشيخ ابن عثيمين، رحمه الله، فعلق على تلك القواعد، فإذا بالكتاب ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

فدونك أيها القارئ من يمهد لك الطريق المستقيم؛ لفهم كتاب ربك العزيز العليم.

هذا؛ وقد قمنا بمقابلة الأشرطة على الكتاب المطبوع، وأصلحنا أخطاءه وحذفنا ما أدخله الشيخ حامد الفقي رحمه اللَّه في صلب الكتاب بقلمه[٢]، ونسخنا الشرح، ثم قابلناه مرة أخرى، وقمنا بتخريج مبسط للأحاديث والآثار.

نسأل اللَّه تعالى السداد وحسن الخاتمة.

المحققون

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/١٨).

(٢) وأحيانًا حذف بعض القواعد كاملة وأثبت مكانها أخرى كما فعل في القاعدة (٦٦، ٧٠)، وأسقط (٦٨) من الأصل. وذكر الشيخ ابن عثيمين أن هذا التدخل حدث في حياة الشيخ السعدي، وأن كبار الطلبة طلبوا منه رفع قضية بهذا الصدد، لكن الشيخ آثر السكوت. فرحمه اللَّه رحمة واسعة.

ترجمة موجزة لفضيلة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر السعدي

اسمه ونسبه : هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن حمد آل سعدي التميمي .

مولده ونشأته العلمية : ولد في مدينة عنيزة سنة ١٣٠٧هـ، وتوفيت أمه وهو في الرابعة ، وتوفي أبوه وهو في السابعة ، فاعتنى به أخوه الأكبر محمد عناية فائقة ، فألحقه بمدرسة الشيخ ابن دامغ ، فختم فيها القرآن .

وواصل الشيخ طلبه للعلم مبكرًا ولازم العلماء ، وقرأ عليهم فنون العلم المختلفة .

مشايخه : الشيخ إبراهيم بن حمد الجاسر قاضي عنيزة ، والشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل ، والشيخ محمد أمين الشنقيطي ، والشيخ صالح العثمان القاضي ، والشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى ، والشيخ علي بن ناصر أبو وادي ، وغيرهم .

تلاميذه : الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن آل بسام ، والشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان ، والشيخ علي الحمد الصالحي ، وغيرهم .

صفاته وشخصيته العلمية : كان ذا أخلاق فاضلة وبسمة دائمة ، كثير البكاء والصلاة والصيام ، وكان يمتاز بحسن التدريس ، وشد انتباه الطلبة بالسؤال وعقد المناظرات وحفظ المتون .

وفاته : توفي رحمة الله عليه قبل فجر يوم الخميس ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـ .

ترجمة موجزة لفضيلة الشيخ
محمد بن صالح العثيمين

اسمه ونسبه : هو أبو عبد اللّٰه محمد بن صالح بن عثيمين الوهيبي التميمي .

مولده ونشأته العلمية : حفظ القرآن الكريم على يد جده لأمه ، ثم اتجه إلى طلب العلم ، فتعلم بعض مبادئه ، ثم أخذ في القراءة على العلماء مختلف العلوم الشرعية .

مشايخه : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، وهو الذي لازمه وتخرج به ، الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان ، الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، الشيخ عبد العزيز بن باز ، الشيخ علي بن حمد الصالحي ، وغيرهم .

تلاميذه : للشيخ مئات التلاميذ في المملكة العربية السعودية ؛ منهم القاضي والدكتور والإمام وطالب العلم والداعية ، وآلاف التلاميذ خارج المملكة تتلمذوا على أشرطته وكتبه .

صفاته وشخصيته العلمية : كان يتحلى بأخلاق العلماء الفضلاء التي أبرزها الورع والزهد ورحابة الصدر ، وقول الحق ، والعمل لمصلحة المسلمين والنصح لخاصتهم وعامتهم . وكان يتبع أسلوبًا مميزًا في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقدم مثلًا حيًّا لمنهج السلف الصالح فكرًا وسلوكًا .

وفاته : توفي رحمة الله عليه يوم الأربعاء ١٥ شوال سنة ١٤٢١هـ .

* * *

المقدمة

الحمد للَّه ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهدِه اللَّهُ فَلَا مُضل له ، ومَنْ يُضلل فلا هادي له . وأشهدُ أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد

فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم ، جليلةُ المقدار ، عظيمة النفع ، تُعِينُ قَارِئَها ومُتَأَمِّلَها على فهم كلام اللَّه ، والاهتداء به ، ومَخْبَرُها أجلُّ من وصفها ، فإنها تفتحُ للعبدِ مِن طرق التفسير ، ومِنهاج الفهم عن اللَّه : ما يُغني عن كثير من التفاسير الخاليةِ من هذه البحوثِ النافعة ، أرجو اللَّه وأسأله أنْ يُتمَّ ما قصدنا إيرادَه ،...

كأن المؤلف رحمة اللَّه عليه أخذ هذه القواعد في رمضان وهو يقرأ القرآن ؛ لأنه ظاهر أنه ابتدأ من أول رمضان إلى ثلاث شوال واضح أنها في أيام قراءة القرآن وأيام الصوم . ثم إن ثناءه عليها ليس بغريب ؛ لأن ثناء أهل العلم على مؤلفاتهم لا يقصدون بذلك الفخر أو التفاخر على الخلق ، وإنما يقصدون شدَّ الناس إلى قراءتها والالتفاف حولَها .

وقد ذكرنا قبل أن ابن مسعود رضي اللَّه عنه يقول : « لو أعلم أن أحدًا تناله الإبل أعلمَ بكتاب اللَّه مني لرحلتُ إليه »[1] . هذا ما هو مدح نفسه ، لكن القصد حث الناس على أخذ العلم منه وعلى تمسكهم بطلب العلم .

وابن مالك أثنى على ألفيته يقول فيها :

(١) متفق عليه : البخاري (٥٠٠٢) ، ومسلم (١١٥/٢٤٦٣) .

تُقَرِّبُ الأَقْصى بلَفْظٍ مُوجَزِ وتَبْسُطُ البَذْلَ بوَعْدٍ مُنْجَزِ
وتَقْتَضِي رِضًا بغيرِ سُخْطِ فائقَةً ألفيةَ ابنِ مُعْطِي[(١)]

المهم أن شيخنا رحمه اللَّه حينما أثنى على هذا الكتاب لا يريد التفاخر به على الناس ، وأنا أعرفه تمام المعرفة أنه من أشد الناس تواضعًا ، ولكنه رحمه اللَّه أراد أن يشد الناس إلى هذا الكتاب لينتفعوا به .

ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سببًا للوصول إلى العلم النافع ، والهُدَى الكامل .

واعلم أن علمَ التفسير أجلُّ العلومِ على الإطلاق ، وأفضلها وأوجبها ، وأحبها إلى اللَّه ؛ لأنَّ اللَّه أمر بتدبر كتابه ، والتفكر في معانيه ، والاهتداءِ بآياته ، وأثنى على القائمينَ بذلك ، وجعلهم في أعلى المراتب ، ووعدهم أسنى المواهب ، فلو أنفقَ العبدُ جواهر عمره في هذا الفن ، لم يكن ذلك كثيرًا في جنب ما هو أفضلُ المطالب ، وأعظمُ المقاصد ، وأصلُ الأصولِ كلِّها ، وقاعدةُ أساس السعادة في الدارين ، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة ، وبه يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدى والخير والرحمة ، ويهيء اللَّه له أطيبَ الحياة والباقيات الصالحات .

فلنشرع الآن بذكرِ القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصلُ به المقصود ؛ لأنه إذا انفتحَ للعبد الباب وتمهدت بفهم القاعدةِ الأسباب ، وتدربه منها بعدة أمثلة توضحها وتبين طريقها ومنهجها ، لم يحتج إلى زيادة البسط وكثرة التفاصيل ، ونسأله تعالى أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه ، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنه وكرمه وإحسانه .

* * *

(١) الألفية : المقدمة (رقم ٤ ، ٥) .

القاعدة الأولى

في كيفية تلقي التفسير

كل من سلَك طريقًا وعَمِلَ عملًا، وأتاهُ من أبوابه، وطرقه الموصلة إليه، فلا بدَّ أن يُفلحَ وينجح ويصلَ به إلى غايته، كما قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وكلما عَظُمَ المطلوب تأكّدَ هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه، ولا ريبَ أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلُّها، بل هو أساسها وأصلها.

تعلم أن هذا القرآنَ العظيم أنزله اللّٰه لهداية الخلق، وإرشادهم، وأنه في كل وقت وزمان ومكان يُرشدُ إلى أهدى الأمور وأقومها: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فعلى الناس أن يتلقوا معنى كلام اللّٰه كما تلقاه الصحابة رضي اللّٰه عنهم، فإنهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات، أو أقلَّ أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل(١)، فينزلونها على الأحوال الواقعة يؤمنون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويطبقونها على جميعِ ما يشهدونَ من الحوادث والوقائع الموجودةِ بهم وبغيرهم، ويحاسبونَ أنفسهم: هل هم قائمون بها، أو مُخِلُّون بحقوقها ومطلوبها؟ وكيفَ الطريقُ إلى الثبات على هذه الأمور النافعة، وتدارك ما نقص منها؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه، ويتخلقونَ بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه خطاب من عالِم الغيب والشهادة، مُوجَّه إليهم، مطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٤١٠)، والفريابي في فضائل القرآن رقم (١٦٩)، وابن أبي شيبة (١٠/٤٦٠)، والطبري في تفسيره في المقدمة (١/٨٠/ح٨٢)، والحاكم (١/٥٥٧) وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٠١)، وقال الشيخ أحمد شاكر: هذا إسناد صحيح متصل.

فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه وجَدّ واجتهد في تدبر كلام اللَّه، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته واستنارت بصيرته؛ واستغنى بهذا الطريق عن كثرة التكلفات، وعن البحوث الخارجية. وخصوصًا إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانبًا قويًّا، وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبي ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه، فإن ذلك أكبر عون على هذا المطلب.

ومتى علم العبد أن القرآن فيه تبيان كل شيء، وأنه كفيلٌ بجميع المصالح، مُبينٌ لها، حاثٌّ عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونَزَّلها على كل واقع وحادث، سابق أو لاحق، ظَهَرَ له عِظَمُ موقعها، وكثرة فوائدها وثمرتها ويلتحق بهذه القاعدة: القاعدة الثانية.

معنى هذ القاعدة أن اللَّه أنزل القرآن هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وأنه يهدي للتي هي أقوم، ومتى آمنا بذلك فإنه يجب علينا أن نسلك الطريق التي توصلنا إلى هذا القرآن والاهتداء به، ولنعلم أننا إذا سلكنا هذه الطريق فإن اللَّه تعالى يبارك لنا فيما قصدنا وفيما أردنا، قال اللَّه تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢٩]، وكلما تدبر الإنسان هذا القرآن العظيم وتذكر بما فيه فإنه تحصل له بركته عليه في عمره وفي عمله وفي يقينه وفي جميع أحواله، وإذا أردت أن تأخذ شاهدًا على هذا فانظر إلى أعمار من سبقنا من سلف هذه الأمة كيف يحصلون على الخير الكثير العظيم الذي نتعجب كيف يعملون هذا الشيء فضلًا عن الإعداد له وما يسبقه من تهيئة أبدانهم وقلوبهم وأفكارهم، كل هذا ببركة هذا القرآن العظيم، فعليك أن تشدَّ يديك به وأن تَعَضَّ عليه بالنواجذ، وأن تعلم أنك متى عملت به فيما وَجَّهه اللَّه عز وجل: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ﴾، فإنك ستنال السعادة في الدنيا والآخرة، وهؤلاء سلفنا الكرام رضي اللَّه عنهم الصحابة لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلّموها وما فيها من العلم والعمل، ولهذا كان الواحد منهم إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فيهم[1]، أي

---

(١) أخرجه أحمد (٣/١٢٠، ١٢١)، وبمعناه ابن حبان (٧٤٤)، وأصل الحديث عند البخاري (٣٦١٧) ومسلم (٢٧٨١) عن أنس، لكن ليس فيه هذا اللفظ.

صار عظيمًا محترمًا ؛ لأنهم لا يقرءون كما نقرأ نحن مجرد ألفاظ نمرها على اللسان ولا تصل القلب أحيانًا ، ولكنهم يقرءون بتدبر وتذكر واتعاظ ، وهذا هو الذي نزع البركة من علمنا أننا لا نعمل به ولا نفقهه . فهذا هو خلاصة هذه القاعدة ؛ أن القرآن يهدي للتي هي أقوم ، وأنه : ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وإذا كان كذلك فعلينا أن نصل إلى هذا الجوهر الثمين وهو الهدى والبيان والتذكر ؛ حتى تحصل لنا البركة في أعمالنا وأعمارنا .

* * *

القاعدة الثانية

العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب(١)

وهذه القاعدة نافعة جدًّا ، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلمٌ غزير ، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير ، ويقع في الغلط والارتباك الخطير .

وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم ، فمتى راعيت هذه القاعدة حق الرعاية ، وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول : إنما هو على سبيل المثال لتوضيح الألفاظ ، وليست معاني الألفاظ والآيات مقصورة عليها . فقولهم : نزلت في كذا وكذا ، معناه : أن هذا مما يدخل فيها ، ومِنْ جملة ما يراد بها ، فإن القرآن - كما تقدم - إنما نزل لهداية أول الأمة وآخرها ، حيث تكون وأنَّى تكون .

واللّه تعالى قد أمرنا بالتفكر والتدبر لكتابه ، فإذا تدبرنا الألفاظ العامة ، وفهمنا أن معناها يتناول أشياءَ كثيرة ، فلأيّ شيء نُخرج بعض هذه المعاني ، مع دخولِ ما هو مثلُها ونظيرها فيها ؟.

(١) انظر : « المحصول » (١٢٥/٣) ، « تشنيف المسامع » (٧٩٩/٢) ، « البحر المحيط » (٢٠٢/٣) .

فإذا ادعى شخص خروج فرد من أفراد العموم من لفظه ، قلنا له : أين الدليل ؟ وإلا فالأصل أن العام شامل لجميع أفراده ، قال العلماء : وصورة السبب قطعيةُ الدخول(١) ، وما عداها فدخولها ظني ، العام يشمل صورًا متعددة ، فصورة السبب التي نزلت الآية من أجلها قطعية الدخول ، يعني – مثلًا – قضية المرأة التي اشتكت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام زوجَها هذه قطعية الدخول في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ [المجادلة : ٣] ، وظهار زيد وعمرو بعد ذلك قطعية الدخول أم ظنيته ؟ ظنيتة الدخول لاحتمال أن لا يراد بالعموم جميع أفراده ، لكنها الحكم يشملها إما بالعموم اللفظي وهو الصحيح ، وإما بالعموم المعنوي وهو القياس لعدم الفارق .

ولهذا قال ابن مسعود رضي اللَّه عنه : إذا سمعت اللَّه يقول : « يا أيها الذين آمنوا ، فأرعها سمعَك ، فإنه إما خيرٌ تُؤمر به ، وإما شرٌ تُنهى عنه »(٢) .

فمتى مر بك خبر عن صفات اللَّه وأسمائه ، وعما يستحقه من الكمال ، وما يتنزهُ عنه من النقص ، فأثبت له جميعَ ذلك المعنى الكامل الذي أثبته سبحانه لنفسه ، ونَزِّهْه عن كل ما نزه نفسه عنه .

وكذلك إذا مَرَّ بك خبرٌ عن رسله وكتبه ، واليوم الآخر ، وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة ، فاجزم جزمًا لا شكَّ فيه أنه حق على حقيقته ، بل هو أعلى أنواع الحق والصدق ، ومَنْ أصدق من اللَّه قيلًا وحديثًا ؟!

وإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه وما يدخل فيه وما لا يدخل وعلمت أن ذلك الأمر موجه إلى جميع الأمة ، وكذلك في النهي .

ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزلَ اللَّهُ على رسوله أصلَ كل الخير

(١) انظر : « اللمع » (ص ٢١) ، « المستصفى » (٢/ ٦٠) ، « تشنيف المسامع » (٢/ ٨٠٣) ، « البحر المحيط » (٣/ ٢١٦) .

(٢) أخرجه أحمد في « الزهد » (١٥٨) ، وابن المبارك في « الزهد » (ص ١٢ – ١٣ ، رقم ٣٦) ، وسعيد بن منصور في « سننه » (رقم ٥٠ ، ٨٤٨ – ط الصميعي) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣٠) .

والفلاح، والجهلُ بذلك أصلَ كلّ الشر والخسران.

فمراعاةُ هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل اللَّه على رسوله والقيام بها، والقرآن قد جمع أَجَلَّ المعاني وأنفعها وأصدقها، بأوضح الألفاظ، وأحسنِها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] يوضح ذلك ويبينه، وينهج طريقته.

* * *

القاعدة الثالثة

الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق، بحسب ما دخلت عليه(١)

وقد نص على ذلك أهل الأصول، وأهل العربية، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان، فمثلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ - إلى قوله تعالى - أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] يدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام والإيمان والقنوتِ والصدق إلى آخرها. وأن بكمالِ هذه الأوصاف يَكْمُل لصاحبها ما رتب عليها من المغفرة والأجر العظيم، وبنقصانها ينقص، وبعدمها يُفقد، وهكذا كل وصف رُتِّبَ عليه خير وأجر وثواب، وكذلك ما يقابل ذلك كلُّ وصف نَهى اللَّه عنه ورَتَّبَ عليه وعلى الاتّصاف به عقوبة وشرًّا ونقصًا، يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور.

وهذه مرت علينا وهي: أن الحكم إذا عُلِّق على وصف ازداد بزيادة ذلك الوصف

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/٩٧- ١٠٧)، «مغني اللبيب» (١/٩٣).

ونقص بنقصه ؛ لأن الحكم المعلق على وصف يدل على عِلِّيَّة ذلك الوصف ، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا وقوة وضعفًا ، كلام الشيخ رحمه الله يؤيد ما تقدم لنا من هذه القاعدة العظيمة ، فإذا قلت : إن المؤمن له أجر عظيم ، فكلما قَوِيَ الإيمان قوي الأجر ، وكلما ضَعُفَ ؛ ضَعُفَ الأجر ، والعلة في ذلك أن الحكم المعلق على وصف يدل على عِلِّية ذلك الوصف ، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا وقوة وضعفًا(١) .

وكذلك مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج : ١٩- ٢١] عام لجنس الإنسان .

هذا الجنس ؛ لأن الشيخ رحمه الله ذكر الوصف واسم الجنس ، وهذا اسم الجنس .

فكلُّ إنسانٍ هذا وصفه إلا مَن استثنى اللَّهُ بقوله : ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ إلى آخرها . كما أن قوله : ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر : ١ - ٢] دالٌّ على أن كل إنسان عاقبتُه ومآله إلى الخسار : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] ، وأمثالُ ذلك كثير .

وأعظمُ ما تُعتبرُ به هذه القاعدة : في الأسماء الحسنى ، فإن في القرآن منها شيئًا كثيرًا ، وهي أَجَلُّ علوم القرآن ، بل هي المقصد الأول للقرآن .

فمثلًا يُخبر اللَّه عن نفسه : أنه الرب الحي القيوم ، وأنه الملك والعليم والحكيم ، والعزيز والرحيم ، والقدوس والسلام ، والحميد المجيد . فاللَّه هو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يُؤَلَّهَ لأجلها وهي صفات الكمال كلها ، والمحامد كلها له ، والفضل كله ، والإحسان كله ، وأنه لا يُشارِكُ اللَّهَ أحدٌ في معنى من معاني الربوبية : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، لا بشر ولا مَلَك ، بل هم جميعًا عبيدٌ مربوبون لربهم بكل أنواع الربوبية ، مقهورون خاضعون لجلاله وعظمته ، فلا ينبغي أن يكونَ أحدٌ منهم نِدًّا ، ولا

---

(١) انظر : « البحر المحيط » (١٤٦/٣) ، « تشنيف المسامع » (٦٩٧/٢) . وانظر القواعد الفقهية للمؤلف والشارح « القاعدة ٥٨ » بتحقيقنا .

شريكًا للَّه في عبادته وإلهيته ، فبربوبيته سبحانه يُربِّي الجميعَ من ملائكةٍ وأنبياء وغيرِهم خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وإحياء وإماتة ، وهم يشكرونه على ذلك بإخلاص العبادة كلها له وحده ، فَيُؤَلِّهُونَهُ ولا يتخذون من دونه وليًّا ولا شفيعًا ، فالإلهية حق له سبحانه على عباده بصفة ربوبيته ، وأنه الملك الذي له جميعُ معاني المُلك ، وهو المُلْكُ الكامل والتصرف النافذ ، وأن الخلق كلهم مماليك للَّه ، عبيد تحت أحكامِ مُلكه القدرية والشرعية ، والجزائية .

أفادنا المؤلف رحمه اللَّه أن الأحكام قدرية وشرعية وجزائية ، ونحن دائمًا نقول : إن الأحكام شرعية وكونية أو قدرية ؛ لأن الجزائية داخلة في القدرية ؛ لأنها مما يقدّره اللَّه مما قدره على هذا العمل ، لكن هذه من باب البسط إذا قلنا : إنها كونية وشرعية وجزائية .

وأنه العليمُ بكل شيء ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، الذي أحاط علمه بالبواطن والظاهر والخفيات والجليات والواجبات والمستحيلات ، والجائزات .

مثال أن اللَّه يعلم المستحيلات ؛ آية : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، هذا يتعلق بالشيء المستحيل ؛ لأنه مستحيل أن يكون آلهة مع الله ، أخبر اللَّه أن لو كان هناك آلهة لفسدتا ، فأخبر عن شيء لا يمكن وجوده ، فهذا مستحيل لا يمكن يقع .

والأمور السابقةُ واللاحقة والعلم العلوي والسفلي والكليات والجزئيات ، وما يعلم الخلق وما لا يعلمون : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وأنه الحكيم الذي له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاهُ وقدَّره وخَلَقه ، وجميع ما شرعه لا يخرج عن حكمته ، لا مخلوقٌ ولا مشروع ، وأنه العزيزُ الذي له جميع معاني العزة على وجه الكمال التام من كل وجه ، عزة القوة وعزة الامتناع ، وعزة القهر والغَلَبة ، وأن جميع الخلق في غاية الذل ونهاية الفقر ، ومُنتهى الحاجة والضرورة إلى ربهم ، وأنه الرحمنُ الرحيم الذي له جميعُ

معاني الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، ولم يَخْلُ مخلوقٌ من إحسانه وبره طَرْفةَ عين، تبلغُ رحمتُه حيثُ يبلغ علمه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وأنه القدوس السلام، المعظَّم المنزه عن كل عيب وآفةٍ ونقص، وعن مماثلةِ أحد، وعن أن يكون له ندٌّ من خلقه.

وهكذا بقية الأسماء الحسنى، اعتبرْها بهذه القاعدة الجليلة ينفتح لك بابٌ عظيم من أبواب معرفة الله، بل أصلُ معرفة اللَّه تعالى معرفةُ ما تحتوي عليه أسماؤه الحسنى، وتقتضيه من المعاني العظيمة، بِحَسَبِ ما يقدرُ عليه العبد، وإلا فلن يبلغ علمُ أحد من الخلق بذلك ولن يحصي أحدٌ ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه[1]، وفوق ما يثني عليه عبادُه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، يشملُ جميعَ أنواع البر والخير، وتشمل التقوى جميعَ ما ينبغي ويلزم اتقاؤه من أنواع المَخُوفَات[2] والمعاصي والمحرمات. والإثم: اسم جامع لكل ما يُؤثِّم، ويوقع في المعصية، كما أن العدوان اسمٌ جامعٌ يدخل فيه جميع أنواع التعدي على الناس في الدماءِ والأموالِ والأعراض، والتعدي على مجموع الأمة وعلى الحكومات والتعدي لحدود اللَّه.

و«المعروف» في القرآن: اسمٌ جامع لكل ما عُرِفَ حُسْنُه وجماله شرعًا وعقلًا، وعكسه: المنكر والسُّوء والفاحشة.

وقد نبه النبيُّ ﷺ أُمته إلى هذه القاعدة، وأرشدهم إلى اعتبارها، إذْ عَلَّمَهُم أن يقولوا في التشهد في الصلاة: «السلام علينا وعلى عباد اللَّه الصالحين». فقال: «فإنكم إذا قلتم ذلك سَلَّمتم على كل عبدٍ صالح من أهل

---

(١) وفي الحديث: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» أخرجه مسلم(٤٨٦/٢٢٢) عن عائشة.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين: مثل ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

السماء والأرض »[١] . وأمثلتها في القرآن كثيرة جدًّا من هذا .

المحلى بأل يعم سواء دخل على وصف أو دخل على اسم جنس ، ثم المؤلف رحمه اللّٰه استطرد في أسماء اللّٰه تعالى وأن « ال » فيها للاستغراق ، فمثلًا السميع لاستغراق كل ما يمكن من السمع ، ولهذا ما من مسموع إلا ويسمعه اللّٰه عز وجل ، البصير لاستغراق كل ما يمكن من بصر ، البَرّ لاستغراق كل ما يمكن من الخير والإحسان وهكذا ...

* * *

القاعدة الرابعة

إذا وقعت النكرة في سياق النفي ، أو النهي ، أو الشرط ، أو الاستفهام ، دلت على العموم[٢]

كقوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء : ٣٦] ، فإنه نَهْيٌ عن الشرك به في النيات ، والأقوال والأفعال ، وعن الشرك الأكبر ، والأصغر والخفي ، والجلي . فلا يجعل العبدُ للّٰه ندًّا ومشاركًا في شيء من ذلك .

ونظيرها قوله : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢] .

فقوله في وصف يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [الانفطار : ١٩] يَعُمُّ كلَّ نفس ، وأنها لا تملكُ في هذا اليوم شيئًا من الأشياء ، لأي نفس أخرى ، مهما كانت الصلة ، لا إيصالَ شيءٍ من المنافع ، ولا دفعَ شيءٍ من المضار . وكقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : ١٠٧] ، فكل ضر قَدَّره اللّٰه على العبد ليس

(١) متفق عليه : البخاري (٨٣١) ، ومسلم (٤٠٢/٥٥) عن عبد اللّٰه بن مسعود .

(٢) انظر القواعد الفقهية للمؤلف وتعليق الشيخ ابن عثيمين عليها (القاعدة ٥٩) بتحقيقنا .

في استطاعة أحد من الخلق كائنًا مَنْ كان كشفُه بوجه من الوجوه .

ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية : إنما هو جزءٌ من أجزاء كثيرة داخلةٌ في قضاء اللّه وقدره .

وقوله : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر: ٢] ، وقوله : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد ، وكل نعمة فيها حصول محبوبٍ ، أو دفعَ مكروه ، فإن اللّه هو المنفرد بذلك وحده .

وقوله : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [فاطر: ٣] ، وإذا دخلت « مِنْ » صارت نصًّا في العموم ، كهذه الآية : ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٧] ، وقوله في غير آية : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩] ولها أمثلة كثيرة جدًّا .

* * *

القاعدة الخامسة

المقرر : أن المفرد المضاف يفيد العموم ، كما يفيد ذلك اسم الجمع[1]

فكما أن قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخرها يشمل كل أم انتسبْتَ إليها ، وإنْ عَلَتْ . وكل بنت انتسبتْ إليك وإن نزلت إلى آخر المذكورات .

فيه أيضًا فائدة ثانية أن الأم تشمل كل من انتسبت إليها ، والبنت تشمل كل من

---

(١) انظر القواعد الفقهية القاعدة رقم (٦٠) بتحقيقنا .

انتسبت إليك ، سواء من قِبل الأب أو من قِبل الأم ، كذلك خالة الإنسان خالة له ولذريته من بعده إلى يوم القيامة ، وعمة الإنسان عمة له ولذريته إلى يوم القيامة .

فكذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : ١١] ، فإنها تشمل النعم الدينية والدنيوية ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] ، فإنها تعم الصلوات كلها ، والأنساكَ كلها ، وجميع ما العبد فيه وعليه في حياته ومماته ، الجميعُ من اللَّه فضلًا وإحسانًا ، وأنك قد أتيت ما أتيت منه وأوقعته وأخلصته لله وحده ، لا شريك له .

وقوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] على أحد القولين : أنه يشملُ جميع مقاماته في مشاعر الحج : اتخذوه مَعْبَدًا .

وأَصْرَحَ من هذا قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل : ١٢٣] ، وهذا شامل لكل ما كان عليه إبراهيم من التوحيد والإخلاص لله تعالى ، والقيام بحق العبودية .

وأعمُّ من ذلك وأشمل : قوله تعالى لما ذكر الأنبياء : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] ، فأَمَرهُ اللَّه أنْ يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدى ، الذي هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية ، والأعمال الصالحة ، والهُدَى المستقيم . وهذه الآية أحدُ الأدلة على الأصل المعروف : أن شرع مَن قبلنا شرع لنا ما لم يرد شَرْعُنا بخلافه [(١)] ، وشرع الأنبياء السابقين هو هُداهم في أصول الدين وفروعه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، وهذا يعم جميع ما شرعه لعباده ، فعلًا وتركًا ، اعتقادًا وانقيادًا ، وأضافه إلى نفسه في هذه الآية لكونه هو الذي نصبه لعباده ، كما أضافه إلى الذين أنعم عليهم في قوله : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة : ٧]

---

(١) انظر : « اللمع » (ص ١٨٤) ، « المحصول » (٣/٢٦٣) .

لكونهم هم السالكينَ له . فصراط الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين كانوا دائمينَ عليه من العلوم والأخلاق والأوصاف والأعمال ، وكذلك قوله : ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] ، يدخل في ذلك جميع العبادات الظاهرة والباطنة ، العبادات الاعتقادية والعملية ، كما أنَّ وَصْفَ اللّه لرسوله ﷺ بالعبودية المضافة إلى اللّه كقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء: ١] ، ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣] ، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان: ١] تدلُّ على أنه وَفَّى جميع مقامات العبودية ، حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبودية ، وقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦] ، فكلما كان العبدُ أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية اللّه له أكمل وأتم ، وما نقص منها نقصَ من الكفاية بِحَسَبه .

وقوله : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠] يشمل جميعَ أوامره القدرية والكونية ، وهذا في القرآن شيء كثير .

المفرد المضاف يفيد العموم ، والجمع المضاف أيضًا يفيد العموم ، أما الجمع فأفاد العموم فهو بصيغته وإضافته ، والمفرد أفاد العموم بالإضافة فقط ، لو نظرنا إلى كونه مفردًا ما دل على العموم ، لكن بالإضافة يدل ، ولهذا قال العلماء : لو قال : امرأتي طالق ، طَلَقَتْ جميعُ نسائه ما لم يرد واحدة معينة . ولو قال : داري وقف ، وله ثلاثة دُور ، صارت جميع الدور وقف ؛ لأنه مفرد مضاف يعم ، ولو قال : غلامي حر ، عَتَقَ جميعُ غلمانه ما لم ينو .

* * *

القاعدة السادسة

في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده

القرآن كله لتقرير التوحيد ونفي ضده، وأكثرُ الآيات يقرر الله فيها توحيد الإلهية.

هذا البحث من أهم البحوث؛ لأنه يجب أن يكون الإنسان مُوَحِّدًا في القصد وهو الإخلاص، وفي الاتباع أي لا يتبع إلا رسول الله ﷺ، فلا بد من هذين التوحيدين؛ توحيد القصد، وهو الإخلاص، وتوحيد الاتباع أو العمل، وهو الاتباع للرسول ﷺ، فإذا تحقق التوحيدان صَحَّت الأعمال، وإذا اختلف أحدهما أو اختلّ أحدُهما فإنه يختل من عمله بقدر ما اختلَّ من توحيده.

وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ويخبر أن جميع الرسل إنما أُرسلت تدعو قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه.

لماذا لم يكن تقرير الأنبياء ودعوتهم إلى توحيد الربوبية؟ لأن توحيد الربوبية كانوا مُقرين به، لا ينكرونه ولم ينكر أحدًا توحيد الربوبية أبدًا إلا مُكابرة، وإلا ما في أحد يعتقد أن هذا الكون خلق نفسه أبدًا، حتى المجوس الثنوية يرون أن للعالم خالقين[1]، ومع هذا يرون أن أحد الخالقين أكمل من الثاني، يرون أن النور يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر، ويقولون: إن النور إلهٌ خَيِّر نافع، والظلمة إله شرير. ويظن أيضًا بعضهم أن هذه الظلمة حادثة بعد أن لم تكن بخلاف النور. وعلى كل حال ما تجد أحدًا من الخلق يقولون: إن هذا العالم خُلِقَ بدون خالق أبدًا، إلا مكابر، والمكابر مشرك، أما الألوهية فإنه هو الذي وقع فيه النزاع والجدال بين الرسل وأممهم.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٣٨/١)، الملل والنحل (٢٦٨/٢) للشهرستاني.

وأن الكتب والرسل، بل الفِطَر والعقول السليمة كلها اتفقت على هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها، وأن من لم يَدِنْ بهذا الدين الذي هو إخلاصُ العبادة والقلب والعمل لله وحده، فعمله باطل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ويدعو العباد إلى ما تقرر في فِطرهم وعقولهم مِن أن الله المنفرد بالخلق والتدبيرِ والمنفردِ بالنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يستحق العبادة وحده، ولا ينبغي أن يكونَ شيءٌ منها لغيره، وأن سائرَ الخلق ليس عندهم أي قدرة على خلق، ولا نفع، ولا دفع ضَرٍّ عن أنفسهم فضلًا عن أن يُغْنُوا عن أحد غيرِهم من الله شيئًا.

ويدعوهم أيضًا إلى هذا الأصل بما يَتَمَدَّحُ به، ويُثْني على نفسه الكريمة، من تفرده بصفات العظمة والمجد، والجلال والكمال، وأنَّ من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مُشارِك: أحق من أُخْلِصَت له القلوب والأعمال الظاهرة والباطنة.

ويقرر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده، فلا يحكم غيره شرعًا ولا جزاء: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

هنا يتكلم عن تقرير الألوهية وإلا فلا يحكم غيره لا قدرًا ولا شرعًا ولا جزاءًا إلا الله سبحانه وتعالى.

وتارةً يقرر هذا بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعًا وعقلًا وفطرة، على جميع العبيد، ويذكر مساوئ الشرك وقبحه، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم أضلَّ من الأنعام سبيلًا.

وتارةً يدعو إليه بذكر ما رُتِّبَ عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رُتِّب على ضده من العقوبات العاجلة

والآجلة ، وكيف كانت عواقبُ المشركين أسوأ العواقبِ وشرّها .

وبالجملة : فكل خير عاجل وآجل ، فإنه من ثمرات التوحيد ، وكل شر عاجل وآجل ، فإنه من ثمرات الشرك . واللَّه أعلم .

القاعدة هذه في تقرير القرآن توحيد الألوهية ، وأن اللَّه عز وجل يقرره إما بكمال صفاته وإما بتوحيد ربوبيته ، ولهذا يستدل على هؤلاء المنكرين للألوهية ، بماذا ؟ بالربوبية ؛ إذ أنه يلزمهم إذا أقروا بأن اللَّه وحده هو الرب الخالق المالك المدبر لجميع الأمور يلزمهم ألا يعبدوا إلا إياه ، ولهذا نقول : إن العلاقة بين أقسام التوحيد الثلاثة هي أن توحيد الربوبية مستلزمٌ لتوحيد الألوهية ، وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات من تمام توحيد الربوبية ؛ لأنه يتضمن كمال صفات الخالق عز وجل .

* * *

القاعدة السابعة

في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد ﷺ

هذا الأصل الكبير : قرره اللَّه في كتابه بالطرق المتنوعة التي يُعرف بها كمال صدقه ﷺ ، فأخبر أنه صَدَّق المرسلين ، ودعا إلى ما دعوا إليه ، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء في نبينا محمد ﷺ . وما نُزِّهُوا عنه من النقائص والعيوب فرسولنا محمد أَوْلَاهم وأحقهم بهذا التنزيه ، وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع ، وكتابه مهيمنٌ على كل الكتب ، فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها اللَّه في هذا الكتاب وهذا الدين ، وفاقَ عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره ، وقرر نبوته بأنه أميٌّ لا يكتب ولا يقرأ ، ولا جالس أحدًا من أهل العلم بالكتب السابقة ، بل لم يَفْجَأ الناسُ إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما أَتوا ولا قَدِرُوا ، ولا

هو في استطاعتهم ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا ، وأنه مُحَالٌ مع هذا أن يكونَ من تلقاءِ نفسه ، أو أن يكونَ قد تقوّله على ربه ، أو أن يكونَ على الغيب ظنينًا .

وأعاد في القرآن وأبدى في هذا النوع وقرّر ذلك بأنه يخبرُ بقصص الأنبياء السابقين مُطولةً على جميع الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد، ثم يخبر تعالى أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه اللّٰه من الوحي ، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطولة : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص : ٤٤] ، ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولةً قال : ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف : ١٠٢] .

فهذه الأمور والأخبارات المفصلة التي يُفَصِّلُها الرسول بما أُوحي إليه تفصيلًا ، صَحَّحَ به أكثر الأخبار والحوادث التي كانت في كتب أهل الكتاب محرّفةً ومشوّهةً بما أضافوا إليها من خُرافاتٍ وأساطير ، حتى ما يتعلق منها بعيسى وأمه وولادتهما ونشأتهما ، وبموسى وولادته ونشأته ، كلُّ ذلك وغيره لم يكن يعرفه أهلُ الكتاب على حقيقته حتى جاء القرآن ، فقصَّ ذلك على ما وقع وحصل ، مما أَدْهَشَ أهل الكتاب وغيرهم ، وأَخْرَسَ ألسنتهم حتى لم يقدر أحدٌ منهم ممن كان في وقته ، ولا ممن كانوا بعد ذلك ، أن يُكذِّبوا بشيءٍ منها ، فكانَ ذلكَ من أكبر الأدلة على أنه رسولُ اللّٰه حقًّا.

وتارة يقرر نبوته بكمال حكمة الله ، وتمام قدرته ، وأن تأييده لرسوله ونصره على أعدائه ، وتمكينه في الأرض هو مقتضى حكمةِ ورحمةِ العزيزِ الحكيم ، وأن من قَدَحَ في رسالته فقد قدح في حكمة الله ، وفي قدرته ، وفي رحمته ، بل وفي ربوبيته .

وكذلك نصره وتأييده الباهر لهذا النبي على الأمم الذين هم أقوى أهلِ الأرض من آياتِ رسالته ، وأدلة توحيده . كما هو ظاهر للمتأملين .

وتارة يقرر نبوته ورسالته بما جمع له وكمّله به من أوصاف الكمال ، وما

هو عليه من الأخلاق الجميلة ، وأن كل خُلُقٍ عالٍ سام فلرسول الله ﷺ منه أعلاه وأكمله .

فمن عظمت صفاته ، وفاقت نعوته جميع الخلق ، التي أعلاها : الصدق ، والأمانة ، أليس هذا أكبرَ الأدلة على أنه رسولُ رب العالمين ، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين ؟

وتارةً يقررها بما هو موجود في كتب الأولين ، وبشارات الأنبياء والمرسلين السابقين ، إما باسمه العَلَم ، أو بأوصافه الجليلة ، وأوصاف أمته وأوصاف دينه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] .

وتارة يقررُ رسالته بما أخبَر به من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلة ، التي وقعت في زمانه ، مضى على زمانه أو وقعت في زمانه والتي لا تزال تقع في كل وقت ، فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا ، ولا كان له ولا لغيره طريقٌ إلى العلم به .

وتارةً يقررها بحفظه إياه وعصمته له مِن الخلق ، مع تكالب الأعداء وضغطهم عليه ، وجدّهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم ، والله يعصمه ويمنعه منهم وينصره عليهم . وما ذاك إلا لأنه رسوله حقًّا ، وأمينه على وحيه والمبلغ ما أُمر به .

وتارة يقرر رسالته بذكر عظمةِ ما جاءَ به ، وهو القرآن الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، ويَتَحَدَّى أعداءه ومَنْ كفر به أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة ، فعجزوا ونَكَصُوا وباءوا بالخيبة والفشل ، وهم أهل الألسن المُبَرِّزُونَ في ميدان القول والفصاحة ، ومع ذلك ما استطاعوا – مع شدة حِرْصِهم ومحاولتهم – أن يأتوا بسورة منه ، وما استطاعوا ولا قَدَرُوا – مع شدة حرصهم ومحاولتهم – أَنْ يجدوا فيه نقصًا أو عيبًا ينزلُ به على أعلى درجات الفصاحة التي ملكت أَزِمَّة

قلوبهم، فلجأوا إلى السيف وإراقة دمائهم، وما كانوا يعمدون إلى هذا لولا أنهم لم يجدوا سبيلًا إلى محاربته بالقول، وما كانوا يزعمونه عندهم علومًا وحكمًا، فكان عدولهم إلى السيف وإراقة الدماء أكبر الأدلة على صدق الرسول، وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، وأقطع البراهين على أنه الحق والهدى من عند اللَّه الذي جمع اللَّه فيه لرسوله وللمؤمنين به كل ما يَكفلُ لهم سعادةَ الدنيا والآخرة في كل شئونهم. وأن هذا القرآنَ لأكبرُ أدلةِ رسالته وأجلُّها وأعمُّها.

والله تعالى يقرر أن القرآن كافٍ جدًّا أن يكون هو الدليل الوحيد على صدق رسوله ﷺ في مواضع عدة؛ منها قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وتارةً يقررُ رسالته بما أظهرَ على يديه من المعجزات، وما أَجْرَى له من الخوارق والكرامات، الدالِّ كل واحد منها بمفرده - فكيفَ إذا اجتمعت - على أنه رسول اللَّه الصادقُ المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى.

وتارة يُقررها بعظيم شفقته ﷺ على الخلق، وحُنُوِّه الكامل على أمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنه لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة ولا برًّا وإحسانًا إلى الخلق منه، وآثارُ ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر اللَّهِ مِن ذكرها في كتابه وقررها بعبارات متنوعة، ومعاني مفصلّة وأساليب عجيبة، وأمثلتها تفوقُ العدّ والإحصاء، واللَّه أعلم.

* * *

القاعدة الثامنة

طريقة القرآن في تقرير المعاد

وهذا الأصلُ الثالثُ من الأصولِ التي اتفقت عليها الرسلُ والشرائع كلها، وهي: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد وحشر العباد.

وهذا قد أكثر اللَّه مِن ذكره في كتابه الكريم، وقرره بطرق متنوعة؛ منها: إخباره وهو أصدقُ القائلينَ عنه وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى، مع إكثار اللَّه مِن ذكره، فقد أقسمَ عليه في ثلاثة مواضع من كتابه؛ كقوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١].

ومنها الإخبارُ بكمالِ قدرة اللَّه تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء. فإعادة العباد بعد موتهم فردٌ من أفرادِ آثارِ قدرته.

ومنها: تذكيره للعباد بالنشأة الأولى، وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا، لابد أن يُعِيدَهُم كما بدأهم، وأن الإعادة أهونُ عليه، وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليبَ متنوعة.

ومنها: إحياؤه الأرضَ الهامدةَ الميتة بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحيي الموتى، وقَرَّر ذلك بقدرته على ما هو أكبرُ من ذلك، وهو خلق السماوات والأرض، والمخلوقات العظيمة، فمتى أثبتَ المنكرونَ ذلك، ولن يقدروا على إنكاره، فلأيِّ شيء يستبعدون إحياء الموتى؟ وقررَ ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليقُ به، ولا يحسنُ أن يَتركَ خلقه سُدًى مهملين، لا يُؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون. وهذا طريقٌ قَرَّرَ به النبوة وأمرَ المعاد.

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئينَ بإساءتهم: ما أخبرَ به من أيامه وسننه سبحانه في الأمم الماضية والقرون الغابرة. وكيفَ نجَّى

الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم المنكرينَ للبعث، ونَوَّع عليهم العقوبات، وأحل بهم المَثُلات، فهذا جزاءٌ معجل ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده، ليهلك من هلكَ عن بينة، ويحيى مَنْ حَيَّ عن بينة.

ومن ذلك: ما أرى الله عباده من إحياء الأموات في الدنيا كما ذكره الله عن صاحب البقرة والألوف من بني إسرائيل، والذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيمَ الخليل والطيور، وإحياءُ عيسى ابن مريم للأموات وغيرها مما أَراهُ الله عباده في هذه الدار، ليعلموا أنه قويٌّ ذو اقتدار، وأن العباد لابدّ أن يَرِدُوا دَارَ القرار؛ إما الجنة أو النار.

وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في مَحَالّ كثيرة. والله أعلم.

وإنما أبدى الله سبحانه وتعالى وأعاد لسببين؛ السبب الأول: قوة المنازع والمكابر والمعاند والمنكر، فلما قوي الإنكار وكثر المعاند فإنه لابدَّ أن يكرر الأمر ردعًا لهم وإثباتًا للحق. والثاني: لأهمية الإيمان باليوم الآخر؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر لن يعمل، فإن الإنسان إذا كان يقول: ما في بعث ولا جزاء ولا حساب، فإنه لن يعمل، فلهذا كان الله عز وجل يكثر من ذكر البعث بعد الموت وضرب الأمثال له والإقسام على ثبوته وغير ذلك مما أشار إليه الشيخ رحمه الله.

* * *

القاعدة التاسعة

في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية

قد أمر اللَّه تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن ، أي بأقرب طريق موصلٍ للمقصود مُحَصِّلٍ للمطلوب ، ولا شكَّ أن الطرقَ التي سلكَهَا اللَّه في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية ، هي أَحْسَنُها وأقربها .

فأكثرُ ما يدعوهم إلى الخير ، وينهاهم عن الشر بالوصف الذي مَنَّ عليهم به ، وهو الإيمان ، فيقول : يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا ، اتركوا كذا ؛ لأنَّ في ذلك دعوةً لهم من وجهين :

أحدهما : من جهة الحث على القيام بلوازم الإيمان ، وشروطه ومكملاته ، فكأنه يقول : يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، والتخلق بكل خُلُق حميد ، والتجنب لكل خُلُق رذيل .

فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي ، ولهذا أجمعَ السلف أن الإيمانَ يزيد وينقص ، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه ، كما دلت على هذا الأصل الأدلةُ الكثيرة ، من الكتاب والسنة - وهذا أحدُها - حيث يُصَدِّرُ اللَّه أمر المؤمنين بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، أو يعلق فعل ذلك على الإيمان وأنه لا يتمُّ الإيمان إلا بذلك المذكور .

والوجه الثاني : أَنْ يدعوهم بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ افعلوا كذا ، أو اتركوا كذا ، أو يعلِّق ذلك بالإيمان ، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة ، التي هي أجل المنن ، أي : يَا مَنْ مَنَّ اللَّه عليهم بالإيمان ، قوموا بشكر هذه النعمة ، بفعل كذا ، وترك كذا .

الأول : منادتهم بـ « يا أيها الذين آمنوا » لأجل إغرائهم وحثهم على أن يفعلوا ، وأن ذلك من مقتضى الإيمان .

الثاني : « يا أيها الذين آمنوا » إشعار لهم بمنة اللَّه عليهم بالإيمان . يعني : اذكروا هذه النعمة التي أنعمت بها عليهم وهي الإيمان الذي ناديتكم به .

فالوجه الأول : دعوة لهم أَنْ يتمموا إيمانهم ، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطنة .

والوجه الثاني : دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان ، ببيان تفصيل هذا الشكر ، وهو الانقيادُ التام لأمره ونهيه ، وتارةً يدعو المؤمنينَ إلى الخير ، وينهاهم عن الشر ، بذكر آثار الخير ، وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة ، وبذكر آثار الشر ، وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة .

وتارةً يدعوهم إلى ذلك بذكرٍ من نعمه المتنوعة ، وآلائه الجزيلة ، وأن النعم تقتضي منهم القيام بشكرها ، وشكرُها هو القيام بحقوق الإيمان .

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب ، ويذكر ما أعد اللَّه للمؤمنين الطائعين من الثواب ، وما للعصاة من العقاب .

وتارةً يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى ، وما له من الحق العظيم على عباده ، وأن حقَّهُ عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهرًا وباطنًا ، ويتعبدوا له وحده ، ويدعوه بأسمائه الحسنى وصفاته المقدسة .

فالعباداتُ كلها شكر لله وتعظيم وتكبير وإجلال وإكرام ، وتودد إليه ، وتقرب منه .

وتارةً يدعوهم إلى ذلك ، لأجل أن يتخذوه وحده وليًا وملجأً ، وملاذًا ومَعاذًا ، ومفزعًا إليه في الأمور كلها ، ويُنيبوا إليه في كل حال ، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه ، وأنه إن لم يدخل في ولاية اللَّه

وتوليه الخاص تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنيه ويغره، حتى يُفَوِّتَهُ المنافعَ والمصالح ويوقعه في المهالك.

وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثهم على ذلك ويُحَذِّرُهُم مِن التشبه بأهل الغفلة والإعراض، والأديان المُبَدَّلَة؛ لِئَلَا يلحقهم من اللوم ما لَحِقَ أولئك الأقوام، كقوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات.

* * *

القاعدة العاشرة

في طرق القرآن إلى دعوة الكفار على اختلاف مللهم

يدعوهم إلى الإسلام، والإيمان بمحمد ﷺ، بما يضعه من محاسن شرعه ودينه، وما يذكره مِن براهينِ رسالةِ محمدٍ ﷺ ليهتديَ مَنْ قصد الحق والإنصاف، وتقوم الحجة على المعاند.

وهذه أعظمُ طريق يُدْعَى بها جميع المخالفين لدين الإسلام.

فإن محاسن دين الإسلامي ومحاسن النبي ﷺ وآياته وبراهينه فيها كفايةٌ تامة للدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبهتهم، وما يحتجونَ به، فإن الحقّ إذا اتضح عُلم أن كل ما خالفه فهو باطل وضلال.

ويدعوهم بما يخوفهم من أحداث الأمم وعقوبات الدنيا والآخرة ، وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور ، والعواقب الخبيثة ، وأنها إنما تقوم على الغفلة والتكذيب لآيات اللّٰه الكونية والعلمية بالوقوع تحتَ سلطانِ الجهل والتقليد الأعمى للآباءِ والشيوخ والسادة ويُحَذِّرُهم مِن طاعة هؤلاءِ الرؤساء فإنهم رؤساء الشر ، ودعاة النار ، وأنهم لابدَّ أن تتقطع نفوسُهم على ما عملوه وقدموه حَسَرات ، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول ولم يطيعوا السادة والرؤساء ، وأن مودتهم وصداقتهم وموالاتهم تستبدل بغضًا وعداوة .

ويدعوهم أيضًا بنحو ما يدعو المؤمنين بذكر آلائه ونعمه وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب على العباد طاعته ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه .

ويدعوهم أيضًا بشرح ما في أديانهم الباطلة ، وما احتوت عليه من القبح ، ويقارن بينها وبين دين الإسلام ، ليتبين ويتضح ما يجبُ إيثاره ، وما يتعين اختياره ويدعوهم بالتي هي أحسن ، فإذا وصلت بهم الحال إلى العِناد والمكابرة الظاهرة تَوعَّدَهُم بالعقوبات الصوارم ، وبيَّن للناس طريقتهم التي كانوا عليها ، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلاً وضلالاً أو لقيامِ شُبهة أوجبت لهم التوقف ، وإنما ذلك جُحودٌ ومكابرةٌ وعناد .

ويُبينُ مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدى ، وأنها رياسات وأغراض نفسية ، وأنهم لما آثروا الباطلَ على الحق طبع على قلوبهم وختم عليها ، وسَد عليهم طريق الهدى ، عقوبة لهم على إعراضهم وتوليهم الشيطان ، وتخليهم من ولاية الرحمن ، وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم .

وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة ، فتأمل وتدبر القرآن تجدها واضحةً جلية . واللّٰه أعلم .

* * *

القاعدة الحادية عشرة

مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام[(١)]

كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه ، مطابقة ، وما دخل في ضمنها ، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني ، وما تستدعيه من المعاني ، التي لم يعرج في اللفظ على ذكرها .

وهذه القاعدة : من أجلّ قواعد التفسير ، وأنفعها ، وتستدعي قوة فكر ، وحسن تدبر وصحة قصد ، فإن الذي أنزله للهدى والرحمة هو العالم بكل شيء ، الذي أحاط علمه بما تكن الصدور ، وبما تضمنه القرآن من المعاني ، وما يتبعها وما يتقدمها ، وتتوقف هي عليه .

ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللوازم في كلام اللّه لهذا السبب .

والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع : أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني ، فإذا فهمتها فهمًا جيدًا ، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها ، ولا تحصل بدونها ، وما يشترط لها ، وكذلك فكر فما يترتب عليها ، وما يتفرع عنها ، وما ينبني عليها ، وأكثرْ من هذا التفكير وداوم عليه ؛ حتى تصيرَ لك ملكةٌ جيدةٌ في الغوص على المعاني الدقيقة ، فإن القرآن حق ، ولازم الحق حق ، وما يتوقف على الحق حق ، وما يتفرع عن الحق حق ، ذلك كله حق ولابدّ .

فمَنْ وُفِّقَ لهذه الطريقة وأعطاهُ اللّه توفيقًا ونورًا انفتحت له في القرآن العلومُ النافعة ، والمعارفُ الجليلة ، والأخلاقُ السامية ، والآدابُ الكريمةُ العالية .

وَلْنُمَثِّل لهذا الأصل أمثلة توضحه :

منها : في أسماء اللّه الحسنى « الرحمن الرحيم » ، فإنها تدل بلفظها على

---

(١) انظر : « المحصول » (١/٢١٩) ، « معراج المنهاج » (١/١٦٧) .

وصفه بالرحمة، وسعة رحمته [illegible]

فإذا فهمتَ أن الرحمة التي لا يشبهها رحمة: هي وصفه الثابت، وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق، ولم يَخْلُ أحدٌ من رحمته طرفةَ عين: عرفت أنَّ هذا الوصف يدلُّ على كمال حياته، وكمال قدرته وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته، لتوقف الرحمةِ على ذلك كله، ثم استدللت بسعةِ رحمته على أن شرعه نورٌ ورحمة. ولهذا يُعَلِّلُ الله تعالى كثيرًا من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه لأنها من مقتضاها وأثرها.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، فإذا فهمتَ أنَّ الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها: استدللتَ بذلكَ على وجوبِ حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها والتفريط والتعدّي فيها، وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾، إذن أحفظُها وهي عندي؟ هذا أمر بأداء الأمانات هل يستلزم الأمر هذا أن نحفظها ونحافظ عليها؟ نعم؛ لأنه ما يتم الأداء إلا بذلك، ولهذا لو أعطيتني أمانة ووضعتها على العتبة عند الباب، ما أديتها؛ وإذا قيل: ما هو الدليل على وجوب حفظ الأمانات في حرز مثلها وعدم التعدي فيها وعدم التفريط؟ قلنا: الدليل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾؛ لأنه لا يتم الأداء إلا بذلك.

وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدلِ واستدللتَ بذلك على أنَّ كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار؛ لابدَّ أن يكونَ عالمًا بما يحكم به، فإن كان حاكمًا عامًا، فلابد أن يُحَصِّلَ من العلم ما يؤهله لذلك، وإن كان حاكمًا ببعض الأمور الجزئية كالشِّقَاقِ بين الزوجين، حيثُ أمرَ الله أن نبعثَ حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، فلابدَّ أن يكون عارفًا بهذه الأمور التي يُريدُ أن يحكم فيها ويعرفُ الطريق التي تُوصله إلى الصواب منها.

وبهذا بعينه نستدلُّ على وجوب طلبِ العلم، وأنه فرضُ عين في كلِّ أمر

يحتاجه العبد ، فإن الله أمرنا بأوامرَ كثيرة ، ونهانا عن أمور كثيرة .

ومن المعلوم أن امتثالَ أمره واجتنابَ نهيه يتوقفُ على معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه ، فكيف يتصورُ أن يمتثلَ الجاهلُ الأمرَ الذي لا يعرفه ، أو يتجنبَ الأمرَ الذي لا يعرفه ؟

وكذلك أمره لعباده أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، يتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر ؛ ليأمروا بهذا ، وينْهَوْا عن هذا ، فما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجب[1] ، وما لا يحصلُ تركُ المنهي عنه إلا به فهو واجب .

فالعلم بالإيمان والعمل الصالح مُتَقَدِّمٌ على القيام به ، والعلمُ بضد ذلك متقدم على تركه ؛ لاستحالةِ تركِ ما لا يعرفُه العبد قصدًا وتقربًا وتعبدًا حتى يعرفه ويميزه عن غيره .

إذا أمر الله بالصلاة فهو أمر بها وبما لا يتم إلا بها ، إذا أمرنا بالزكاة فهو أمر بها وبما لا يتم إلا بها ، فهذا الرجل الذي عنده مال يجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة ، والذي ليس عنده مال ما يجب إلا إذا كان من باب فروض الكفاية ، والإنسان الذي يجب عليه الحج يجب عليه أن يتعلم أحكام الحج ، بخلاف الآخر ، وعلى كل حال ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وهذه القاعدة الفقهية الأصولية هي من هذا الباب دلالاته التزام فهو وجوب التزام .

ومن ذلك الأمر بالجهاد ، والحث عليه ، من لازم ذلك الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به ؛ من تعلم الرمي بكل ما يرمى به ، والركوب لكل ما يُركب ، وعمل آلاته وصناعاته ، مع أن ذلك كله داخلٌ دخولَ مطابقةٍ في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، فإنها تتناولُ كلَّ قوةٍ عقلية وبدنية ، وسياسية وصناعية ومالية ونحوها .

---

(١) انظر القواعد الفقهية للمؤلف والشارح (القاعدة الثانية) بتحقيقنا .

ومن ذلك أن اللَّه استشهدَ بأهلِ العلم على توحيده ، وقرَنَ شهادتَهم بشهادته ، وشهادةِ ملائكته ، وهذا يدلُّ على عدالتهم وأنَّهم حجة من اللَّه تعالى على مَن كذَّب ، بمنزلةِ آياته وأدلته .

وهذا واضح ؛ لأن أهل العلم هم الذين تُقبل شهادتهم فيما علموا ، أما الجاهل فلا ، ولهذا لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علم ، فلا يشهد بما ظَنّ إلا أن يشهد به على وجهه ، فيقول : هذا الرجل أتى ما تدل القرينة على أنه فعل ، فالحاصل أن الشهادة لابدَّ لها مِنْ علم ، ولهذا قال : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران : ١٨] أي : شهدوا . أما الجاهل فليس عنده من الآيات الدالة على وحدانية اللَّه ما يستطيع أن يشهد بذلك .

ومن ذلك سؤالُ عبادِ الرحمن رَبَّهم أن يجعلهم للمتقين إمامًا ؛ يقتضي سؤالَهُمُ اللَّهَ جميعَ ما تتم به الإمامة في الدين ؛ من علوم ومعارفَ جليلة ، وأعمالٍ صالحة وأخلاقٍ فاضلة ؛ لأنَّ سؤالَ العبد لربه شيئًا سؤالٌ له ولما لا يتم إلا به ، كمَا إذا سأَلَ العبدُ اللَّهَ الجنة ، واستعاذَ به من النَّار ، فإنه يقتضي سؤالَه كلَّ ما يُقَرِّبُ إلى هذه ويُبَعِّد مِن هذه .

ومن ذلك أيضًا لو قال الطالب : «اللهم إني أسألك النجاح» يشمل وسائل المذاكرة والمراجعة .

ومن ذلك أنَّ اللَّهَ أمر بالصلاح والإصلاح ، وأثنى على المصلحين ، وأخبرَ أنه لا يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ، فَيُستَدَلُّ بذلك على أن كلَّ أمرٍ فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم ، وكلَّ أمرٍ يُعِينُ على ذلك فإنه داخلٌ في أمر اللَّه وترغيبه ، وأن كل فساد وضرر وشر ، فإنه داخلٌ في نهيه والتحذير عنه ، وأنه يجب تحصيلُ كلِّ ما يعودُ إلى الصلاح والإصلاح ، بحسبِ استطاعة العبد ، كما قال شُعيب ﷺ : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود : ٨٨] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب : ٤٧] ، ﴿حَرِّضِ

الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] يقتضي الأمر بكل ما لا تتم البشارة إلا به والأمرَ بكلِّ ما فيه حثٌ وتحريضٌ على القتال وما يتوقف على ذلك، ويَتْبَعُهُ من الاستعداد، والتَّمَرُّن على أسباب الشجاعة والسعي في القوة المعنوية من التآلف واجتماع الكلمة؛ ونحو ذلك.

ومن ذلك: الأمرُ بتبليغ الأحكام الشرعية، والتذكيرِ بها، وتعليمها، فإن كلَّ أمرٍ يحصلُ به التبليغ وإيصالُ الأحكام إلى المكلفين يدخل في ذلك، حتى إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكامُ الشرعية، وَوُجِدَت أسبابها، وكانت تَخْفَى عادةً على أكثر النَّاس، كثبوت الصيام والفطر، والحج وغيره بالأهلة إبلاغُها بالأصوات والرمي، وإبلاغُها بما هو أبلغ من ذلك، كالبرقيات ونحوها.

المؤلف رحمه الله دقيق في هذه المسائل ولا يستوحش المخترعات العصرية، فإن من كان في وقته ينكرون أن تثبت الأهلة بالإذاعة أو بالبرقيات أو ما أشبه ذلك، ويقول بعضهم أن البرقيات هذه سحر، حتى إنهم سطوا عليها وكَسَّروها، قالوا: هذه شياطين تنقل الصوت، لكن الشيخ رحمه الله ليس على هذا، يقول: يجب الآن إذا ثبت الهلال في بلد يجب أن يعلن عنه بالمدافع والرمي، وكان الناس بالأول يرمون قبل أن تأتي الإذاعة وقبل أن تأتي المدافع هذه كانوا يرمون بالأسواق يمشون ويرمون بالبندق، فالمهم أن هذه وسائل ما يقال هذه بدعة كما اشتبه على بعض الناس، ناس يقولون: هذه الوسيلة ما كانت موجودة في عهد الرسول ﷺ وأصحابه، وسيلة حفظ العلم بالأشرطة هذه ما كانت موجودة في عهد الرسول ﷺ وأصحابه، فهي إذن بدعة، وقد قال النبي ﷺ: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[1]. فتسجيلاتكم هذه وأشرطتها كلها في النار لأنها بدعة، هذا

(١) لفظ: «كل بدعة ضلالة» وردت أثناء حديث طويل عند مسلم (٨٦٧/٤٥) عن جابر، وزيادة: «كل ضلالة في النار» أخرجها النسائي في المجتبى (١٨٨/٣- ١٨٨٩)، وفي «الكبرى» (٥٨٩٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٨٢)، ووردت هذه اللفظة أيضًا موقوفة على عبد الله بن مسعود عند اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (٨٥)، والبيهقي في الأسماء (ص ١٨٩).

صحيح ؟ [لا] غير صحيح ، لماذا ؟ لأن هذه وسيلة ، نحن ما ذهبنا نتعبد اللَّه بأن أضعها في هذا المسجل أجعل هذه عبادة ، إنما هي وسيلة مثل ما إن الأقلام اختلفت في عهد الرسول يكتبون بماذا ؟ بالعيدان وما أشبهها ، أما الآن فاختلفت الأحوال ، وكذلك الورق كان قليلاً ، كانوا يكتبون بالعظام وبالحصى وباللخاف وما أشبهها ، فالمهم أنه يجب أن نعرف الفرق بين الوسيلة وبين القصد أو الغاية ، فوسائل المشروع مشروعة ، والبدع لا تكون إلا ما قصد بذاته ، أما ما كان وسيلة لغيره فلا[(١)] .

وكذلك يدخلُ في كلِّ ما أعان على إيصال الأصواتِ إلى السامعين ، من الآلاتِ الحادثة ، فحدوثها لا يقتضي مَنْعَها .

مثل مكبر الصوت .

فكلُّ أمرٍ ينفع الناس فإن القرآن لا يمنعه ، بل يدلُّ عليه لمن أحسن الاستدلالَ والانتفاع به .

وهذا من آياتِ القرآن وأكبر براهينه أنه لا يمكنُ أن يَحْدُثَ علمٌ صحيحٌ ينقضُ شيئًا منه ، فإنَّه يَرِدُ بما تشهدُ به العقول جملة أو تفصيلاً ، أو يردُ بما لا تهتدي إليه العقول .

وأما وُرُودُه بما تُحيله العقول الصحيحة وتمنعه فهذا مُحَالٌ . والحِسُّ والتجربة شاهدانِ بذلك ، فإنه مهما توسَّعت الاختراعات وعظمت الصناعات ، وتبحرت المعارف الطبيعية ، وظهرَ للناسِ في هذه الأوقات ما كانوا يجهلونه قبلَ ذلك ، فإن القرآنَ - وللَّه الحمد - لا يخبرُ بإحالته ، بَلْ تَجِدُ بعض الآيات فيها إجمال أو إشارات تدل عليه .

وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في غير هذا الموضع . واللَّه أعلم وأحكمُ ، وباللَّه التوفيق .

---

(١) ليت طلبة العلم يفقهون هذا .

الشيخ عبد الرحمن تكلم في رسالة عن الكهرباء وآثارها ومنافعها ، وملخص هذه القاعدة أن دلالة القرآن على الأشياء ثلاثة أقسام : مطابقة ، وتضمن ، والتزام ، وأنه ينبغي للإنسان أن يعتني بأنواع هذه الدلالات حتى يُفتح له بذلك باب عظيم من العلم بل أبواب ، والناس يختلفون في هذا اختلافًا كثيرًا ، فتجد بعضَ الناس إذا تكلم على حديث أو على آية يستنبط منها الأحكام ، وجدت أنه يأتي بفوائد كثيرة ، بينما غيره لا يأتي إلا بقليل ، والمؤلف ذكر عدة أمثلة لهذا خصوصًا فيما يتعلق بدلالة الالتزام .

* * *

القاعدةُ الثانيةَ عشرة

الآياتُ القرآنيةُ التي يَفْهَمُ منها قُصَّارُ النظرِ التعارضَ : يَجبُ حَملُ كلّ نوع منها على ما يليق ويناسبُ المقامَ ، كلٌّ بحسبه

وهذا في مواضعَ متعددة من القرآن :

منها : الإخبارُ في بعض الآيات أن الكفار لا ينطقون ، ولا يتكلمون يومَ القيامة ، وفي بعضها : أنهم ينطقونَ ويُحَاجُّون ويعتذرون ويعترفون : فَمحملُ كلامهم ونُطقهم ؛ أنهم في أول الأمر يتكلمون ويعتذرون ، وقد يُنكرونَ ما هم عليه من الكفر ، ويُقْسِمُونَ على ذلك ، ثم إذا خُتِمَ على ألسنتهم وأفواههم ، وشهدت عليهم جوارِحُهُم بما كانوا يكسبون ورأَوا أن الكذبَ غيرُ مفيد لهم أُخْرِسُوا فلم ينطقوا .

وكذلك الإخبارُ بأنَّ اللَّه تعالى لا يكلمهم ولا ينظرُ إليهم يومَ القيامة ، مع أنه أثبتَ الكلامَ لهم معه ، فالنفيُ واقعٌ على الكلامِ الذي يَسُرُّهم ، ويجعل لهم نوعَ اعتبار .

وكذلك النظر والإثبات واقع على الكلام الواقع بين الله وبينهم ، على وجه التوبيخ لهم والتقريع ، فالنفي يدلُّ على أنَّ اللَّهَ ساخطٌ عليهم ، غيرُ راضٍ عنهم ، والإثبات يوضحُ أحوالهم ويبين للعباد كمالَ عدل الله فيهم ، إذ وضعَ العقوبة موضعَها .

ونظيرُ ذلكَ أن في بعض الآياتِ أخبر أنه ﴿ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] ، وفي بعضها أنه يسألهم : ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٢] ؟ و﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥] ؟ ويسألهم عن أعمالهم كلها .

فالسؤال المنفيّ هو سؤال الاستعلام والاستفهام عن الأمور المجهولة ، فإنه لا حاجة إلى سؤالهم ، مع كمال علم الله ، واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم وجليل أمورهم ودقيقها .

والسؤال المُثبَتُ : واقعٌ على تقريرهم بأعمالهم ، وتوبيخهم وإظهارِ أنَّ الله حكمَ فيهم بِعَدْلِه وحكمته .

ومن ذلك ؛ الإخبار في بعض الآيات أنه لا أنسابَ بين الناس يوم القيامة ، وفي بعضها أثبتَ لهم ذلك ، فالمثبتُ هو الأمرُ الواقع والنسبُ الحاصل بين الناس ، كقوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٥] إلى آخرها ، والمنفي : هو الانتفاعُ بها ، فإنّ الكفارَ يَدَّعُونَ أن أنسابهم تنفعهم يومَ القيامة ، فأخبرَ تعالى أنه : ﴿ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨ ، ٨٩] .

ونظيرُ ذلك ؛ الإخبار في بعض الآيات أن النسب نافعٌ يومَ القيامة ، كما في إلحاقِ ذُريةِ المؤمنين بآبائهم في الدرجات ، وإن لم يبلغوا منزلتهم ، وأنَّ الله يجمعُ لأهلِ الجنات والدرجات العالية مَنْ صلحَ مِنْ آبائهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم ، فهذا لَمَّا اشتركوا في الإيمان ، وأصلِ الصلاح ؛ زادهم من فضله وكرمه ، من غير أَنْ ينقصَ مِنْ أجورِ السابقينَ لهم شيئًا .

وبذلك تظهر الحكمة في قوله تعالى : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] ، لأنه قد يقول قائل : هذا يرفعون ، وهذا ينزلون .

ومن ذلك ؛ الشفاعة فإنه أثبتها في عدة مواضع ، ونفاها في مواضعَ من القرآن ، وقَيَّدَهَا في بعض المواضعِ بإذنه ولمن ارتضى مِنْ خَلْقِه ، فتعيَّن حَمْلُ المطلقِ على المقيد ، وأنَّها حيث نُفِيَت فهي الشفاعة التي بغير إذنه ، ولغير من رضي اللَّهُ قولَه وعملَه ، وحيث أُثْبِتَتْ ، فهي الشفاعة التي بإذنه لمن رضيه اللَّهُ وأَذِنَ فيه .

ومن ذلك ؛ أنَّ اللَّهَ أخبرَ في آياتٍ كثيرة : أنه لا يهدي القوم الكافرين ، والفاسقين ، والظالمين ، ونحوها .

وفي بعضها : أنه يهديهم ويوفقهم ، فتعيَّنَ حملُ المنفياتِ على مَنْ حقت عليه كلمة اللَّه ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [يونس : ٩٦، ٩٧] . وحملُ المثبتات على من لم تحقّ عليهم الكلمة .

كلمته الأزلية يعني الذي قدَّر عز وجل أنهم في النار فهم لا يؤمنون .

وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه .

ومن ذلك ؛ الإخبار عن بعض الآياتِ ، أنه العليُّ الأعلى . وأنه فوقَ عبادِه وعلى عرشِه . وفي بعضِهَا : أنه معَ العباد أينما كانوا ، وأنه مع الصابرينَ والصادقينَ والمحسنين ، ونحوهم ، فعلوُّه تعالى أمر ثابتٌ له ، وهو من لوازمِ ذاته .

ودنوه ، ومعيته لعبادِه لأنَّه أقربُ إلى كلِّ أحد من حبل الوريد ، فهو على عرشه عليٌّ على خلقه ، ومع ذلك فهو معهم في كل أحوالهم ، ولا منافاةَ بين الأمرينِ ؛ لأنَّ اللَّه تعالى ليس كمثله شيء في جميعِ نعوته ، وما يتوهمُ بخلاف

ذلك فإنه في حق المخلوقين.

وأما تخصيص المعية بالمحسنين ونحوهم، فهي معية أخص من المعية العامة، تتضمن محبتهم وتوفيقهم، وكلاءتهم، وإعانتهم في كل أحوالهم، فحيث وقعت في سياق المدح والثناء فهي من هذا النوع، وحيث وقعت في سياق التحذير والترغيب والترهيب فهي من النوع الأول.

ومن ذلك؛ النهي في كثير من الآيات عن موالاة الكافرين وعن موادّتهم والاتصال بهم، وفي بعضها الأمر بالإحسان إلى مَنْ له حق على الإنسان منهم، ومصاحبته بالمعروف، كالوالدين والجار، ونحوهم.

فهذه الآيات العامات من الطرفين، قد وضّحها الله غاية التوضيح في قوله ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ الآية [الممتحنة: ٨، ٩].

فالنهيّ واقعٌ على التولي والمحبةِ لأجل الدين، والأمرُ بالإحسانِ والبر واقعٌ على الإحسان لأجلِ القرابة أو لأجلِ الجيرة أو الإنسانية على وجهٍ لا يُخِلُّ بدينِ الإنسان.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، الفرق بين البر والإقساط، البر: زيادة الفضل، والإقساط: العدل، فمثلاً إذا أحسنوا إلينا نحسن إليهم إذا كان لهم حق نحسن إليهم، أما الثاني: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة: ٩]، ولم يقل: «أن تبروهم» حتى هؤلاء ربما يكون في الإحسان إليهم خير، لكنهم ليسوا كالأولين، والموالاة لجميع الكفار محرمة، والموادة لجميع الكفار محرمة.

ومن ذلكَ ؛ أنه أخبرَ في بعضِ الآيات أن اللّه خلق الأرض ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وفي بعضها أنه لما أخبر عن خلق السماوات أخبر أن الأرض بعد ذلك دَحَاها .

فهذه الآيةُ تُفَسّرُ المراد وأن خلق الأرض متقدم على خلق السماوات ، ثم لما خلق اللّه السماوات بعد ذلك دحا الأرض فأودعَ فيها جميع مصالحها المحتاجِ إليها سُكّانُها .

ومن ذلك ؛ أنه تارةً يخبرُ أنه بكل شيءٍ عليم ، وتارةً يخبر بتعلّق علمه ببعض أعمالِ العباد وببعضِ أحوالهم ، وهذا الأخيرُ فيه زيادةُ معنى ، وهو يدلُّ على المجازاةِ على ذلك العمل ، سواءٌ كان خيرًا أو شرًّا ، فيتضمنُ مع إحاطةِ عمله الترغيبَ والترهيبَ .

ومن ذلك ؛ الأمرُ بالجهادِ في آياتٍ كثيرة ، وفي بعض الآياتِ الأمرُ بكفِّ الأيدي ، والإخلادِ إلى السكون ، فهذه حينَ كانَ المسلمونَ ليسَ لهم قوة ، ولا قدرةٌ على الجهادِ باليد ، والآياتُ الأُخرَى حين قَوُوا وصار ذلك عينَ المصلحة ؛ والطريقَ إلى قمعِ الأعداءِ .

ومن ذلك ؛ أنه تارةً يضيفُ الأشياءَ إلى أسبابها التي وقعت وتقع بها ، وتارةً يضيفها إلى عمومِ قدره ، وأن جميعَ الأشياءَ واقعةٌ بإرادته ومشيئته ، فيفيدُ مجموعُ الأمرينِ إثباتَ التوحيد ، وتفرّد الباري بإيقاع الأشياء بقدرته ومشيئته ، وإثباتَ الأسبابِ والمسبَّبات ، والأمرَ بالمحبوبِ منها ، والنهيَ عن المكروه ، وإباحةَ مستوي الطرفين ، فيستفيدُ المؤمنُ الجِدَّ والاجتهادَ في الأخذِ بالأسبابِ النافعة وتدقيق النظر وملاحظة فضل اللّه في كل أحواله ، وأن لا يتكلَ على نفسه في أمر من الأمور ، بل يتكلُ على اللّه ويستعين بربه .

وقد يخبرُ أن ما أصابَ العبدَ من حسنةٍ فمن الله ، وما أصابَ من سيئةٍ فمن نفسه ، ليَعْرِفَ عبادهُ أن الخيرَ والحسنات والمحابّ تقع بمحض فضله وجوده ، وإنْ

جرت ببعض الأسباب الواقعة من العباد؛ فإنّه هو الذي أنعمَ بالأسباب وهو الذي يَسّرها؛ وأن السيئات وهي المصائب التي تُصيبُ العبدَ، فإنما أسبابها من نفس العبد، وبتقصيره في حقوقِ ربّه، وتعدّيه لحدوده، فاللَّهُ وإنْ كانَ هو المقدِّرَ لها، فإنه قَدْ أَجْرَاهَا على العبدِ بما كسبت يَدَاه، ولهذا أمثلةٌ يطولُ عَدُّهَا.

ملخص هذه القاعدة السابقة هو أن القرآن جاءت فيه آيات ظاهرها التعارض، يعني أن بعضها يعارض بعضًا وهذا شيء لا يمكن في القرآن ولا في صحيح السنة أن تتعارض النصوص؛ لأن اللَّه يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. أما من عند اللَّه فليس فيه اختلاف. والعلماء رحمهم اللَّه يذهبون إلى الجمع بين هذه النصوص التي ظاهرها التعارض، إما باختلاف الأحوال أو باختلاف الأشخاص أو باختلاف الأزمان أو باختلاف الأمكنة، فهذه أربع حالات لا تعدو هذه الأحوال، وقد ألّف الشّنقيطي رحمه اللَّه كتابًا سماه: «دفع إيهام الاضطراب في آي الكتاب» جمع فيه الآيات التي قيل إنها متعارضة يعني أن ظاهرها التعارض وجمع بينها، والجمع - كما تعلمون - قد يكون مُتكلفًا وبعيدًا، وقد يكون قريبًا حسب ما يوفق الإنسان له، والمهم أن لدينا قاعدة ثابتة راسخة وهي: «أن القرآن لا يمكن أن يتعارض»؛ لأن التعارض معناه دفع بعضه ببعض، وهذا لا يمكن لأنه كلام من عند اللَّه عز وجل، ولكنّ ما ظاهره التعارض يُنَزَّل على اختلاف الأحوال أو الأوقات أو الأماكن أو الأشخاص، والمؤلف رحمه اللَّه ذكر أمثلة كثيرة من هذا النوع، وذكر كيف يُجمع بين هذه الآيات التي ظاهرها التعارض.

* * *

القاعدةُ الثالثةَ عشرة

طريقة القرآن في الحِجَاج والمجادلة

مع أهل الأديان الباطلة

قد أمر اللّٰه بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومن تأملَ الطرق التي نَصَبَ اللّٰه المحاجَّة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها مِن أوضح الحجج، وأقواها، وأقومها وَأَدَلّها على إحقاقِ الحق وإزهاق الباطل، على وجه لا تشويشَ فيه، ولا إزعاج.

فتأملْ مُحَاجَّة الرسل مع أُممهم وكيف دَعَوْهم إلى عبادة اللّٰه وحده لا شريك له، من جهة أنه المتفرِّد بالربوبية، والمتوحد بالنعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع والأبصار، والعقول والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفعِ النقم، وأنّ أحدًا من الخلق ليس يقدرُ على رفع ولا دفع، ولا ضر ولا نفع، فإنه بمجرد معرفة العبد ذلك واعترافِه به لابدّ أن ينقادَ للدينِ الحق، الذي به تتم النعمة، وهو الطريقُ الوحيد لشُكْرِهَا.

وكثيرًا ما يحتجُّ على المشركينَ في شركهم وعبادتهم لآلهتهم من دون ربهم بإلزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالقُ لكل شيء والرازقُ لكل شيء، فيتعينُ أن يكونَ هو المعبود وحده.

فانظر إلى هذا البرهان، كيف ينتقلُ الذهن منه بأول وهلة إلى وجوب عبادة مَنْ هذا شأنه، ذلك أن آثار ربوبيته تنادي بوجوب الإخلاص له.

وأظن أن الانتقال هذا واضح جدًّا، مثلًا لو أن رجلًا يعبدُ صنمًا نقول له: هل هذا الصنم أوجدك، هل خلقك؟ سيقول: لا. هل هو الذي يرزقك ويعافيك ويدفع عنك النقم؟ سيقول: لا، من الذي يفعل ذلك؟ سيقول: الله، فإذا قال: إن ذلك هو الله،

قلنا : إذن يجب عليك ألا تعبد إلا الله ، ما دمت تعترف أن النعم التي أمدك الله بها والنقم التي دفعها الله عنك قبل أن تصيبك ورفعها عنك بعد أن أصابتك ما دمت تعترف أنها من الله فإن الواجب عليك ألا تعبد إلا إياه . وأظن أن هذا واضح جدًا ، ولهذا يقول الله عز وجل بعد أن ذكر إقرارهم بالربوبية : ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦١] ، أو ﴿ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ [غافر : ٦٩] ، أي : كيف يُصرفون عن الحق مع وضوحه .

ويجادل المبطلين أيضًا بذكر عيب آلهتهم ، وأنها ناقصةٌ من كل وجه ، لا تُغني عن نفسها ، فضلًا عن عابديها شيئًا .

هذا أيضًا من أسباب الإلزام بعبادته وحده ، يقال : هذه الآلهة التي تعبد هل هي تنفعك ؟ هي بنفسها ناقصة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الحج : ٧٣] ، نقص في القدرة زيادة على ذلك نقص في الضعف : ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ [الحج : ٧٣] ، مع أن الذباب من أهون الحشرات وأحقرها ، ومع ذلك إذا سَلَب هذه الأصنامَ شيئًا وأخذه منها ما استنقذوه منه ، وهذا مَثَلٌ عظيم إذا تأملته عرفتَ أن جميع ما يُعبدُ مِن دونِ الله لا يستحق أن يكون ربًا ولا معبودًا .

ويُقيمُ الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يُستغربُ معه مُخَالَفَتُهُم لرسوله الخاتم محمد ﷺ الذي جاء مصدقًا لما سبقه من الرسالات التي مقصدها جميعًا واحد ، وهو فَكُّ أغلالِ التقليد عن قلوب بني آدم لينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بالتفكر في آياتِ ربهم ، فيعرفوا بذلك أنه الإله الحق ، وأن كل ما اتخذه الناس بوحي شياطين الإنس والجن من آلهة ، فلا يخرجُ شيء منها عن أَنْ يكون أثرًا من آثارِ هذه الآيات ، وأنَّها لذلك لا تليقُ بأي وجه لمشاركة ربها وخالقها في الإلهية ، ولا ينبغي أن تُعْطَى إلا حقَّها في المخلوقية والعبودية .

وأن الخالقَ الذي ليس كمثله شيء هو المستحِقُّ لكل أنواع العبادة وأن لا

يُعبد إلا بما أَحَبَّ وشَرَع .

وينقضُ على رؤساء المشركين ودعاة الباطل دعاويهم الباطلة وتزكيتهم لأنفسهم بالزور ، ببيان ما يضاد ذلك من أحوالهم وأوصافهم ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه ، وأَنَّ صِدْقَه وحقيقتَه تدفع بمجردها جميع الشبه المعارضة له ، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [يونس : ٣٢] .

وهذا الأصل في القرآن كثير ، فإنه يفيدُ الدعوةَ للحق وردّ كل باطل ينافيه . ويجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها ، وأنه لا يليقُ أن يجعلَ للمخلوق العبد الفقير العاجز من كل وجه شيئًا من حقوقِ الربِّ الخالق الغني ، الكامل من جميع الوجوه .

ويتحدَّاهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدى وأحسن من هذا الكتاب ومن هذه الشريعة ، وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين .

ويأمر نبيه بمباهلة مَنْ ظهرت مُكَابرته وعناده فينكصون عنها ، لعلمهم أنه رسول اللّٰه الصادق ، الذي لا ينطق عن الهوى وأنهم لو باهلوه لهلكوا .

وفي الجملة لا تجد طريقًا نافعًا فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا وقد احتوى عليه القرآن على أكمل الوجوه .

المباهلة مأخوذة من الابتهال إلى اللّٰه تعالى وهي المبالغة في الدعاء ، وصورتها أن يقف المتخاصمان ويقول بعضهم لبعض : لنتباهل ونقول : اللهم من كان منّا كاذبًا فعليه لعنة اللّٰه ، وما أشبه ذلك . مما يدعون به على الكاذب ، وهذا أشار اللّٰه إليه بقوله : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] ، الآية الثانية : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] .

خلاصة هذه القاعدة أنها في بيان مجادلة القرآن ومحاجته للمخالفين وأنها من أبين المجادلات وأوضحها وأعظمها حجة ، ومن طريقة القرآن في المجادلة أنه يعدل إلى الطريق الذي لا نزاع فيه عن الطريق الذي فيه النزاع ، حتى وإن أمكن إقناع الخصم بما فيه نزاع فإنه يدعه ويأتي بالطريق الواضح ، مثاله محاجة إبراهيم الذي حاجه في ربه: ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، يعني: أنا مثل ربك ، كيف يحيي ويميت هذا الرجل الظالم؟ يقول: إنه يُؤتَى إليه بالرجل المستحق للقتل فيعفو عنه ، وهذا على زعمه إحياء! ويؤتى إليه بالرجل غير جانٍ على نفسه ولا غيره ولا يستحق القتل فيقتله ، وهذا على زعمه إماتة! فإبراهيم عليه السلام ما ذهب يحاجه في هذه النقطة ، ولو حاجه إبراهيم لغلبه بلا شك ؛ لأن هذا ليس إحياء ولا إماتة ، غاية ما هنالك في المسألة الأولى المستحق القتل من المقتول أنه رفع عنه القتل والذي أبقى الحياة فيه مَنْ؟ الله ، لو شاء الله لمات ، وفي الثانية أيضًا غاية ما فيه أنه فعل سببًا يقتضي أن يموت هذا الرجل فقط ، وإلا فليس هو الذي أماته ولا الذي أحياه ، فبإمكان إبراهيم أن يجادل على هذه النقطة ، لكنه عدل إلى أمر يفحم ولا يستطيع التخلص منه ، فقال له إبراهيم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فماذا قال؟ ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهنا ينبغي عند المحاجة ، خصوصًا إذا عرفت أن الذي يحاجك لا يريد إلا أن ينصر قوله ، ينبغي أن تعدل عن الطريق الذي يحتاج إلى جدل إلى طريق واضح ما يحتاج إلى جدل .

* * *

القاعدة الرابعة عشرة

حذف المتعلّق المعمول فيه : يفيدُ تعميم المعنى المناسب له[1]

وهذه قاعدةٌ مفيدةٌ جدًّا ، متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة .

وذلك أن الفعل وما هو معناه متى قُيِّدَ بشيء تَقيد به ، فإذا أطلقه اللَّه تعالى ، وحذف المتعلِّق فعم ذلك المعنى . ويكونُ الحذفُ هنا أحسنَ وأفيدَ كثيرًا من التصريحِ بالمتعلِقات ، وأجمعُ للمعاني النافعة .

ولذلك أمثلة كثيرة جدًّا ؛ منها : أنه قال في عدة آيات : ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣] ، فيدل ذلك على أن المراد : لعلكم تعقلون عن اللَّه كل ما أرشدكم إليه وكل ما علمكموه ، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة . ولعلكم تذكرون فلا تنسون ولا تغفلون ، فتكونون دائمًا متيقظين مُرْهِفي الحواس تحسون كل ما تمرون به من سنن اللَّه وآياته ، فتذكرون جميع مصالحكم الدنيوية والدينية . ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه ، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه من جميع الذنوب والمعاصي ، ويدخلُ في ذلك ما كان سِياقُ الكلام فيه وهو فردٌ من أفراد هذا المعنى العام .

ولهذا كان قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] .

يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام ؛ أي لعلكم تتقون المحارمَ عمومًا ،

---

(١) انظر : « المحصول » (٢/٣٨٣) ، « البحر المحيط » (٣/١٦٢) ، « التشنيف » (٢/٦٨٨) .

ولعلكم تتقونَ ما حَرَّمَ اللّه على الصائمين من المفطِّرات والممنوعات ، ولعلكم تتصفونَ بصفة التقوى وتحصلون على كل ما يقيكم مما تكرهون ، وتتخلقون بأخلاقها ، وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ ، مثل قوله : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] أي المتقين لكل ما يُتَّقَى من الكفر والفسوق والعصيان ، المؤدّينَ للفرائض والنوافل التي هي خصال التقوى .

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] أي : إن الذين كانت التقوى وصفهم ، وترك المحارم شعارهم متى زين لهم الشيطان بعض الذنوب ، تذكروا كل أمر يوجب لهم المبادرةَ إلى المتاب لعظمة اللّه وما يقتضيه الإيمان وما توجبه التقوى ، وتذكروا عقابه ونكاله ، وتذكروا ما تحدثه الذنوبُ من العيوب والنقائص وما تسلبه من الكمالات ، فإذا هم مبصرون من أين أُتوا ، ومبصرون الوجه الذي فيه التخلص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه ، فبادروا بالتوبة النصوح ، فعادوا إلى مرتبتهم وعاد الشيطان خاسئًا مدحورًا .

وكذلك ما ذكره على وجه الإطلاق عن المؤمنين بلفظ « المؤمنين » وبلفظ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ونحوها ، فإنه يدخل فيه جميع ما يجب الإيمان به من الأصول والعقائد والأعمال والأحكام ، مع أنه قيد ذلك في بعض الآيات ، مثل قوله : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ الآية [البقرة : ١٣٦] ونحوها .

وكذلك ما أمر به من الصلاح والإصلاح ، وما نهى عنه من الفساد والإفساد مطلقًا ، يدخل فيه كلُّ صلاح كما يدخل في النهي كلُّ فساد كذلك .

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، ﴿ وَأَحْسِنُوا ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى ﴾ [يونس : ٢٦] ، ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

يدخل في ذلك كله : الإحسان في عبادة الخالق بأن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، والإحسانُ إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان من قول وفعل وجاه ، وعلم ومال وغيرها .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر : ١] ، فحذفَ المتكاثَرَ به ليعم جميع ما يقصد الناس فيه المكاثرة ؛ من الرياسات والأموال والجاه والضَّيْعَات ، والأولاد ، وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس فيلهيها (ذلك) عن طاعة الله .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر : ١ - ٢] أي في خسارة (لازمة) من جميع الوجوه .

ولهذا قال : ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، فجعل الخسر ظرفًا فيه والظرف محيط بالمظروف يعني أن الإنسان منغمس في الخسر ، والخسر محيط به من كل جانب ، إلا من اتصف بهذه الصفات العارضة ، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

إلا من اتّصف بالإيمان والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

وقوله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] ، فذكر المسئولين وأطلق المسئول عنه ، ليعمَّ كلَّ ما يحتاجه العبد ولا يعلمه .

فيعم كل ما يحتاجه العبد « كلما » في نسخة الشيخ مكتوبة جميعًا . قال الشيخ : ولا تكتب « جميعًا » إلا إذا كانت شرطية ، مثل : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [الحج : ٢٢] ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ [الملك : ٨] ، أما إذا كانت « كل » بمعنى الإحاطة فإن « كل » تكتب وحدها ، و« ما » وحدها ، [إذن العبارة] : كل ما يحتاجه العبد ولا يعلمه من أمور الدنيا والآخرة .

وكذلك أمره تعالى بالصبر ومحبته للصابرين وثناؤه عليهم وبيان كثرة أجورهم ، من غير أن يقيد ذلك بنوع ، ليشمل أنواعَ الصبر الثلاثة ، وهي : الصبر على طاعة الله ، وعن معصيته ، وعلى أقداره المؤلمة .

ومقابلُ ذلك ذمُّه للكافرين والظالمين والفاسقينَ والمشركينَ والمنافقين ، والمعتدين ونحوهم ، من غيرِ أن يقيدَه بشيءٍ ليشمل جميع ذلك المعنى .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٦] ليشمل كل حصر . ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة : ٢٣٩] ليعم كل خوف .

وقد يقيدُ ذلك ببعضِ الأمور فيتقيدُ به ما سيق الكلام لأجله .

وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر الأمثلة عليه لطالت ، ولكن قد فُتِحَ لك الباب ، فامش على هذا السبيل المفضي إلى رياض بهيجة من أصناف العلوم .

ويلتحق بهذه القاعدة أن الحكم المعلَّق بوصف يدل على عِلِّيَّة ذلك الوصف فيه ، فمثلًا إذا قلت : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر : ٤٥] ، أي من أجل تقواهم ، فالحكم المعلق بوصف يدل على علِّيَّة ذلك الوصف لهذا الحكم ، ويدل أيضًا على أنه يعم بعموم هذا الوصف ، وأنه يقوى كلما قوي ذلك الوصف ، ويضعف كلما ضعف ، ومنها مما لم يذكره المؤلف أيضًا لأنه أشار ، قال : الأمثلة كثيرة ، قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ [الضحى : ٦- ٨] ، لم يقل ﴿ ألم يجدك يتيمًا فآواك ، وضالًّا فهداك ، وعائلًا فأغناك ؛ لأن الذي حصل من هذا حصل له ولغيره ، فإن الله تعالى آواه وآوى به أيضًا ، فهو فئة كل مؤمن [(١)] ، وهو ملجأ كل مؤمن فيما يقدر عليه ، ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ هداه وحده أم هداه وهدى به ؟ هداه وهدى به ، ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ ، أغناه وأغنى به ، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام للأنصار : « ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم اللَّه بي ، وعالةً فأغناكم اللَّه بي ، ومتفرقين فألَّفكم اللَّه بي » [(٢)] ، فلو قال : ألم يجدك يتيمًا فآواك ، ووجدك ضالًّا فهداك ، ووجدك عائلًا فأغناك ، صار مُخصَّصًا ، فلما حذف المتعلَّق صار عامًّا .

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٤٧ ، ٥٢٢٣) ، والترمذي (١٧١٦) وحسنه ، وأحمد (٢/٧٠ ، ٨٦ ، ١٠٠ ، ١١١) ، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٢) عن ابن عمر ، وضعفه الألباني في الإرواء (١٢٠٣) .

(٢) متفق عليه : البخاري (٤٣٣٠) ، ومسلم (١٠٦١/٣٩) عن عبد الله بن زيد .

القاعدة الخامسةَ عشْرة

جعل اللّـه الأسباب للمطالب العالية مبشرات، لتطمين القلوب وزيادة الإيمان

وهذا في عدة مواضعَ من كتابه : فمن ذلك ؛ النصر قال في إنزاله الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال : ١٠] ، وقال في أسباب الرزق ونزول المطر : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦] .

واضح أنها بشرى لهم بالنصر في المستقبل وكذلك تطمئن به قلوبهم في الحاضر .

وأعم من ذلك كله قوله : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤] ، وهي كل دليل وعلامة تدلهم على أن اللّه قد أراد بهم الخير وأنهم من أوليائه وصفوته ، فيدخل فيه : الثناء الحسن ، والرؤيا الصالحة ، ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف والتوفيق ، والتيسير لليسرى ، وتجنيبهم العُسرى ؛ لأن اللّـه يقـول : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥- ٧] ، ويقول : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق : ٤] ، فإذا رأيت الأمور متيسرة لك ومسهلة وأن اللّه يقدر لك الخير حتى وإن كنت لا تحتسبه فهذه لا شك أنها بشرى ، وإذا رأيت الأمر بالعكس فصحّح مسارك ، فإن فيك بلاءً ، والنعم ما تكون استدراكًا إلا لمن أقام على معصية الله ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ [الأعراف : ١٨٢] ، أما إذا كانت من المؤمن فليست استدراجًا .

ومن ذلك ؛ بل من ألطف من ذلك أنه يجعل الشدات مبشرةً بالفرج ، والعسر مُؤذنًا باليسر ، وإذا تأملتَ ما قَصَّه عن أنبيائه وأصفيائه وكيف لما اشتدت

بهم الحال، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]؟ ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، رأيت من ذلك العجب العُجاب.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥- ٦]، ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»[1]. وأمثلة ذلك كثيرة. والله أعلم.

* * *

القاعدة السادسة عشرة

حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد

وذلك كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١]، ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧].

فحذف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولى من ذكره، ليدل على عظمة ذلك المقام وأنه لهوله وشدته وفظاعته لا يُعبَّر عنه ولا يدرك بالوصف. مثله قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] أي لما أقمتم على ما أنتم عليه من التفريط والغفلة واللهو.

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه عبد بن حميد في «مسنده» (٦٣٦)، وضعف إسناده الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين (ح١٩).

هذا واضح ، حذف الشيء في مقام التعظيم يدل على شدته ، وهوله ، وكذلك إبهامه وإجماله ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : ٧٧] ، هذا يدل على أنه غشيهم أمر عظيم ، وإلا لقال قائل : هذا تحصيل حاصل ، غشيهم ما غشيهم ، لكنه هذا من باب التعظيم وتفخيم الشيء ، كذلك هذه الآيات التي فيها ذكر الشرط وحذف الجواب كلها تدل على عظمة هذا الجواب .

* * *

القاعدة السابعة عَشْرة

بعض الأسماء الواردة في القرآن إذا أُفرد دل على المعنى العام المناسب له ، وإذا قُرِنَ مع غيره دل على بعض المعنى ، ودل ما قُرن معه على باقيه

ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة .

هذا مر علينا كثيرًا ، والكلمة لو أفردت عَمَّت ، وإذا قُرن معها غيرها خصّت ، فيقال : إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا .

منها : الإيمان ؛ أُفْرِدَ وحدَه في آيات كثيرة ، وقُرِنَ مع العمل الصالح ، في آيات كثيرة .

فالآيات التي أُفردَ فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة . ولهذا يرتبُ اللَّه عليه حصول الثواب ، والنجاة من العقاب ، ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره ، وهو عند السلف : قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح .

والآيات التي قُرِنَ الإيمان فيها بالعمل الصالح ؛ كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] يُفسَّر الإيمانُ فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق، والاعتقاد والإنابة؛ والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية.

وكذلك لفظ «البر، والتقوى» فحيث أُفرِدَ البر دخلَ فيه امتثالُ الأوامر واجتناب النواهي، وكذلك إذا أُفردت التقوى. ولهذا يرتبُ اللَّهُ على البر وعلى التقوى عند الإطلاق: الثواب المطلق، والنجاةَ المطلقة كما يرتبُه على الإيمان.

وتارةً يُفَسِّرُ أعمالَ البر بما يتناولُ أفعالَ الخير وتركَ المعاصي، وكذلك في بعض الآيات تفسيرُ خِصَالِ التقوى، كما في قوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٤] إلى آخر ما ذكره من الأوصاف التي تتم بها التقوى.

وإذا جُمِعَ بين البر والتقوى، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] كان «البر» اسمًا جامعًا لكل ما يحبهُ اللَّه ويرضاه من الأقوالِ والأفعالِ؛ الظاهرة والباطنة. وكانت «التقوى» اسمًا جامعًا يتناولُ ترك جميع المحرمات، وكذلك لفظ «الإثم» و«العدوان» إذا قُرِنَا فسر الإثم بالمعاصي التي بين العبد وبين ربه، والعدوان بالتجرئ على الناس في دمائهم وأعراضهم، وإذا أُفرِدَ «الإثم» دخل فيه كل المعاصي التي تُؤَثِّمُ صاحبها، سواءٌ كانت بينه وبين ربه، أو بينه وبين الخلق، وكذلك إذا أُفرِدَ «العدوان».

وكذلك لفظ «العبادة والتوكل» ولفظ «العبادة والاستعانة» إذا أُفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه اللَّه ويرضاه ظاهرًا وباطنًا، ومن أول ما يدخل فيها: التوكل والاستعانة. وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة، نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]؛ فُسِّرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفُسِّرَ التوكلُ باعتمادِ القلبِ على اللَّه في حصولها وحصولِ جميع المنافع ودفع المضار، مع

الثقة التامة بالله في حصولها .

وكذلكَ « الفقيرُ والمسكين » إذا أُفرد أحدُهما دخلَ فيه الآخر كما في أكثر الآيات ، وإذا جُمِعَ بينهما كما في آية الصدقات : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة : ٦٠] فُسِّر الفقيرُ بمن اشتدت حاجته ، وكان لا يجد شيئًا ، أو من يجد شيئًا لا يقع منه موقعًا ، وفسر « المسكين » بمن حاجته دون ذلك .

ومثلُ ذلكَ الألفاظُ الدالة على تلاوة الكتاب والتمسك به وهو اتباعه ، يشملُ ذلك : القيامَ بالدينِ كلِّه ، فإذا قُرِنَت معه الصلاة كما في قوله تعالى : ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف : ١٧] كان ذكرُ الصلاة تعظيمًا لها وتأكيدًا لشأنها ، وحثًّا عليها ، وإلا فهي داخلةٌ في الاسم العام وهو التلاوة والتمسك به وما أشبهَ ذلك من الأسماء .

* * *

القاعدةُ الثامنة عَشَرة

[إطلاق الهداية والإضلال وتقييدها]

في كثير من الآيات يُخبر بأنه يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وفي بعضها يذكرُ مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد ، الموجبةَ للهداية أو الموجبة للضلال ، وكذلك حصول المغفرة وضدها ، وبسط الرزق وتقديره ، وذلك في آيات كثيرة ، فحيثُ أخبرَ أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويغفرُ لمن يشاء ويعذب من يشاء ويرحم من يشاء ويبسط الرزق لمن يشاء ويقتره على من يشاء ، دل ذلك على كمال توحيده وانفراده بخلق الأشياء ، وتدبيرِ جميع الأمور ، وأن خزائنَ الأشياء بيده ، يعطي ويمنع ويخفض ويرفع ، فيقتضي مع ذلك من العباد

أن يعترفوا بذلك وأن يُعلِّقوا أملهم ورجاءهم به في حصول ما يحبون منها، وفي دفع ما يكرهون وأن لا يسألوا أحدًا غيره. كما في الحديث القدسي: « يا عبادي، كلكم ضالٌ إلا من هديتُه، فاستهدوني أهدكم » إلى آخره[1].

وفي بعض الآيات: يذكر فيها أسبابَ ذلك، ليعرفَ العباد الأسباب والطرق المفضية إليها، فيسلكوا النافع ويدعوا الضار كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥- ١٠]، فبيَّنَ أن أسباب الهداية والتيسير تصديق العبد بربه وانقيادُه لأمره، وأن أسباب الضلال والتعسير ضدُّ ذلك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [المائدة: ١٦]، ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠]، فأخبرَ أنَّ اللَّه يهدي مَنْ كان قَصْدُه حَسَنًا ومن رغب في الخير، واتبع رضوان الله، وأن اللَّه يضل مَنْ فسق عن طاعة اللَّه وتولى أعداءه من الشياطين، ورضي بولايتهم عن ولاية رب العالمين.

وكذلك قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وكذلك يذكرُ في بعض الآيات الأسبابَ التي تُنالُ بها المغفرة والرحمة ويُستحقُّ بها العذاب، كقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر.

الأُمِّيّ ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ثم ذكر الأسبابَ التي تُنَالُ بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨].

هذه الآية عظيمة، يعني لو قال لنا قائل: أنا أرجو رحمة الله وأخاف عذاب الله، ننظر هل هو من هؤلاء المتصفين بهذه الصفات؟ إن كان كذلك فهو صادق، وإن كان غير ذلك فإنه ممن تمنى على الله الأماني؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، أما تقول: أريد رحمة الله ولا تصلي، فالذي يرجو رحمة الله حقيقة لا بد أن يفعلها.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وأعم من ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عمومًا، وهذه الأسبابُ المذكورة خصوصًا، وأخبرَ أنَّ العذابَ له أسباب متعددة وكلها راجعةٌ إلى شيئين: التكذيبُ لله، والتولي عن طاعة الله ورسوله، كقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٥- ١٨]، ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨].

وكذلك يذكر أسباب الرزق، وأنه لزوم طاعة الله ورسوله والسعي الجميل مع لزوم التقوى، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢- ٣]، وانتظار الفرج والرزق: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وكثرة الذكر والاستغفار: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ

ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود: ٣]، و﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ الآيات [نوح: ١٠ - ١١]؛ فأخبر أن الاستغفار سبب يستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره، وضدُّ ذلك سببٌ للفقر والتيسير للعسرى؛ وأمثلة هذه القاعدة كثيرة قد عرفت طريقها فالزمه.

* * *

القاعدة التاسعة عشرة

ختم الآيات بأسماء الله الحسنى، يدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم

القاعدة التاسعة عشرة ختم الآيات بأسماء الله الحسنى يدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك بالاسم الكريم، الحكم المذكور يعني أن الذي عُقب بالاسم يدل على أن له تعلقًا بذلك الاسم، مثل: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فإن قطع اليد يتناسب مع عزة الله وحكمته، فإذن إذا ختمت الآية باسم من أسماء الله فإن حكم ذلك يتعلق بما يدل عليه من ذلك الاسم.

وهذه القاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته، ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم من معرفة الله ومعرفة أحكامه، من أجل المعارف وأشرف العلوم.

تجد آية الرحمة مختومة بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر.

ولا بأس هنا أن نتتبع الآيات الكريمة في هذا ، ونشيرُ إلى مناسبتها بحسب ما وصل إليه علمنُا القاصر ، وعبارتنا الضعيفة ، ولو طالت الأمثلةُ هنا ؛ لأنها من أهم المهمات ، ولا تكادُ تجدها في كتب التفسير إلا يسيرًا منها .

فقوله تعالى : ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٩] ، ذكرُ إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسماوات يدلُّ على إحاطة بما فيهما من العلوم العظيمة ، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده ، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام ، وأن خَلْقه لها من أدلة علمه ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] فخلقه للمخلوقات من أكبر الأدلة العقلية على علمه ، فكيف يخلقها وهو لا يعلمها ؟

ولما ذكر كلامَ الملائكةِ حين أخبرهم أنَّه جاعلٌ في الأرضِ خليفة ، ومراجعتهم لربهم في ذلك ، فلما خلق آدم وعلمه أسماءَ كل شيء وعجزت الملائكة عنها وأنبأهم آدم بها ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ٣٢] ، فاعترفوا لله تعالى بسعة العلم ، وكمال الحكمة ، وأنهم مخطئون في مراجعتهم باستخلافه في الأرض .

وفي هذا : أن الملائكة على عظمتهم وسعة معارفهم بربهم اعترفوا بأن علومَهُم تضمحلُّ عند علم ربهم ، وأنه لا علم لهم إلا منه ، فَخَتْمُ هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين الدالين على علمِ اللّٰه بآدمَ ، وتمام حكمته في خلقه ، وما يترتبُ على ذلك من المصالح المتنوعة ؛ من أحسن المناسبات .

وأمَّا قوله عن آدم : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٣٧] ، وختمه كثيرًا من الآيات بهذين الاسمين بعد ذكر رحمته ومغفرته ، وتوفيقه وحلمه ، فمناسبة جَليّة لكل أحد ، وأنه لما كان هو التوابَ الرحيم ، أقبلَ بقلوب التائبين إليه ، ووفقهم لفعل الأسباب التي يتوب عليهم ويرحمهم بها ، ثم غفر لهم ورحمهم ، فتاب عليهم أولًا بتوفيقهم للتوبة

وأسبابها ، وتاب عليهم ثانيًا حين قبل متابهم ، وأجاب سؤالهم ، ولهذا قال في الآية الأخرى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة : ١١٨] أي أقبل بقلوبهم ، فإنه لولا توفيقه وتركُ قلوبهم إلى ذلك لم يكن لهم سبيل إلى ذلك ، حين استولت عليهم النفس الأمارة ، فإنها لا تأمر إلا بالسوء ، إلا من رحم الله . فأعاذه منها ومن نزغات الشيطان .

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كمال قدرته ، وتفرده بالملك ، فقال : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة : ١٠٦ ، ١٠٧] ، وفي هذا ردٌّ على من أنكر النسخ كاليهود ، وأن نسخه لما ينسخه من آثار قدرته وتمام ملكه ، فإنه تعالى يتصرف في عباده ، ويحكم بينهم بأحكامه القدرية وأحكامه الشرعية ، فلا حجر عليه في شيء من ذلك .

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ، قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ١١٥] ، أي واسع الفضل ، واسع الملك ، جميع العالم العلوي والسفلي بعض ملكه ، ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيطٌ علمُه بذلك كله ، ومحيطٌ علمُه بالأمور الماضية والمستقبلة ، ومحيط علمه بما في التوجه إلى القِبَل المتنوعة من الحكمة .

قِبل جمع قبلة ، كحِكَم جمع حكمة ، والمعنى : أن الناس كانوا أول مقدم النبي ﷺ يصلون إلى بيت المقدس ، فهو قبلة ، ثم نسخ إلى بيت الله الحرام ، فصار قبلة ، هذه هي الحكمة ، أن الله شرع لهم أول ما قدم النبي ﷺ بيت المقدس ، ثم نسخ ذلك .

ومحيط علمه بنيات المستقبلين لكل جهة من الجهات إذا أخطأوا القبلة المعينة ، فحيثما تيمم المصلى تيمم إلا وجه ربه .

وأما قول الخليل وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧] ، فإنه توسل إلى الله

بهذين الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل، حيث كان اللَّه يعلم نياتِهِمَا ومَقَاصِدَهُما، ويسمعُ كلامهما ويجيبُ دعاءهما فإنه يرادُ بالسميع في مقام الدعاء: دعاءُ العبادة ودعاء المسألة - معنى المستجيب، كما قال الخليل في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

إذن هذه فائدة إذا جاء لفظ السميع في مقام الدعاء وسواء دعاء المسألة أو دعاء العبادة فهو بمعنى الاستجابة، فمنه في دعاء العبادة: «سمع اللَّه لمن حمده»[(١)]، هذا دعاء عبادة، وأن الحامد يدعو اللَّه سبحانه وتعالى بعبادته، فمعنى: «سمع اللَّه لمن حمده» أي: استجاب. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ هذا دعاء مسألة، فمعنى السميع أي يجيب الدعاء.

وأما ختم قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فمعناه: فكما أن بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمامُ عزة الله، وكمال حكمته، فإنه ليس من حكمته أن يترك الخلق سدًى عبثًا، لا يرسلُ إليهم رسولًا، فحقق اللَّه حكمته ببعثه؛ لئلا يكون للناس على اللَّه حجة، والأمور كلها؛ قدريُّها وشرعِيُّها، لا تقوم إلا بعزة الله، ونفوذ حكمه.

وقد يكتفي اللَّه بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها، لينبه عبادَهُ أنهم إذا عَرَفوا اللَّه بذكر الاسم العظيم، عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة: ٢٠٩] لم يقل: فلكم من العقوبة كذا، بل قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩] أي: فإذا عرفْتم عزته، وهي قهره وغلبته، وقوته وامتناعه وعَرفتم حِكْمَتَه، وهو وضعه الأشياء - موضعها، وتنزيلها مَحَالَّها أوجبَ لكم الخوف من البقاء على ذنوبكم وزَلَلِكم؛ لأن من حكمته معاقبةَ من يستحق

---

(١) يعني في الرفع من الركوع، كما ورد في أحاديث كثيرة، أصحها ما أخرجه البخاري (٦٩٠)، ومسلم (٤٧٤/١٩٩) عن البراء.

العقوبة ؛ وهو المصرُّ على الذنب مع علمه ، وأنه ليس لكم امتناع عليه ، ولا خروج عن حكمه وجزائه ، لكمال قهره وعزته.

وكذلك لما قال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾ لم يقل : فاعفوا عنهم ، أو : اتركوهم ، ونحوها ؛ بل قال : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٤] يعني : فإذا عرفتم ذلك وعلمتموه عرفتم أن من تاب وأناب فإن الله يغفر له ويرحمه ، فيدفع عنه العقوبة.

ولما ذكر عقوبة السارق قال في آخرها : ﴿ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨] أي : عزَّ وحَكَمَ فقطع يد السارق ، وعزَّ وحكم فعاقب المعتدي شرعًا وقدَرًا وجزاء.

ولما ذكر مواريث الورثة وقدْرها قال : ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١١] ، فكونه عليمًا حكيمًا يعلم ما لا يعلمُ العباد ، ويضعُ الأشياءَ مواضعَها ، فاخضعوا لما قاله وفعَلَه ، وفصَّلَه في توزيع الأموال على مستحقيها الذين يستحقونها بحسَب علم الله وحكمته ، فلو وَكَلَ العبادَ إلى أنفسهم ، وقيل لهم : وَزِّعُوهَا أنتم بحَسَب اجتهادكم لدخلها الجهلُ والهوى ، وعدم الحكمة ، وصارت المواريث فوضى ، وحصل بذلك من الضرر ما الله به عليم ، ولكن تولاها وقسمها بأحكام قدّمة وأوفقها للأحوال ، وأقواها للنفع .

ولهذا مَنْ قدح في شيء من أحكامه ، أو قال : لو كان كذا وكذا فهو قادح في علم الله وفي حكمته .

ولهذا يذكر الله العلمَ والحكمة بعد ذكر الأحكام ، كما يذكرها في آيات الوعيد ليبين للعباد أن الشرع والجزاء مربوطٌ بحكمته ، غيرَ خارج عن علمه .

ويختمُ الأدعية بأسماء تناسبُ المطلوب . وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، أي : تعبَّدُوا

لله بها، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩]، والآيات المتتابعة التي بعدها، كل واحدة خُتِمتْ باسمين كريمين.

فالأول منها هذه: خَتْمُهَا بالعلم والحلم؛ يقتضي علمه بنياتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة ومقاماتهم الشامخة، فيجازيهم على ذلك بالفضل العظيم، ويعفو ويَحْلُم عن سيئاتهم، فكأنهم ما فعلوها.

وخَتْمُ الثانية بالعفو الغفور، فإنه أباحَ المعاقبةَ بالمثلِ، ونَدَبَ إلى مقام الفضل، وهو العفو وعدمُ معاقبةِ المسيئ، وأنه ينبغي لكم أن تتعبدوا لله بالاتصاف بهذين الوصفين الجليلين لتنالوا عفوه ومغفرته.

وختمُ الآية الثالثة بالسميع البصير، يقتضي سمعه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار، وبصره بحركاتهم على اختلاف الأوقاف وتباين الحالات.

وختم الآية الرابعة: بالعلي الكبير؛ لأنّ علوه المطلق وكبرياءه وعظمته ومجده، تضمحلُ معها المخلوقات ويبطلُ معها كل ما عُبِدَ من دونه، وبإثبات كمال علوه وكبريائه، يتعين أنه هو الحق وما سواه باطل.

وختم الآية الخامسة: باللطيف الخبير، الدالين على سعة علمه وخبرته بالبواطن كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور وألوان النباتات، وأنه لَطَف بعباده حيث أخرَج لهم أصنافَ الأرزاقِ، بما أنزله من الماء النَّمِير، والخير الغزير.

وختم الآية السادسة: بالغني الحميد، بعدما ذكرَ مُلْكَهُ للسماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وأنه لم يَخْلُقْهَا حاجةً منهُ لَهَا، فإنه غني مطلق، ولا لِيَتَكَمَّلَ بها، فإنه الحميد الكامل، وليدلهم على أنهم كُلَّهم فقراءُ إليه من جميع الوجوه، وأنه حميدٌ في أقداره، حميدٌ في شرعه، حميدٌ في جزائه، فله الحمد المطلق ذاتًا وصفات وأفعالًا.

وختم السابعة؛ بالرؤوف الرحيم، أي من رأفته ورحمته تسخيره المخلوقات

لبني آدم وحفظ السماوات والأرض وإبقاؤها لئلا تزول ، فتختلَّ مصالحهم ؛ ومن رحمته سخر لهم البحار لتجري في منافعهم ومصالحهم ، فرحمهم حيث خَلقَ لهم المسكن وأودع لهم فيه كل ما يحتاجونه ، وحَفِظَهُ عليهم وأبقاه .

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم ، ختم كل قصة بقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [آية : ٦٨] ، فإن كل قصة تَضَمَّنت نجاة النبي وأتباعه ، وذلك برحمة الله ولطفه ، وإهلاك المكذبين له ، وذلك من آثار عزته .

وقد يتعلق مقتضى الاسمين بكل من الحالتين ، فإنه نجى الرسول وأتباعه بكمال قوته وعزته ورحمته ، وأهلك المكذبين بعزته وحكمته ، ويكون ذكر الرحمة يقتضي عِظَم جُرْمهم ، وأنه لولا أن جرمهم تعاظم وسدُّوا على أنفسهم أبواب الرحمة ولم يكن لهم طريق إليها كما حلَّ بهم العقاب .

وأما قول عيسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، ولم يقل : أنت الغفور الرحيم ، فإن المقام ليس مقام استعطاف واسترحام ، وإنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه إلهًا مع الله ، فناسب ذكر العزة والحكمة ، فصار أولى من ذكر الرحمة والمغفرة .

ومن ألطف مقامات الرجاء ؛ أن يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة ، ثم يختمها بما يدل على الرحمة ؛ مثل قوله : ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٩] ، وقوله : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٣] ، فذلك يدل على أن رحمته سبقت غضبه وغلبته ، وصار لها الظهور ، وإليها ينتهي كل من فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة ، ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان[1] ،

(١) متفق عليه : البخاري (٤٤) ، ومسلم (١٩٣/٣٢٥) عن أنس .

ولنقتصر على هذه الأمثلة ، فإنه يُعرف بها صفة الاستدلال بذلك .

الخلاصة : هذه القاعدة لها وجهان : الأول : أن ختم الآية باسم من أسماء اللَّه تعالى لا يكون إلا مناسبًا لذلك الحكم الذي خُتم بهذين الاسمين ، مثال لذلك : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وقد مر عليكم اعتراض الأعرابي على القارئ الذي قرأ : « نكالًا من اللَّه والله غفور رحيم » ، ولا يخرج عن هذه القاعدة شيء إلا بسبب ؛ مثل : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، قد يقول قائل : « وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم » ، لكن لما كان هنا المقام مقام عزة وكمال تصرف : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، فهؤلاء لهم حالة إما عذاب وإما رحمة ومغفرة ، فلهم ما تقتضيه العزة والحكمة لعنادهم واستكبارهم ، والحاصل أنه لا يخرج عن ما تدل الآية من الحكم إلى شيء من أسماء اللَّه ليس ما يتضمن ذلك الحكم إلا لسبب وفائدة .

الوجه الثاني من هذه القاعدة : أن خَتم الآية باسم من أسماء اللَّه يدل على أن الحكم مطابق لذلك الاسم ، فهذا الوجه غير الوجه الأول ، فمثلًا : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : ٣٤] ، وكان الإنسان يتوقع أن يُقال : ستسقط عنهم العقوبة ، لكنه لم يقل هذا ، وإنما قال : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي : سقط عنهم الحد في عموم مغفرة اللَّه ورحمته ، ومن ذلك قوله تعالى في المولي : ﴿ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٦ - ٢٢٧] ؛ لأن فيئهم إلى زوجاتهم مما يحبه اللَّه ويكون سببًا للمغفرة والرحمة ، وأما عزمهم الطلاق فهو أمرٌ ليس محبوبًا إلى الله ، ولهذا قرنه بما يشير إلى نوع من العقوبة فقال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، هذا هو مجمل هذه القاعدة .

المعرف بـ « أل » يدل على ملاحظة أصل الصفة مثل : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] ، وفي آية أخرى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٦] ، فالآيتان سواء في اللفظ

وفي كل شيء ، إلا في التعريف في « سميع وعليم » ، فيكون في الآية الأولى لوحظ فيها مطلق الصفة ، والثانية لوحظ فيها كمال الصفة .

القاعدة العشرون

القرآن كله محكم باعتبار ، وكله متشابه باعتبار ، وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث

وقد وصفه اللَّه تعالى بكل واحدةٍ من هذه الأوصاف الثلاث .

فوصفه بأنه محكمٌ في عدةِ آيات ، وأنه ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ومعنى ذلك : أنه في غايةِ الإحكام ونهاية الانتظام ، فأخباره كلها حق وصدق ، لا تناقض فيها ولا اختلاف ، وأوامره كلها خير وبركة وصلاح ، ونواهيه متعلقة بالشرور والأضرار والأخلاق الرذيلة والأعمال السيئة ، فهذا إحكامه .

وَوَصَفَهُ بأنه متشابه في قوله : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] أي متشابهًا في الحسن والصدق والحق ، وورودِه بالمعاني النافعة المزكية للعقول ، المطهرة للقلوب ، المصلحة للأحوال ، فألفاظه أحسنُ الألفاظ ، ومعانيه أحسن المعاني .

وَوَصَفَهُ بأنَّ : ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فهنا وصفه بأن بعضه هكذا أو بعضه هكذا ، وأن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلى المحكم ، فيصير كله محكمًا ، ويقولون : ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] أي : وما كان من عنده فلا تناقضَ فيه ، فما اشتبه منه في موضع فسّره الموضع الآخر المحكم ، فحصلَ العلمُ وزالَ الإشكال .

ولهذا النوع أمثلةٌ ، منها : ما تقدم من الإخبار بأنه على كل شيء قدير ، وأنَّ ما

شاءَ اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

فإذا اشتبهت على مَنْ ظن به خلاف الحكمة، وأن هدايته وإضلاله يكونُ جُزَافًا لغير سبب وضحت هذا الإطلاق الآياتُ الأُخر الدالة على أن هدايته لها أسباب، يفعلها العبد، ويتصف بها؛ مثل قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٧]، وأن إضلاله لعبده لها أسباب من العبد، وهو توليه للشيطان: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وإذا اشتبهت على الجبري الذي يَرَى أن أفعال العباد مجبورون عليها، بينتها الآيات الأخر الكثيرة الدالةُ على أن اللَّه لم يجبر العباد، وأن أعمالهم واقعةٌ باختيارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة.

كما أن هذه الآيات التي أضافَ اللهُ فيها الأعمال إلى العبادِ حَسَنَها وسيئها، إذا اشتبهت على القدرية النُّفَاة، فظنوا أنها منقطعة عن قضاء اللَّه وقدره، وأن اللَّه ما شاءها منهم ولا قدَّرها، تُليت عليهم الآيات الكثيرة الصريحة بتناول قدرة اللَّه لكل شيء من الأعيان والأعمال والأوصاف، وأن اللَّه خالق كل شيء.

ومن ذلك أعمال العباد، وأن العبادَ لا يشاءون إلا أن يشاء اللَّه رب العالمين.

وقيل للطائفتين: إن الآيات والنصوص كلّها حق، ويجبُ على كل مسلم تصديقها والإيمان بها كلها، وأنها لا تتنافى، فهي واقعة منهم وبقدرتهم وإرادتهم، وأن اللَّه تعالى خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

وما أُجْمِلَ في بعض الآيات فَسَّرَتْه آيات أخر، وما لم يتوضّح في موضع

توضَّح في موضع آخر . وما كان معروفًا بين الناس وورد فيه القرآن آمرًا أو ناهيًا، كالصلاة والزكاة، والزنا والظلم، ولم يُفصِّله ، فليس مُجملًا ؛ لأنه أرشدهم إلى ما كانوا يعرفون ، وأحالهم على ما كانوا به متلبسين، فليسَ فيه إشكال بوجه . والله أعلم .

هذه القاعدة بين فيها المؤلف أن القرآن وصفه الله تعالى بأنه محكم وبأنه متشابه وبأنه جامع بينهما محكم ومتشابه ، فعلى المعنى الأول : محكم أي متقن فأخباره صدق وأحكامه عدل ؛ لأن الخلل في الخبر يكون بمخالفة الصدق ، والخلل في الحكم يكون بمخالفة العدل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] ، لأنه كله محكم من هذا الوجه محكم أي متقن في أخباره وفي أحكامه ، ففي أخباره كلها صدق وليس فيها كذب ، وفي أحكامه كلها عدل ليس فيها جَوْر ولا ظلم بوجه من الوجوه ، ونزيد أيضًا بالنسبة لشريعة الإسلام المحمدية أن أحكامه كلها يسرٌ ليس فيها مشقة كما قال تعالى في وصف النبي ﷺ : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وصفه بأنه متشابه ؛ أي يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة في الأسلوب والبلاغة في الصدق في العدل في كل شيء ، فبعضه يشبه بعضًا لا يخالف لفظًا ولا يناقضه ، أمره بين أمرين ؛ الإحكام والتشابه ، فمعنى الإحكام هنا : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] أي : واضحات جليات ، الإحكام هنا بمعنى الإيضاح والبيان ، والمتشابه هو الخفي المعني الذي لا يتبين وجه صوابه إلا للراسخين في العلم ، ولهذا قال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٧] ، وأما الراسخون في العلم فيقولون آمنا به ويعلمون أنه يخفى على غيرهم ، وهنا محط النزاع ومحط الأفكار وموضع الاختبار ، فإن من الناس من إذا رأى مثل هذه النصوص المتشابهة التي ظاهرها يخالف بعضًا أخذ منها سببًا للطعن في القرآن الكريم ، وقال : إن هذا القرآن يتناقض ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ، ثم يقول : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، إذا كان سميعًا بصيرًا فقد ماثل مَنْ له سمعٌ وبصر . إذن فيه اشتباه ، ﴿ وَلَا

يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٦] ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٤٢] ، ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ، ﴿ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه : ١٠٢] ، ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٦] ، ومثل هذه الآيات يقول قائل : هذا تناقض ، ﴿ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ، وفي الآية الأخرى : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ، والذي حلف : « ما هو مشرك » كاتم أم لا ؟ كاتم ، بل حالف على ذلك ، يقول : والله ما أشرك ، وهو كاذب ، فهذا التناقض ؛ الذي يقول هذا هم الذين في قلوبهم زيغ : ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ ، مع أنه حدثنا في الآية الأخرى أنه ينطقون ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

إذن هذا تناقض . يقول ذلك من كان في قلبه زيغ ، فتجد الزائغين – والعياذ بالله – يتبعون هذا المتشابه ، إذن نقول على الوجه الثالث المحكم يشاركه الواضح البيِّن ، والمتشابه الخفي الذي لا يتبين إلا للراسخين في العلم ، فإن قلت : ما الحكمة في أن اللَّه عز وجل يجعل هذا ؟ لماذا لم يكن القرآن كله محكمًا ظاهر المعنى بيّنًا ؟ قلت : الحكمة في ذلك الامتحان والاختبار ؛ لأن من الزائغين يتخذون من ذلك مطعنًا للقرآن ليبرروا لأنفسهم الكفر به – والعياذ بالله – وأما الراسخون في العلم فيتخذون من هذا بيانًا لحكمة اللَّه عز وجل في جعل القرآن على هذين الوجهين محكمًا ومتشابهًا حتى يحيا مَنْ حَيَّ عن بينة ويهلك مَنْ هلك عن بينة . وهذا كما نراه الآن في كلمات اللَّه الشرعية يكون أيضًا في كلمات اللَّه الكونية ، قد يأتي رجل بجوار صاحب قبر ويقول : يا ولي الله ، يا سيدي ، يا مَلْجئي ، ما مُستغاثي أنقذ ولدي من المرض ، فإذا ذهب إلى بيته وجد ولده قد برئ ، فيه اشتباه أن الذي برأ ولده الولي ، لكن عندما يأتي مثل هذه الحال إلى الراسخين في العلم يقولون : لا يمكن أن يكون هذا من صاحب القبر ؛ لأن صاحب القبر دون الله ، واللَّه عز وجل يقول : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل : ٢٠] ، ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٩٢] ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ

يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، فيقول الراسخون في العلم: نحن نعلم علم اليقين أن هذا ليس من دعاء هؤلاء، ولكنه فتنة من الله عز وجل عند دعاء هؤلاء لا بدعاء هؤلاء.

* * *

القاعدة الحادية والعشرون

القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد

وهذه قاعدةٌ جليلة المقدار، عظيمةُ النفع، فإن الله أمرَ عباده بالمعروف. وهو ما عُرِفَ حُسنه شرعًا وعقلًا وعرفًا. ونهاهم عن المنكر، وهو ما ظهر قبحُه شرعًا وعقلًا وعرفًا. وأمرَ المؤمنينَ بالأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، ووصفهم بذلك.

فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال والأوقات كالصلاة والزكاة، والصوم، والحج، وغيرها من الشرائع الراتبة فإنه أَمَر به: كلٌّ في وقت. والواجبُ على الآخِرِين نظيرُ الواجب على الأولين من هذه الأمة. وما كان من المنكر لا يتغيرُ كذلك بتغير الأوقات كالشرك والقتل بغير حق، والزنا، وشرب الخمر، ونحوها ثبتت أحكامُه في كل زمان ومكان، لا تتغير، ولا يختلف حكمها.

وما كان يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة والأحوال، فهو المراد ههنا. فإن الله تعالى يَرُدّهم فيه إلى العرف والعادة والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت.

وذلك أنه أَمَر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعيِّن لعباده شيئًا مخصوصا من الإحسان والبر، ليعمَّ كل ما تجدد من الأوصاف والأحوال،

فقد يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص دون حق الشخص الآخر.

فالواجب الذي أوجبه الله النظر في الإحسان المعروف في وَقْتِكَ وَمَكَانِكَ في حق والديك.

ومثل ذلك: ما أَمر به من الإحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب ونحوهم، فإن ذلك راجعٌ في نوعه وجنسه وأفرادِه إلى ما يتعارفه الناسُ إحسانًا.

وكذلك ضده من العقوق والإساءة، ينظرُ فيه إلى العرف، وكذلك قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فرَدّ الله الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل منهما على الآخر على المعروف المتعارف عند الناس في قُطْرِكَ، وبلدك وحالك.

وذلك يختلفُ اختلافًا عظيمًا، لا يمكن إحصاؤه عَدًّا.

فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة. وهذا من آيات القرآن وبراهين صدقه.

وقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦] فأمر عباده الأكل والشرب واللباس، ولم يعين شيئًا من الطعام والشراب واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلفُ باختلاف الأحوال فيتعلق بها أمره حيث كانت، لا ينظرُ إلى ما كانَ موجودًا منها وقت نزول القرآن فقط.

وكذلك قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ومن المعلوم: أن السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن غير نوع القوة الموجودة بعد ذلك.

فهذا النص يتناول كل ما يستطاع من القوة في كل وقتٍ وبما يناسبه ويليق به.

وكذلك لما قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٣١] لم يعين لنا نوعًا من التجارة ولا جنسًا. ولم يُحَدّد لنا ألفاظا يحصل بها الرضى وهذا يدل على أن الله أباحَ كلَّ ما عُدَّ تجارةً ما لم ينه عنه الشارع، وأن ما حصل به الرضى من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة، فما حقق الرضى من قولٍ أو فعلٍ، انعقدت به المعاوضات والتبرعات.

وكم في القرآن من هذا النوع شيء كثير.

* * *

القاعدة الثانية والعشرون

في مقاصد أمثلة القرآن

اعلم أن القرآن الكريم احتوى على أعلى وأكمل وأنفع المواضيع التي يَحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوى على أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه.

فمن أنواع تعاليمه العالية: ضرب الأمثال، وهذا النوع يذكره الباري في الأمور المهمة، كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله، والأعمال العامة الجليلة. ويقصد بذلكَ كُلّه توضيحَ المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة، ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رَأْيَ عينٍ.

وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه.

فقد مَثَّل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوبَ الناس بالأراضي والأدوية، وإنّ عمل الوحي

والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأراضي ، فمنها أراض طيبة تقبل الماء وتُنبت الكلأ والعشب الكثير . كمثل القلوب الفاهمة التي تفهمُ عن اللهِ ورسوله وَحْيَهُ وكلامه ، وَتَعْقِلُه ، وتعمل به علما وتعليما بحسب حالها . كالأراضي بحسب حالها . ومنها أراضٍ تمسك الماء ولا تنبت الكلأ ، فينتفع الناسُ بالماء الذي تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأراضيهم ، كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة وَتُلْقِيه إلى الأُمَّة ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة بمعانيه ما عند الأولين ، وهؤلاء على خير ولكنهم دون أولئك .

لأن هؤلاء الآخرين بمنزلة الصيادلة والأولون بمنزلة الأطباء ، ومعلوم أن انتفاع الناس بالأطباء أكثر من انتفاعهم بالصيادلة . فحفّاظ الحديث – مثلًا – ورواة الحديث الذين ليس عندهم فقه وعلم هم بمنزلة هؤلاء مثل الأرض التي يصيبها المطر لكنها لا تنبت إنما تحفظ الماء ، فمن جاء استقى وشرب وانتفع ، وأما أهل العلم والفقه فإنهم كالأراضي الخصبة التي تنبت فينتفع الناس بها .

ومنها : أراضٍ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً . كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي لا علما ولا حفظا ولا عملًا .

ومناسبةُ الأراضي للقلوب كما ترى في غاية الظهور . وأما مناسبةُ تشبيهه الوحيَ بالغيث لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقُهم الحسية ، والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية[1] .

وكذلك مَثَّل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . فكذلك شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها معرفة وتصديقًا وإيمانًا ، وإرادة لموجبها ، وتؤتي أكلها وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق

---

(١) هذا المثال ورد في حديث أبي موسى الأشعري عند البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) . وانظر كلام ابن القيم عليه في « الوابل الصيب » (ص ١١٤ – ١٢٠) ، وكلام ابن حجر في « فتح الباري » (١/١٧٥) .

الزكية، والأعمال الصالحة والهَدْي المستقيم، ونفع صاحبها وانتفاع الناس به. وهي صاعدةٌ إلى السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه.

ومثَّل الله الشرك والمشرك بأن من اتخذ مع الله إلهًا يتعزَّز به ويزعُم منه النفع، ودفع الضر كالعنكبوت اتخذت بيتا وهو أوهن البيوت وأوهاها، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفا إلى ضعفها[1]. كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه وليا ونصيرا من دون الله إلا ضعفا؛ لأن قلبه انقطع عن الله، ومن انقطع قلبه عن الله حَلَّهُ الضَّعْفُ من كل وجه، وتعلقه بالمخلوق زاده وهنا إلى وهنه، فإنه اتَّكَلَ عليه، وظن منه حصول المنافع، فخاب ظنه وانقطع أمله، وأمَّا المؤمن فإنه قويٌّ بالله بقوة إيمانه وتوحيده وتعلقه بالله وحده، الذي بيده الأمر والنفع. ودفع الضرر، وهو متصرف في أحواله كلها كالعبد الذي استقام على صراط مستقيم في أقواله وأفعاله، منطلق الإرادة تحرر عن رق المخلوقين، غير مقيد لهم بوجه من الوجوه، بخلاف المشرك فإنه كالعبد الأصم الأبكم الذي هو كَلٌّ على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير، لأن قلبه متقيدٌ للمخلوقين مُسْتَرَق لهم، ليس له انطلاق ولا تصرف في الخير.

ومثله أيضًا كالذي خر من السماء فتخطَّفته الطيور. ومزقته كل ممزق.

وهؤلاء الذين زعموا أنهم آلهة ينفعون ويُدْعَوْن لو اجتمعوا كلهم على خَلْق أضعف المخلوقات، وهو الذباب لم يقدروا باجتماعهم على خلقه فكيف ببعضهم، فكيف بفرد من مئات الألوف منهم. وأبلغ من ذلك أن الذباب لو يسلبهم شيئًا لم يقدروا على استخلاصه منه ورده، فهل فوق هذا الضعف ضعف؟ وهل أعظم من هذا الغرور الذي وقع فيه المشرك شيء؟ وهو مع هذا الغرور وهذا الوَهْن والضعف مُتَقَسَّمٌ قلبه بين عدة آلهة كالعبد بين الشركاء

(١) وهو قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

المتشاكسين ولا يتمكن من إرضاء أحدهم دون الآخر. فهو معهم في شر دائم وشقاء متراكم. فلو استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لرَبَأ بنفسه عما هو عليه، ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعد ما أضاعَ دينه. وأما الموحِّد فإنه خالصٌ لربه، لا يعبدُ إلا هو[1] ولا يرجو ولا يخشى سواه وقد اطمأن قلبه، واستراح، وعلم (أن) الدين (هو) الحق، وأن عاقبته أحمدُ العواقب، ومآله الخيرُ والفلاح والسعادة الأبدية، فهو في حياةٍ طيبة، ويطمعُ في حياة أطيبَ منها.

ومَثَّل الله الأعمالُ بالبساتين، فذكر العمل الكامل الخالص له الذي لم يعرض له ما يفسده كبستان في أحسن المواضع، وأعلاها تنتابُه الرياح النافعة، وقد ضَحَى وبرز للشمس، وفي خلاله الأنهارُ الجارية المتدفقة. فإن لم تكن غزيرة فإنها كافيةٌ له كالطَّلِّ الذي ينزلُ من السماء، ومع ذلك فأرضُه أطيبُ الأراضي وأزكاها فمع توفر هذه الشروط لا تَسألُ عمَّا هو عليه من زَهاءِ الأشجار وطِيب الظلال، ووفورِ الثِّمار، فصاحبه في نعيمٍ ورَغَدٍ متواصل وهو آمن من انقطاعه وتلفه، فإن كان هذا البستان لإنسان قد كَبُر وضعف من العمل وعنده عائلةٌ ضعاف لا مساعدة منهم ولا كفاءة، وقد اغتبط به حيث كان مادته ومادة عائلته ثم إنه جاءته آفة وإعصار أحرقه وأتلفه عن آخرهم[2]. فكيف تكون حسرة هذا المغرور؟ وكيف تكون مصيبته؟ وهذا هو الذي جاء بعد العمل بما يبطل عمله الصالح من الشرك أو النفاق أو المعاصي المحرقة. فيا ويحه، بعد ما كان بستانه زاكيًا زهيًا أصبح تالفًا قد أَيِسَ من عَوْده، وبقي بحسرته مع عائلته.

فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها. فقد ذكر الله صفة بستان من ثبته الله

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين: الصواب من جهة الإعراب: «لا يعبد إلا إياه»؛ لأنه ضمير النصب.

(٢) وهو قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

على الإيمان ، والعمل وبستان من أبطل عمله بما ينافيه ويضاده ويؤخذ من ذلك إن الذي لم يوفق للإيمان ولا للعمل أصلا أنه ليس له بستان أصلا .

ووجه تشبيه الأعمال بالبساتين : أن البساتين تمدها المياه وطيب المحل وحسن الموقع فكذلك الأعمال يمدها الوحي النازل من حياة القلوب الطيبة . وقد جمع العامل جميع شروط قبول العمل من الاجتهاد والإخلاص والمتابعة . فأثمر عمله كلَّ زوج بهيج .

وقد مثَّل اللّه عملَ الكافر بالسَّراب الذي يحسبه الظمآن ماء . فيأتيه وقد اشتد به الظمأ ، وأنهكه الإعياء ، فيجده سرابا[(١)] .

ومثَّله بالرماد الذي أُحرق ، فجاءته الرياح فذرته فلم تبق منه باقية[(٢)] .. وهذا مناسب لحال الكافر وبطلان عمله . فإن كفرَه ومعاصيَه بمنزلة النار المحرقة وعمله بمنزلة الرماد والسراب الذي لا حقيقة لهَ وهو كان يعتقده نافعا له ، فإذا وصله ولم يجده شيئًا تقطعت نفسه حسرات . ووجد الله عنده فوفاه حسابه .

كما مثّل نفقات المخلصين بذلك البستان الذكي الزاهي[(٣)] .

ومثل نفقات المرائين بحجرٍ أمْلَسَ عليه شيء من تراب ، فأصابه مطر شديد تركه صلدا لا شيء فيه ، لأن قلب المرائي لا إيمان فيه ولا تصديق ولا إخلاص ، فهو قاس كالحجر ، فنفقته حيث لم تصدرُ عن إيمان ، بل رياء وسمعة . لم تؤثر في قلبه حياةً ولا زكاة . كهذا المطر الذي لم يؤثر في هذا الحجر الأملسِ شيئًا[(٤)] .

---

(١) وهو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور : ٣٩] .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم : ١٨] .

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٥].

(٤) وهو قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ =

وهذه الأمثال إذا طُبِقّت على مُمَثَّلاتها وَضَّحتها وبينتها وبينت مراتبها من الخير والشر، والكمال والنقصان.

ومثل الله حال المنافقين بحال من هو في ظلمة، فاستوقد نارًا من غيره، ثم لما أضاءت ما حوله وتبين له الطريق ذهب نورهم وانطفأ ضوءهم فبقوا في ظلمة عظيمة أعظم من الظلمة التي كانوا عليها أولًا، وهكذا المنافق استنار بنور الإيمان، فلما تبين له الهدى غلبت عليهم الشقْوة، واستولت عليهم الحَيْرة، فذهب عنه نوره أحوج ما هو إليه، وبقي في ظلمة متحيرًا. فهم لا يرجعون لأن سنة الله في عباده أن من بان له الهدى واتضح له الحق ثم رجع عنه أنه لا يوفقه بعد ذلك للهداية، لأنه رأى الحق فتركه، وعرف الضلال فاتبعه.

وفي الآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]، ونحن نعلم أن النار فيها حرارة وفيها نور، فإذا ذهب النور حلت الظلمة وبقيت أيضًا الحرارة، فصاروا - والعياذ بالله - في حرارة وظلمة، فكما قال الشيخ: هؤلاء لما رأوا الإيمان فتركوه ذهب الله بنورهم، وكما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ولهذا من أشر ما يكون إن الإنسان يَبِيـنُ له الحق - ولو في مسألة جزئية - ثم يتركه اتباعًا لهوى نفسه، أو خوفًا من العامة، أو ما أشبه ذلك، فهذا ربما يُحْرم الحق في المستقبل ولا يبين له، أو يَبِيـنُ له ولكنه يصرُّ على خلافه، ولهذا يجب على الإنسان إذا علم الحق أن يبادر به أيًا كان، سواء كان ذلك في أصول الدين أو في فروعه، إن صَحَّ أن يقسم الدين إلى أصول وفروع؛ لأن بعض العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية يقول: الدين لا يُقسم إلى أصول وفروع.

وهذا المثل ينطبق على المنافقين الذي تبصَّروا وعرفوا، ثم غلبت عليهم

= وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

الأغراض الضارة فتركوا الإيمان .

والمثال الثاني وهو قوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٩] ينطبق على المنافقين الضالين المتحيرين الذين يسمعون القرآن ولم يعرفوا المراد منه ؛ لأنهم أعرضوا عنه ، وكرهوا سماعه اتباعًا لرؤسائهم وسادتهم .

ومثل الله الحياة الدنيا وزهرتها والاغترار بها بحالة زهرة الربيع ، تُعجب الناظرين ، وتغر الجاهلين ، ويظنون بقاءها ، ولا يُؤمِّنُونَ زوالها ، فَلَهَوْا بها عما خلقوا له ، فأصبحت عنهم زائلة ، وأضحوا لنعيمها مفارقين في أسرع وقت كهذا الربيع إذا أصبح بعد الاخضرار هَشيما ، وبعد الحياة يَبَسًا رميما .

وهذا الوصف قد شاهده الخلق واعترف به البرُّ والفاجر ، ولكنَّ سَكَرَ الشهوات وضعف داعي الإيمان اقتضى إيثار العاجل على الآجل .

هذه القاعدة تدل على أن بيان القرآن ينقسم إلى قسمين ؛ بيان مستقل ، وبيان بضرب الأمثال . ضرب الأمثال وهو تشبيه المعقول بالمحسوس ليتضح ويتبين ، فإن ضرب الأمثال يقرب المعاني إلى الأذهان ، فإنك لو ذهبت تصف حال الذين يعبدون من دون الله أوثانًا في الذل والضعف وعدم الوصول للمقصود ، لو ذهبت تتكلم بصفحة كاملة ما كان كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ [العنكبوت : ٤١] ، هذا واضح جدًا ، مع أنه كلمات يسيرة ؛ لأنه شَبَّه الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة البينة ، وكذلك قوله في آية أخرى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ [الرعد : ١٤] ، فالذي يمد يديه يدعو هذه الأصنام كالذي يبسط يديه إلى الماء ، فهل يصل إلى فمه ؟ أبدًا ما يصل ، بل ولا يستقر على يديه ، هكذا أيضًا الذين يدعون من دون الله سبحانه وتعالى . وفي القاعدة أيضًا أن من طرق تعيين القرآن وبيانه ضرب الأمثال وهو تشبيه الأشياء المعقولة بالأشياء المحسوسة لتتبين في الذهن صورتها وتتضح بأقرب وسيلة ممكنة .

القاعدة الثالثة والعشرون

إرشاداتُ القرآن على نوعين

أحدهما : أن يرشدَ أمرًا أو نهيا وخبرا إلى أمر معروف شرعًا أو معروف عرفًا كما تقدم .

والنوع الثاني : أن يرشدَ إلى استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة ، ويُعْمِلَ الفكر في استفادة المنافع منها .

وهذه القاعدة شريفة جلية القَدْر .

أما النوع الأول : فأكثرُ إرشاداتِ القرآن في الأمور الخبرية والأمور الحُكْمِية داخلة فيها .

وأما النوع الثاني – وهو المقصود هنا – فإنه دعا عباده في آيات كثيرة إلى التفكر في خلق السماوات والأرض ، وما خلق الله فيها من العوالم ، وإلى النظر فيها . وأخبر أنه سخّرها لمصالحنا ومنافعنا وأنه أنزل الحديد فيه بأسٍ شديد ومنافع للناس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية : ١٣] ، فنبه العقول على التفكر فيها ، واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها .

وذلك أننا إذا فكرنا فيها ، ونظرنا حالها ، وأوصافها ، وانتظامها ولأي شيء خلقت ولأي فائدة أُبقيت ؟ وماذا فيها من الآيات وما احتوت عليه من المنافع ؟ أفادنا هذا الفكر فيها علمين جليلين :

أحدهما : أننا نستدل بها على ما لله من صفات الكمال والعظمة وما له من النعم الواسعة والأيادي المتكاثرة ، وعلى صدق ما أخبَر به من المعادِ والجنةِ والنارِ ، وعلى صدقِ رُسله وحقيقة ما جاءوا به .

وهذا النوع قد أكثرَ منه أهل العلم وكُلٌّ ذكر ما وصل إليه علمه ، فإن الله أخبر أن الآيات إنما ينتفع بها أولوا الألباب .

وهذا أجل العِلْمينِ وأعلاهما ، وأكملهما .

والعلم الثاني : أننا نتفكر فيها ونستخرج منها المنافع المتنوعة فإن الله سخَّرها لنا وسلطنا على استخراج جميع ما لنا فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية . وسخر لنا أرضها لنحرثها ونزرعها ونغرسها ونستخرج معادنها وبركتها وجعلها طوع علومنا وأعمالنا لنستخرج منها الصناعات النافعة . فلجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها - لا سيما في هذه الأوقات - كل ذلك داخلٌ في تسخيرها لنا . وقد عُرفت الحاجة بل الضرورة في هذه الأوقات إلى استنباط المنافع وترقية الصنائع إلى ما لا حدَّ له . وقد ظَهَر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها أمورٌ فيها فوائد عظيمة للخلق .

وقد تقدم لنا في قاعدة اللازم وأن ما لا تتم الأمور المطلوبة إلا به فهو مطلوب وهذا يدل على أن تعلم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعًا ، كما هي مطلوبة لازمة عقلًا ، وأنها من الجهاد في سبيل الله ، ومن علوم القرآن .

فإن القرآن نبه العباد أنه جعل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وأنه سخر لهم ما في الأرض . فعليهم أن يسعوا لتحصيل هذه المنافع من أقرب الطرق إلى تحصيلها ، وهي معروفة بالتجارب .

وهذا من آيات القرآن . وهو أكبرُ دليلٍ على سعة علم الله وحكمته ورحمته بعباده بأن أباحَ لهم جميع النعم ، ويسر لهم الوصول إليها بطرقٍ لا تزال تحدث وقتًا بعد وقت . وأيضًا قد أخبر في عدة آيات أنه تذكرة يتذكر به العباد كلَّ ما ينفعهم فيسلكونه وما يضرهم فيتركونه ، وأنه هداية لجميع المصالح .

خلاصة هذه القاعدة أن الله سبحانه وتعالى أرشد الناس بهذا القرآن العظيم وأن إرشاده ينقسم إلى قسمين : أوامر ونواهٍ وأخبار فيها عظة وعبرة ، وهذه واضحة . والثاني : إرشاد إلى أمور وراء ذلك ، ما تتعلق بالأمر والنهي ، يستدلون بها على كمال قدرة الله عز وجل وكمال رحمته ، وينتفعون بها أيضًا في أمور دنياهم ، مثل : ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس : ١٠١] ، ومثل قوله تعالى : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا﴾ [آل عمران : ١٩١] ، ومثل قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد : ٢٥] ، فإنه إذا علم الإنسان أن في الحديد بأسًا شديدًا اعتمد عليه في الأمور التي تحتاج إلى قوة وإلى متانة ، وكذلك إذا علم أن فيه منافع ذهب يطلب هذه المنافع ، فكيف هذا الحديد ويصهره ويضعه على حسب المنافع التي أرادها ، لو أن الله عز وجل شرح هذه المنافع وكيفية الوصول إليها ، لكنا نحتاج إلى مجلدات كما هو موجود في كتب هذا العلم ، وكان الناس في هذا الوقت لا يعرفون عن هذا شيئًا ، ولكنه قال : الحديد فيه منافع . فإذا قال ربنا عز وجل الحديد فيه منافع ؛ فمعنى ذلك أننا نسخر علومنا وأفهامنا للوصول إلى تلك المنافع التي عَبَّر الله عنها بهذا الجمع الذي هو صيغة منتهى الجموع .

* * *

القاعدة الرابعة والعشرون

القرآن يرشد إلى التوسط والاعتدال ويذم التقصير والغلو ومجاوزة الحد

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل : ٩٠] ، وقال : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، والآيات الآمرة بالعدل والناهية عن ضده كثيرة .

والعدل في كل الأمور : لزوم الحد فيها . وأن لا يغلو ويتجاوز الحد ، كما

لا يقصر ويَدَع بعض الحق.

ففي عبادة الله أمَر بالتمسك بما كان عليه النبي ﷺ في آيات كثيرة ونهى عن مجاوزة ذلك، وتعدّي الحدود. وذم المقصرين عنه في آيات كثيرة.

فالعبادة التي أمَر الله بها ما جمعتْ الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول وما فقد فيه الأمران أو أحدهما فهي من الأعمال اللاغية.

وفي حق الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أمر بالاعتدال وهو الإيمان بهم، ومحبتهم المقدمة على محبةِ الخلق، وتوقيرهم واتباعهم، ومعرفة أقدارهم ومراتبهم التي أكرمهم الله بها. ونهى في آيات كثيرة عن الغلو فيهم في آيات كثيرة، وهو أن يُرفعوا فوق منزلتهم التي أنزلهم الله، ويُجعل لهم من حقوق الله التي لا يُشاركُه فيها مشارك شيء. كما نَهَى عن التقصير في حقهم في الإيمان بهم ومحبتهم وترك توقيرهم، وعدم اتباعهم. وذَمَّ الغالين فيهم، كالنصارى ونحوهم في عيسى في آيات كثيرة. كما ذم الجافين لهم، كاليهود حين قالوا في عيسى ما قالوا، وذم مَنْ فرّق بينهم، فآمن ببعض دون بعض، وأخبرَ أن هذا كفرٌ بجميعهم.

وكذلك يتعلق هذا الأمر في حق العلماء والأولياء يجب محبتهم ومعرفة أقدارهم، ولا يحلُّ الغلو فيهم وإعطاؤهم شيئًا من حق الله وحق رسوله الخالص. ولا يحلُّ جفاؤهم ولا عداوتهم فمن عادى لله وليا فقد بارزه بالحرب[1].

وأمر بالتوسط في النفقات والصدقات، ونهى عن الإمساك والبخل والتقصير. كما نهى عن الإسراف والتبذير.

وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال والأفعال. ونهى عن الجبن، وذم الجبناء، وأهل الخوَر، وضعفاء النفوس، كما ذم المتهورين الذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة.

(١) كما ورد في حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٥٠٢).

وأمر وحثَّ على الصبر في آيات كثيرة، ونهى عن الجزع والهلع، والسخط كما نهى عن التجبر وعدم الرحمة والقساوة في آيات كثيرة.

وأمرَ بأداء الحقوق مَنْ له حق عليك: من الوالدين والأقارب والأصحاب ونحوهم والإحسان إليهم قولًا وفعلًا، وذم من قصَّر في حقهم أو أساء إليهم قولا وفعلا. كما ذم من غلا فيهم وفي غيرهم حتى قَدَّم رضاهم على رضا الله وطاعتهم على طاعة الله.

وأمرنا بالاقتصاد في الأكل والشرب واللباس ونهى عن السرف والترف كما نهى عن التقصير الضار بالقلب والبدن.

وبالجملة فما أمر الله بشيء إلا كان بين خلقين ذميمين تفريط وإفراط.

التوسط معناه: أن تكون موافقًا للشرع في الكمية والكيفية.

والخلاصة من هذه القاعدة أن القرآن يأمر بالاعتدال في الأمور لا تزد ولا تنقص، فمن زاد وشدد ورأى أنه لا بد أن يعمل حتى في الأمور المستحبة قال: إنه يجب أن نعمل فيها وأن لا نفرط في شيء، فنقول: إن هذا مما نهى عنه الشرع: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]، ولو قصر في الأمور المشروعة ويقول: أنا أكتفي بما يجب، قلنا: إنه فاته خير كثير، لكنه ليس كالأول، فالأول أشد، والثاني فاته خير كثير، ولكنه لا يقال: إنك أسأت. ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام للرجل الذي قال: لا أزيد ولا أنقص على هذا. قال: «إن صدق دخل الجنة»[(١)].

فالحاصل أن هذا أمر يجب أن نتفطن له أيضًا حتى في الدعوة إلى الله، نكون وسطًا بين التهاون والتفريط، وبين الغلو والتشديد، فنكون بالعدل والحكمة.

* * *

(١) متفق عليه: البخاري (٤٦)، ومسلم (٩/١١)، ولفظه أقرب إلى لفظ الشارح.

القاعدة الخامسة والعشرون

حدود الله قد أمر بحفظها، ونهى عن تعديها وقربانها

قال تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

أما حدود الله: فهي ما حدَّه لعباده من الشرائع الظاهرة والباطنة، التي أمرهم بفعلها، والمحرمات التي أمرهم بتركها. فالحفظ لها أداء الحقوق اللازمة، وترك المحرمات الظاهرة والباطنة.

ويتوقفُ هذا الفعل وهذا الترك على معرفة الحدود على وجهها. ليعرفَ ما يدخل في الواجبات والحقوق، فيؤديها على ذلك الوجه كاملةً، غيرَ ناقصة، وما يدخل في المحرمات ليتمكن من تركها. ولهذا ذم الله من لم يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله. وأثنى على مَنْ عَرَف ذلك.

وحيث قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ كان المراد بها: ما أحله لعباده، وما فصَّله من الشرائع. فإنه نهى عن مجاوزتها وأمر بملازمتها.

كما أمر بملازمة ما أحله من الطعام والشراب واللباس والنكاح، ونهى عن تعدي ذلك إلى ما حرم من الخبائث.

وكما أمر بملازمة ما شرعه من الأحكام في النكاح والطلاق والعدد وتوابع ذلك. ونهى عن تعدِّي ذلك إلى فعل ما لا يجوز شرعًا.

وكما أمرَ بالمحافظةِ على ما فصَّله من أحكامِ المواريث ولزومِ حدِّه. ونهى عن تعديه ذلك، وتوريث من لا يرث وحرمان من يرث. وتبديل ما فرضه وفصله بغيره.

وحيثُ قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ كان المراد بذلك:

المحرمات . فإن قوله : ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ نهيٌ عن فعلها ونهيٌ عن مقدماتها وعن أسبابها الموصلة إليها والموقعة فيها .

كما نهاهم عن المحرمات على الصائم . وبين لهم وقت الصيام فقال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ ، وكما حَرَّم على الأزواج أن يأخذوا مما آتوا أزواجهم شيئًا إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، قال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ ، وكما صرَّح بالمحرمات في قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ [الإسراء: ٣٢] ، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٣٢] .

فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود الله ، والمحافظة عليها . كما أن أصل كل الشر وأسباب العقوبات الجهل بحدود الله ، أو ترك المحافظة عليها ، أو الجمع بين الشرين ، والله أعلم .

الحدود ما حدده الله لعباده من المباحات والمأمورات والمنهيات ، فأما المأمورات فإن الله يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ وكذلك المُحَلَّلات . وأما المنهيات فيقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ ، وذلك لأن الراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه[(١)] ، فإذا قربت هذه المحرمات أوشك أن تقع ، وكلما كانت المحرمات تدعو النفوس إليها أكثر كان النهي عن قربانها أبعد وأوكد ، ولهذا حُرِّم على الرجل أن ينظر إلى المرأة الأجنبية منه ، أو أن يكلمها على سبيل التلذذ والتمتع بصوتها ؛ لأن ذلك يجر إلى الزنى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ [الإسراء: ٣٢] .

في مسائل الربا حرم أشياء ليس فيها ظلم ، فإنك إذا اشتريت صاعًا من البُرّ الطيّب بصاعين من البر الرديء اللذين يساويان الصاع في القيمة ليس هذا بظلم ، وهو أهون على المكلف من أن يذهب فيبيع الرديء ثم يأخذ الثمن ثم يشتري الطيب ، أيهما أسهل؟ الأول : يذهب إلى البائع الذي عنده بر طيب ويقول : هذان صاعان من البر الرديء

---

(١) كما ورد في الصحيحين : البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير .

وأعطني صاعًا من البر الطيب ، والصاعان بعشرة والصاع بعشرة ، ليس هناك ظلم ، هذا حرام ، لماذا ؟ لأنه يجر إلى الربا الصريح الذي يتضمن الظلم ، وهي أن أعطيك عشرة دراهم – أي نقدًا – بخمسة عشر درهمًا مؤجّلة ، وهذا هو الربا .

والحاصل أن المحرمات يقال فيها : ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ ، وكلما كانت المحرمات مما تدعو النفوس إليه .

كان النهي عن قربانه أوكد ، ويُنهَى عن القرب منه بكل وسيلة ، « ما أسكر كثيره فقليله حرام »[(١)] لماذا ؟ لأنه يجر إلى الشرب الكثير فيسكر ، فإن النفوس تدعو كثيرًا إلى تناول هذا المسكر ، فلذلك حُرمت منه على وجه بعيد ، أما إذا كانت الحدود مما أُمر به أو مما أُحل فيقال : ﴿ لَا تَعْتَدُوهَا ﴾ ، فالاعتداء في الواجبات أن يزيد فيها أو يقصّر ، والاعتداء في المحلَّلات أن ينتقل منها إلى المحرمات ، فمثلًا نحن أُمرنا بالأكل والشرب ، لكن نُهينا عن الإسراف ، ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ ، فلو أن أحدًا قُدم له طعام شهي لذيذ فأكل منه حتى صار لا يحمل بطنه إلا مع العَصَى ، هذا إسراف حرام ، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله : إنه يحرم على الإنسان الأكل إذا خاف تُخمةً أو أذى[(٢)] ، التخمة : هي النتن ، يعني نتن المعدة ؛ لأن المعدة إذا ثقل عليها الطعام ولم تهضمه أُنتن فيها ؛ لأن السوائل التي تذيبه وتذيب حبته تعزف عنه فيُنتن في هذا الوعاء ، وعاء مختوم منتن ، وتجد الإنسان إذا تجشأ يَخرج رائحة كريهة ، فإذا خرج منه ذلك فإن الأكل يَحرُم ، هذا من باب تعدي الحدود في المباحات .

إذن الحدود إما واجبات ، أو محللات ، أو محرمات ، ففي المحرمات يقول الله تعالى : ﴿ لَا تَقْرَبُوهَا ﴾ ، وفي الواجبات والمحللات يقال : ﴿ لَا تَعْتَدُوهَا ﴾ .

* * *

---

(١) صحيح لشواهده . أخرجه النسائي (٨/ ٣٠٠) ، وابن ماجه (٣٣٩٤) ، وأحمد (٢/ ١٦٧، ١٧٩) ، والدارقطني (٤/ ٢٥٤) ، والبيهقي (٨/ ٢٩٦) من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وللحديث شواهد . انظر « الإرواء » (٢٣٧٥) .

(٢) معناه في مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢١٢) .

القاعدة السادسة والعشرون

الأصل : أن الآيات التي فيها قيود لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود ، إلا في آيات يسيرة

وهذه قاعدةٌ لطيفةٌ . فإن الله متى رتَّب في كتابه حكمًا على شيء ، وقيده بقيد ، أو شرط لذلك شرطًا ، تَعلّق الحكم به على ذلكَ الوَصْف ، الذي وَصَفَهُ الله تعالى .

وهذا في القرآن لا حَصْرَ له . وإنما المقصود ذكرُ المستثنى من هذا الأصل الذي يقول كثير من المفسرين ، إذا تكلموا عليها : هذا قيدٌ غيرُ مراد . وفي هذه العبارةِ نَظَر ؛ فإن كل لفظةٍ في كتاب الله فإن الله أرادها لما فيها من فائدة ، قد تظهر للمخاطَب وقد تخفى . وإنما مرادهم بقولهم «غير مراد» ثبوتُ الحكم لها .

فاعلم أن الله تعالى يذكر الأحكام الشرعية من أصول وفروع ويذكر أعلى حالة يبرز معانيها لعباده ، ليظهر لهم حسنها إن كانت مأمورًا بها ، أو قبحَها إن كانت منهيًا عنها .

وعند تأمل هذه الآيات التي بهذا الصدد يظهرُ لك هذا منها عِيانًا .

فمنها قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون : ١١٧] ، ومن المعلوم أن من دعا مع الله إلها آخر فإنه كافر ، وأنه ليس له برهان مطلقًا . وإنما قيدها الله بهذا القيد بيانًا لشناعة الشرك والمشرك وأن الشرك قطعًا ليس له دليلٌ شرعي ، ولا عقلي . والمشرك ليس بيده ما يُسَوِّغ له شيئًا من ذلك .

ففائدة هذا القيد: التشنيع البليغ على المشركين من المعاندة ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية، وأنه ليس بأيديهم إلا أغراضٌ نفسية ومقاصد سيئة وأنهم لو التفتوا أدنى التفات لعرفوا أن مّا هم عليه لا يستجيزه من له أدنى إيمان ولا معقول.

ما هو القيد الذي قد يقال: إنه غير مراد؟ قوله: ﴿ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾، فإنك لو اعتبرت هذا قيدًا لكان معنى الآيات: ومن يدع مع الله إلهًا آخر له به برهان، لا حساب عليه. وهل هذا موجود؟ لا، ولكن أراد الله عز وجل أن يبين شناعة هذا القول، وأن حقيقة الأمر أنه لا برهان لمن دعى مع الله إلهًا آخر.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] مع أن كونها في حجره أو في غير حجره ليس شرطًا لتحريمها، فإنها تحرم مطلقًا[1]. ولكن ذكر الله هذا القيد تشنيعًا لهذه الحالة، وأنه من القبيح إباحة الربيبة التي هي في حجر الإنسان بمنزلة بنته. فذكر الله المسألةُ متجليةً بثيابِ قُبحِها، لينفر عنها ذوي الألباب، مع أن التحريمَ لم يُعلَّق بمثل هذه الحالة. فالأنثى إما أن تكون مباحة مطلقًا، أو محرمة مطلقًا سواءٌ كانت عند الإنسان أم لا - كحالة بقية النساء المحللات والمحرمات.

وهذا أيضًا الذي ذكره الشيخ هو الصحيح، والدليل أنه غير مراد - يعني أن الله تعالى ذكر هذا لبيان قبح الأمر لا لاشتراط الحكم - أنه قال: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، ولم يقل: فإن لم يكنّ في حجوركم.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]،

---

(١) تحرم مطلقًا عند جماهير الأمة سلفًا وخلفًا، إلا ما روي عن طائفة قليلة من السلف؛ منهم علي بن أبي طالب. وانظر: تفسير القرطبي (٧٥/٥)، وفتح الباري (١٥٧/٩).

و: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١] مع أن المعلوم النهي عن قتل الأولاد على أي حال. فالفائدة في ذكر هذه الحالة: أنها حالة جامعة للشر كله: كونه قتل بغير حق، وقتل مَنْ جُبلت النفوس على شدة الشفقة عليه شفقة لا نظير لها. وكون ذلك صادرًا عن التسخط لقدر الله، وإساءة الظن بالله. فأولئك الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق إنما يقتلونهم تبرما وتسخطًا بقدر الله فهم قد تبرموا بالفقر هذا التبرم، وأساءوا ظنونهم بربهم حيث ظنوا أنهم إن أبقوهم زاد فقرهم، واشتدت فاقتهم، فصار الأمر بالعكس.

وأيضًا فإنه إذا كان منهيا عن قتلهم في هذه الحال التي دفعهم إليها خشية الفقر وحدوثه، ففي حال سعة الرزق من باب أولى وأحرى.

وأيضًا ففي هذا: بيان للحالة الموجودة غالبًا عندهم، فالتعرض لذكر الأسباب الموجودة في الحادثة يكون أجلى وأوضح للمسائل.

وأما قوله تعالى في الرجعة: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ فمن العلماء من قال: إنه من هذا النوع، وأنه يستحقُّ ردَّها سواءٌ أراد الإصلاح أو لم يرده. فيكون ذكر هذا القيد حثًّا على لزوم ما أمر الله به، من قصد الإصلاح وتحريمًا لردها على وجه المضارة، وإن كان يملك ردها، كقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١].

ومن العلماء من جعل هذا القيد على الأصل العام، وأن الزوج لا يستحق رجعة زوجته في عدتها إلا إذا قصد الإصلاح. فأما إذا قصد ضدَّ ذلك فلا حق له في رجعتها. وهذا هو الصواب.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] مع أن الرهن يصح حضرًا وسفرًا. ففائدة هذا القيد: أن الله ذكر أعلى الحالات، وأشد الحاجات للرهن، وهي هذه الحالة في السفر، والكاتبُ مفقود، والرهنُ مقبوض، فأحوجُ ما يحتاجُ الإنسان للرهن في هذه

الحالة التي تعذرت فيها التوثيقات إلا بالرهن المقبوض ، وكما قاله الناس في قيد السفر فكذلك على الصحيح في قيده بالقبض ، وأن قبضه ليس شرطًا لصحته ، وإنما ذلكَ للاحتياط وزيادة الاستيثاق . وكذلك فقد الكاتب ...

قوله : « وأن قبضه ليس شرطًا لصحته » لعله يريد ليس شرطًا للزومه ؛ لأن قبض الرهن ليس شرطًا للصحة ، فالرهن يصح كما سبق وإن لم يقبض ، لكنه لا يلزم إلا بالقبض ، فلو اشتريت منك شيئًا بدراهم وقلت : رهنتك سيارتي ، ولا أعطيتك سيارة ، فالرهن صحيح ، لكنه ليس بلازم ، فلعل الشيخ رحمه الله يريد بالصحة هنا اللزوم ، وإلا فلا أعلم أحدًا قال بأنه لا يصح إذا لم يقبض ، وإنما اختلفوا في لزومه[1] ، وقد سبق لنا أن القول الراجح أنه يلزم وإن لم يقبض ، وأن عمل الناس اليوم على هذا .

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] مع أنَّ الحق يثبت بالرجل والمرأتين ومع وجود الرجلين ، لكن ذكر الله أكمل حالة يحصل بها الحفظ للحقوق ، بدليل أن النبي ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين[2] ، والآية ليس فيها ذلك لهذه الحكمة ، وهو أن الآية أرشدَ الله فيها عباده إلى أعلى حالةٍ يحفظون بها حقوقهم ، لتمام راحتهم وحسم اختلافهم ونزاعهم .

الشهود بالمال رجلان ، أو رجل وامرأتان ، أو رجل ويمين المدعي ، مثل أن أدعي عليك مائة ريال ، وتنكر ، وعندي شهود : واحد فقط ، وحلفت مع الشاهد . فإنه يقضي لي بالحق ، ويلزمك ما ادعيته عليك ، فالبينة في الأموال ثلاثة :

١- رجلان . ٢- رجل وامرأتان . ٣- رجل ويمين المدعي .

---

(١) لم يذكر في المحرر في الرهن إلا أن القبض شرط للزومه . ولعل هذا مستند الشارح . ولكن صرح جماعة بأنه شرط لصحته . وهذا ما جرى عليه صاحب القواعد . والله أعلم .
انظر : المحرر (١/٣٧٤) ، قواعد ابن رجب (١/٣٥٥) .

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٢) عن ابن عباس .

وأما أربعة رجال فمن باب أولى .

وأما قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى: ٩] ، فإنها من أصل هذه القاعدة ، ويظنُّ بعض الناس أنها من هذا النوع ، وأنه يجب التذكير ، نفعت أو لم تنفع . لكن هذا غلط ، فنفع الذكرى إذا كان يحصل بها الخير كله أو بعضُه أو يزولُ بها الشر كله أو بعضه فأما إذا كان ضرر التذكير أعظمَ من نفعه ، فإنه منهيٌّ عنه في هذه الحال ، كما نهى الله عن سب آلهة المشركين إذا كان وسيلةً لسب الله . وكما يُنْهى عن الأمر بالمعروف إذا كان يترتبُ عليه شرٌّ أكبر أو فواتُ خيرٍ أكثر من الخير الذي يُؤمرُ به . وكذلك النهي عن المنكر إذا ترتبَ عليه ما هو أعظم منه من شرٍّ أو ضررٍ . فالتذكير في هذه الحال غير مأمور به بل منهي عنه ، وكل هذا من تفصيل قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، فعُلِمَ أن هذا قيد مرادٌ ثبوت الحكم به بثبوته وانتفاء الحكم بانتفائه ، والله أعلم .

هذه فيها خلاف بين العلماء ، هل إن قوله : ﴿ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى: ٩] قيد ؟ والمعنى : أنه لا يجب التذكير إلا إذا نفعت الذكرى ، فإن كانت لا تنفع لا تذكر ، يعني : لا فائدة منها وتضييع الوقت ، أو أن هذا القيد للنداء عليهم بأن هؤلاء ما ينفع فيهم الخير ، لكن أنت ذكر على كل حال ، مثل ما تقول أعلمه إن كان العلم ينفعه . هل معناه أنك لا تعلمه إلا إذا كان العلم ينفعه أو تعلمه بكل حال ؟ انفرد بعض العلماء أنه من هذا الباب .

وعلى القول الأول الذي رجحه الشيخ رحمه الله يكون قيدًا مرادًا ، وأنه إذا لم تنفع الذكرى لم تجب ، وفي هذا المقام لا تخلو الحال من ثلاثة أمور : إما أن تنفع ، أو تضر ، أو لا تنفع ولا تضر ، إن نفعت وجب التذكيرُ ، وإن ضرت فلا تذكير ، ينهى عن التذكير ، وإن لم تضر ولم تنفع فإنها لا تجب ولا ينهى عنها ، لكن هل الأَولى أن يذكر إظهارًا للحق وبيانًا له ، ولعلهم يرجعون إلى الحق فيما بعد ، هذا هو الظاهر ؛ إذا لم يكن مضرة فإنه ينبغي أن يذكر ، أما إذا نفعت فإنه يجب أن يذكر .

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٦١] مع أنه لا يقع قتلهم إلا بغير حق. فهذا نظير ما ذكره في الشرك، وأن هذا إنما هو لتشنيع هذه الحالة التي لا شبهة لصاحبها، بل صاحبها أعظم الناس جرمًا، وأشدهم إساءة.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فليست من هذا النوع، وإنما هي من النوع الأول الذي هو الأصل، و «الحقّ» الذي قيّدها الله به جاء مُفَسَّرًا في قوله ﷺ «النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾ [النساء: ٤٣] مع أن فقد الماء ليس من شرطه وجود السفر، فإنه إذا فُقِدَ جاز التيمم حضرًا أو سفرا، لكن ذكر السفر لبيان الحالة التي يغلب أن يفقد فيها الماء، وأما الحضر فإنه يندر فيه عدم الماء جدًا.

ومن هذا السبب ظن بعض العلماء أن السفر وحده مبيح للتيمم وإن كان الماء موجودًا، وهذا في غاية الضعف، وهدي الرسول وأصحابه المسلمين مخالف لهذا القول.

من ذلك أيضًا قوله: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾ [النساء: ٤٣]، فإن المريض لا يشترط لجواز تيممه فقدان الماء فليتيمم وإن كان على حوض الماء؛ لأنه مريض، لكن ذكر الله تعالى فلم تجدوا مَاء أن هذا في السفر، وأما المريض فيجوز أن يتيمم في السفر إذا وجد الماء أم لم يجده.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [النساء: ١٠١] مع أن

(١) متفق عليه: البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) عن عبد الله بن مسعود.

الخوف ليس بشرط لصحة القصر ومشروعيته بالاتفاق . ولما أُورد هذا على النبي ﷺ قال في جوابه : « صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته »[(١)] يعني وصدقة الله وإحسانه في كل زمان ومكان لا يتقيد بخوف ولا غيره .

ومن العلماء من قال : إن هذا القيد من القسم الأول وأن القصرَ التام - وهو قصرُ العدد وقصرُ الأركان والهيئات - شرطه اجتماع السفر والخوف كما في الآية ، فإن وجد الخوف وحده لم يقصر عدد الصلاة ، وإنما تقصر هيئاتها وصفاتها . وإن وجد السفر وحده لم تقصر هيئاتها وشروطها وإنما يقصر عددها . ولا ينافي هذا كلام النبي ﷺ فإنهم إنما سألوه عن قصر العدد فقط فأجابهم بأن الرخصة فيه عامة في كل الأحوال .

وهذا تقرير مليحٌ موافق الآية غير مخالف لحديث الرسول فيتعين الأخذ به .

فيه أيضًا بعض الآيات الأخرى مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ [آل عمران : ١٣٠] ، فإن قوله : ﴿ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ ليس قيدًا ، ولكنه بيان لأشنع الحالات في الربا ، وهو أن يأكله الإنسان أضعافًا مضاعفة ، وكانوا يفعلونه في الجاهلية إذا حل الدين قال : إما أن توفيني وإما أن تُربي[(٢)] ، فإن أعطاه فقد استوفى حقه ، وإن لم يعطه قال : المائة التي عليك أصبحت مائة وعشرين ، فإذا جاء الأجل الثاني ولم يوف قال : نجعل المائة وعشرين نجعلها مائة وأربعين أو مائة وخمسين ، وهذا أشنع ما يكون ، ولا يقال : إن قوله : ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ على جواز الربا مرة واحدة ، وإن كان بعض الناس قد قال به لكنه أخطأ ؛ لأننا نقول : إذا كنت تريد ذلك فلماذا تمنع الزيادة الثانية ، مع أنه لم يأكله أضعافًا مضاعفة ، وإنما أكله ضعفًا واحدًا ، يعني مثلًا : أعطيتك مائة

---

(١) أخرجه مسلم (٦٨٦) عن عمر بن الخطاب .

(٢) أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد ، وأخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ، وأخرجه الطبري (٤/٩٠) وابن المنذر عن عطاء ، وانظر الدر المنثور (٢/٧١) .
وانظر أيضًا شرح الشيخ في القواعد الفقهية (ص ٤١) بتحقيقنا .

درهم بمائة وعشرين إلى سنة . قال بعض الناس : إن هذا جائز ، لماذا ؟ قال : لأن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ ، فالعقد الأول الذي به الربا ليس حرامًا ، وبناءً على ذلك فإن معاملة البنوك تعتبر غير ربوية ، إلا إذا كرروا الزيادة ، قال : فإن قال عند رأس الحول أو عند تمام الأجل : زدتك ، صار ربا ، نقول له : إنك لم تأخذ بالآية ؛ لأن الله يقول : ﴿ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ ، وأنت الآن قلت : إن أول ضعف يكون حرامًا ، فإن كنت تريد أن تأخذ بالآية فقل : إن أول ضعف ليس بحرام أيضًا ، وإلا فقد خالفت قاعدتك ، لكن الأمر كما قلنا : إن هذا القيد لبيان أشنع المعاملات التي يكون فيها ربا .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ [النور: ٣٣] ، يعني إن امتنعن عن البغاء لغير التحصن فأكرهوهن ؟ لا ليس الحكم كذلك ، وإن كان ظاهر الآية يقول هذا ، لكن نقول : إن الآية ذكرت أشنع ما يكون ، لأن إكراه الإنسان أمته على البغاء وهي تريد التحصن هذا من أشنع ما يكون ؛ لأنها صارت هي أطهر منه وأنقى منه ثوبًا . فالحاصل إن مثل هذه الآيات ينبغي التفطن لهذا .

وخلاصة هذه القاعدة أن الأصل في القيود والشروط أنها معتبرة ، وأن الحكم في مفهوم المخالفة ثابت ، إلا في مسائل قليلة دل الدليل على أن هذا القيد أو الشرط ليس بمفهوم المخالفة فيه مخالفًا في حكم المنطوق ، وإنما يؤتى بهذه القيود إما لبيان الواقع ، وإما لبيان الغالب ، وإما للحال التي هي أعلى ما يكون في الشناعة ، وما أشبه ذلك ، ثم هل يصح أن نعبر ونقول : هي غير مرادة ؟ يقول الشيخ : لا ، هذا غلط ؛ لأن الله تعالى لم يرد في كلامه شيئًا إلا كان مرادًا ، لكنه يراد به ليس إثبات نقيض الحكم بالمخالف ، ولكن يراد به مسائل أو التنبيه على حالات تتبين بالتأمل .

* * *

القاعدة السابعة والعشرون

المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع في أشد الحاجة إليها

وهذه القاعدة جليلة النفع، عظيمة الوقع.

وذلك أن كل موضع يسوقُ الله فيه حكمًا من الأحكام أو خبرًا من الأخبار فيتشوف الذهن فيه إلى شيء آخر، إلا وجدتَ الله قَرَنَ به ذلك الأمر الذي يعلق في الأذهان، فيبينه أحسن بيان. وهذا أعلى أنواع التعليم، الذي لا يبقي إشكالًا إلا أزاله، ولا احتمالًا إلا أوضحه. وهذا يدل على سعة علم الله وحكمته. ذلك في القرآن كثير جدًّا.

ولنذكر بعض أمثلة توضح هذه القاعدة، وتُحَسِّن للداخل الدخول إليها.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١] لمَّا خصَّها بالذكر ربما وقع في بعض الأذهان تخصيص ربوبيته بها أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ [هود: ١٠٨] لما كان قد يقع في الذهن أنهم على حجة وبرهان فأبان بقوله: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أنهم ضُلّال اقتدوا بمثلهم، ثم لما كان قد يتوهم المتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم وعلى يقين من مذهبهم وربما يتوهم أيضًا أن الأليق ألا يبسط لهم الدنيا احترز من ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١٠٩]، ولما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] ربما يظن الظان أنهم لا يستوون مع المجاهدين ولو كانوا معذورين. أزال هذا الوهم بقوله:

﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥].

وكذلك لما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠] ربما توهم أحد أن المفضولين ليس لهم عند الله مقام ولا مرتبة فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ ثم لما كان ربما يُتوهمُ أن هذا الأجر يُستحقُّ بمجرد العمل المذكور، ولو خلا من الإخلاص، أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ربما وقع في الذهن أنهم يفسدون و قد يصلحون، فأزال هذا بقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] أي لا خير فيهم أصلا مع شرهم العظيم.

ومنها: أنه قال في عدة مواضع: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ ربما توهم أحد أنهم وإن لم يسمعوا فإنهم يفهمون الإشارة. فأزال هذا الاحتمال بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨]، فهذه الحالة لا تقبلُ سماعًا ولا رؤية لتحصل الإشارة. وهذا نهاية الإعراض.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ربما توهم أحد أن هدايته تقع جزافا من غير سبب. أزال هذا بقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] أي بمن يصلح للهداية لزكاته وخيره ممن ليس كذلك فأبان أن هدايته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء مواضعها.

ومن كان حسن الفهم رأى من هذا النوع شيئًا كثيرًا.

* * *

القاعدة الثامنة والعشرون

في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن

لما كان الإيمان أصل كل الخير كلِّه والفلاح . وبفقده يفقد كل خير ديني ودنيوي وأُخروي . أكثرَ اللهُ من ذكره في القرآن جدًّا : أمرًا به ، ونهيًا عن ضده ، وترغيبًا فيه ، وبيانًا لأوصاف أهله وما لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي . فأما إذا كان المقام مقام خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي ، أو مقامَ إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الإيمان ، فإنها تتناول كلَّ مؤمنٍ ، سواءٌ كان مُتممًا لواجبات الإيمان وأحكامِه ، أو ناقصًا في شيئًا منها .

وأما إذا كان المقام مقام مدح وثناء ، وبيان الجزاءِ الكامل للمؤمن : فإنما المراد بذلك المؤمن حقًّا الجامع لمعاني الإيمان .

هذه القاعدة مفيدة أن الخطاب بالإيمان ينقسم إلى قسمين : خطاب يراد به الإيمان الكامل ، وخطاب يراد به مطلق الإيمان ، فالأمر والنهي والأحكام المعلقة بالإيمان تشمل الإيمان الكامل وغير الكامل ، كلُّ مؤمن – وإن كان فاسقًا – يؤمر بالصلاة ويؤمر بالخير وما أشبه ذلك ، وأما إذا كان السياق سياق مدح وثناء فالمراد به الإيمان الكامل ، فلا يدخل فيه الفاسق ، فمثلًا قوله تعالى : ﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١٩] ، المراد بذلك الإيمان الكامل ، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢] ، المراد الإيمان الكامل ، وهكذا ... والمؤلف ذكر أمثلة .

وهذا هو المراد بيانه هنا . فنقول :

وصفَ الله المؤمن في كتابه باعترافه وتصديقه بجميع عقائد الدين وبإرادة ما يحبه الله ويرضاه ، وبالعمل بما يحبه الله ويرضاه ، وبترك جميع المعاصي ، وبالمبادرة بالتوبة مما صدر منه منها ، وبأن إيمانهم أثر في أخلاقهم وأقوالهم

وأفعالهم الآثار الطيبة .

فوصف المؤمنين بالإيمان بالأصول الجامعة : وهي الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره . وأنهم يؤمنون بكل ما (أتت به) الرسل كلهم ، ويؤمنون بالغيب ، ووصفهم بالسمع والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطنًا . ووصفهم بأنهم: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال : ٢- ٤] .

ووصفهم بأن جلودهم تقشعر وعيونهم تفيض من الدمع ، وقلوبهم تلين وتطمئن لآيات الله وذكره ، وبأنهم يخشون ربهم بالغيب والشهادة وأنهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون .

ووصفهم بالخشوع في أحوالهم عموما . وفي الصلاة خصوصا وأنهم عن اللغو معرضون . وللزكاة فاعلون ، ولفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم . وأنهم بشهاداتهم قائمون ولأماناتهم وعهدهم مُراعون .

ووصفهم باليقين الكامل الذي لا ريب فيه ، وبالجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

ووصفهم بالإخلاص لربهم في كل ما يأتون ويذرون .

ووصفهم بمحبة المؤمنين والدعاء لإخوانهم من المؤمنين السابقين واللاحقين ، وأنهم مجتهدون في إزالة الغل من قلوبهم على المؤمنين ، وبأنهم يتولون الله ورسوله وعباده المؤمنين ، ويتبرءون من موالاة جميع أعداء الدين ، وبأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويطيعون الله ورسوله في كل أحوالهم .

فجمع الله لهم بين العقائد الحقة واليقين الكامل ، والإنابة التامة التي آثارها الانقياد لفعل المأمورات ، وترك المنهيات ، والوقوف على الحدود الشرعيات .

فهذه الأوصاف الجليلة هي وصف المؤمن المطلق الذي سلم من العقاب، واستحق الثواب، ونال كل خير رُتِّب على الإيمان.

فإن الله رتب على الإيمان في كتابه من الفوائد والثمرات ما لا يقل عن مائة فائدة، كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

رتب على الإيمان نيل رضاه الذي هو أكبر كل شيء. ورتب عليه دخول الجنة والنجاة من النار، والسلامة من عذاب القبر ومن صعوبات القيامة وتعثر أحوالهم، والبشرى الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والثبات في الدنيا على الإيمان والطاعات وعند الموت وفي القبر على الإيمان والتوحيد والجواب النافع السديد، ورتب عليه الحياة الطيبة في الدنيا والرزق والحسنة وتيسير العبد لليسرى وتجنيبه للعسرى، وطمأنينة القلوب، وراحة النفوس والقناعة التامة، وصلاح الأحوال، وصلاح الذرية وجعلهم قرة عين للمؤمن والصبر عند المحن والمصائب.

وحَمْلُ الله عنهم الأثقال ومدافعة الله عنهم جميع الشرور، والنصر على الأعداء، ورفع المؤاخذة عن الناسي والجاهل والمخطئ منهم، وأن الله قد وضع عنهم الآصار والأغلال ولم يحملهم ما لا طاقة لهم فيه، ومغفرة الذنوب بإيمانهم والتوفيق للتوبة.

فالإيمان أكبر وسيلة للقرب من الله والقرب من رحمته، ونيل ثوابه، وأكبر وسيلة لمغفرة الذنوب، وإزالة الشدائد أو تخفيفها. وثمرات الإيمان على وجه التفصيل كثيرة، وبالجملة خيرات الدنيا والآخرة مرتبة على الإيمان، كما أن الشرور مرتبة على فقده، والله أعلم.

* * *

القاعدة التاسعة والعشرون

في الفوائد التي يجتنيها العبد في معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن

وهذه القاعدة تكاد تكون هي المقصود الأعظم في علم التفسير وذلك أن القرآن مشتمل على علوم متنوعة، وأصناف جليلة من العلوم. فعلى العبد أن يعرف المقصود من كل نوع منها. ويعمل على هذا ويتتبع الآيات الواردة فيه. فيُحَصِّل المراد منها: علمًا وتصديقًا، وحالًا، وعملًا.

فأجَلُّ علوم القرآن على الإطلاق: علمُ التوحيد، وما لله من صفات الكمال فإذا مرت عليه الآيات في توحيد الله وأسمائه وصفاته أقبلَ عليها. فإذا فهمها وفهم المراد بها أثبتها لله على وجه لا يماثله فيه أحد. وعَرَفَ أنه كما ليس لله مثيل في ذاته فليس له مثيل في صفاته. وامتلأ قلبه من معرفة ربه وحُبه بحسب علمه بكمال الله وعظمته. فإن القلوبَ مجبولة على محبة الكمال. فكيف بمن له كل الكمال ومنه جميع النعم الجزَال. ويعرف أن أصل الأصول هو الإيمان بالله وأن هذا الأصل يقوى ويكمل بحسب معرفة العبد لربه، وفهمه لمعاني صفاته ونعوته وامتلاء القلب بمعرفتها ومحبتها.

وأيضًا يعرف أنه بتكميله هذا العلم تكمل علومه وأعماله. فإن هذا هو أصل العلم وأصل التعبد.

هذا أعلى أنواع العلوم، العلم بالله وبأسمائه وصفاته، وبما له من صفات الكمال والجلال والإحسان؛ لأن الله سبحانه وتعالى تدور صفاته على الكمال المطلق والجلال والعظمة والإحسان، ثم بعد ذلك صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام وما جُبلوا عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

ومن علوم القرآن : صفاتُ الرسل وأحوالهم ، وما جرى لهم وعليهم ، مع من وافقهم ومن خالفهم . وما هم عليه من الأوصاف الوافية . فإذا مرت عليه هذه الآيات عرف بها أوصافهم ازدادت معرفته ومحبته لهم ، وعرف ما هم عليه من الأخلاق والأعمال خصوصًا إمامهم وسيدهم محمد ﷺ . فيقتدي بأخلاقهم وأعمالهم بحسب ما يقدر عليه ويفهم أن الإيمان بهم تمامه وكماله بمعرفته التامة بأحوالهم ، ومحبتهم ، واتباعهم ، وفي القرآن من نعوتهم الشيءُ الكثير الذي يحصلُ به تمام الكفاية .

ويستفيد أيضًا الاقتداء بتعليماتهم العالية وإرشاداتهم للخلق وحسن خطابهم ولطفَ جوابهم وتمامَ صبرهم . فليس القصد من قِصَصِهِم أن تكون سَمَرا ، وإنما المقصود أن تكون عِبَرا .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] ، العبرة في قصص الرسل من وجهين : الوجه الأول : معرفة أخلاقهم وصبرهم ومعاناتهم في أحوال الخلق ، وكيف يدعون الناس ويتحملون في الدعوة ما لا يتحمله إلا من كان مثلهم . والوجه الثاني : العبرة بما جرى من أحوالهم ، وأنهم لم يتقبلوا دعوتهم من أول وهلة ، بل نابذوهم وعادوهم ، بل وقاتلوهم ، وهذا نوح عليه الصلاة والسلام أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وقال الله عنه : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح : ٧] ، فالحاصل أن نعتبر من وجهين ؛ من جهة حال الرسل ، ومن جهة حال المرسل إليهم ، فإذا دعونا الناس فإنا لا نريد منهم أن يقبلوا منا في أول لحظة ، بل لا بد أن (نصابر) حتى يظهر الحق ولا نيأس أو نستحسر ونقول : هؤلاء لن يهتدوا ، ولهذا قالت الطائفة الثالثة : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٤] .

ومن علوم القرآن : علم أهل السعادة والخير ، وأهل الشقاوة والشر ، وفي

معرفته لهم ولأوصافهم ونعوتهم فوائد الترغيب في الاقتداء بالأخيار، والترهيب من أحوال الأشرار والفرقان بين هؤلاء وهؤلاء. وبيان الصفات والطرق التي وصل بها هؤلاء إلى دار النعيم وأولئك إلى دار الجحيم، ومحبة هؤلاء الأتقياء من الإيمان، كما أن بغض أولئك من الإيمان. وكلما كان العبد أعرف بأحوالهم تمكن من هذه المقاصد.

ومن علوم القرآن: علمُ الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة على أعمال الخير وأعمال الشر.

وفي ذلك مقاصد جليلة، الإيمان بكمال عدل الله وسعة فضله والإيمان باليوم الآخر. فإن تمامَ الإيمان بذلك يتوقف على معرفة ما يكون فيه، والترغيب والترهيب والرغبة في الأعمال التي رتب الله عليه الجزاء الجزيل، والرهبةُ من ضدها.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي.

وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفةُ حدودِ ما أنزل الله على رسوله فإن المكلفين مكلفون إلى معرفة ما أمروا به وما نهوا عنه وبالعمل بذلك والعلم سابق للعمل، وطريق ذلك: إذا مر عليه نص فيه أمر بشيء عرفه، وفَهِمَ ما يدخل فيه وما لا يدخل فيه، وحاسب نفسه: هل هو قائمٌ بذلك كله أو بعضه أو تاركه؟ فإنْ كان قائمًا به فليحمد الله، ويسأله الثبات والزيادة من الخير. وإن كان مقصرًا فيه فليعلم أنه مطالب به، وملزم به. فليستعن الله على فعله، وليجاهد نفسه على ذلك. وكذلك في النهي ليعرف ما يراد منه، وما يدخل في ذلك الذي نهى الله عنه، ثم لينظر إلى نفسه فإن كان قد ترك ذلك فليحمد الله على ذلك، ويسأَله أن يثبته على ترك المناهي كما يسأله الثباتَ على فعل الطاعات. وليجعل الداعيَ له على الترك امتثال طاعة الله، ليكونَ تركه عبادةً، كما كان فعله عبادة، وإنْ كان غير تارك له فليتبْ إلى الله منه توبة جازمة وليبادر. ولا

تمنعه الشهوات الدنية على مجانبة ما تدعوه إليه النفس الأمارة بالسوء.

فمن كان عند هذه المطالب وغيرها عاملًا على هذه الطريقة فإنه ماشٍ على الصراط المستقيم والطريقة المثلى فيما عليه من الاسترشاد بكتاب الله وحصل له بذلك علم غزير وخير كثير.

هذه القاعدة: المؤلف رحمه الله بيّن أن علوم القرآن متعددة ومتنوعة في كل العلوم؛ في علوم العلم بالله عز وجل وأسمائه وصفاته، وهذه أعلاها وأجلها، العلم برسله، العلم باليوم الآخر، العلم بأحكام الله الشرعية، وكذلك الكونية، العلم بالجزاء، وكما ذكر المؤلف العلم بما في الكون مما يدل على كمال حكمة الله عز وجل ورحمته وسعة علمه.

* * *

القاعدة الثلاثون

أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة: إيماننا بالاسم، وبما دل عليه من المعنى، وبما تعلق به من الآثار

وهذه القاعدةُ العظيمة: خاصةٌ بأسماءِ الرب.

وفي القرآن من الأسماء الحسنى ما يُنَيِّفُ عن ثمانين اسمًا - كُررت في آيات متعددة، بحسب ما يناسبُ المقامَ، كما تقدمَ بعض الإشارة إليها.

نحن ذكرنا في القواعد المثلى ما تتبعناه في القرآن مما يزيد على واحد وثمانين اسمًا[1]، المؤلف يقول ما ينيف؛ يعني ما يزيد.

وهذه القاعدة تنفعك في كل اسم من أسمائه الحسنى المتعلقة بالخلق والأمر، والثواب والعقاب.

---

(١) القواعد المثلى (ص ١٨ - ١٩).

فعليك أن تؤمنَ بأنه عليمٌ ، وذو علم عظيم ، محيط بكل شيء ، قدير ، ذو قدرة وقوة عظيمة ، ويقدرُ على كل شيء ، ورحيمٌ وذو رحمة عظيمة ، ورحمته وسعت كل شيء والثلاثة متلازمة .

فالاسم دل على الوصف ، وذلك دل على المتعلق : فمن نفى واحدًا من هذه الأمور الثلاثة فإنه لم يتم إيمانه بأسماء الرب وصفاته ، الذي هو أصل التوحيد .

ولنكتف بهذا الأنموذج . ليُعرف أنَّ الأسماء كلها على هذا النمط .

هذه القاعدة مرت علينا ، وأن هذه الشروط الثلاثة فيما إذا كان الاسم مُتعديًا مثل السميع والعليم والخلّاق ، وما أشبه ذلك ، أما إذا كان لازمًا فإنه يُؤمَن القول بالإيمان بالاسم والصفة فقط ، فمثلًا الحي تُؤمن بأن هذا الاسم الحي اسم من أسماء الله ، وتؤمن بأنه ذو حياة ، وهذه هي الصفة ، لكن ما لها أثر تتعلق به ؛ لأن هذه صفة لازمة لا تتعدى موصوفها ، من الذي أنكر دلالة الاسم على الصفة ؟ المعتزلة قالوا : نؤمن بالاسم بدون أن يكون له صفة ، فهو سميعٌ بلا سمع ، وبصير بلا بصر ، ويدعون أن الله سميع بذاته ، لا بصفة هي السمع ، عليم بذاته لا بصفة هي العلم .

* * *

القاعدة الحادية والثلاثون

ربوبية الله في القرآن على نوعين : عامة ، وخاصة

كثر في القرآن ذكر ربوبية الرب لعباده ، ومتعلقاتها ، ولوازمها . وهي على نوعين : ربوبيةٌ عامة ، تدخل فيها المخلوقات كلها : برها ، وفاجرها بل مكلفوها وغير المكلفين ، حتى الجمادات . وهي أنه تعالى المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها ، وإعطائها ما تحتاجه أو تضطر إليه في بقائها . وحصول منافعها ومقاصدها فهذه التربية لا يخرجُ عنها أحد .

والنوع الثاني : في تربيته لأصفيائه وأوليائه . فيربيهم بالإيمان الكامل ، ويوفقهم لتكميله ويكملهم بالأخلاق الجميلة ، ويدفعُ عنهم الأخلاقَ الرذيلة وييسرهم لليسرى ويجنبهم العسرى . وحقيقتها : التوفيقُ لكلِّ خيرٍ ، والحفظُ من كل شر ، وإنالةُ المحبوبات العاجلة والآجلة ، وصرف المكروهات العاجلة والآجلة .

فحيثُ أُطلقت ربوبيته تعالى فإن المراد بها المعنى الأول ، مثل قوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ، ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ، ونحو ذلك .

وحيثُ قُيدت بما يحبه ويرضاه ، أو وقعَ السؤالُ بها من الأنبياء وأتباعهم ، فإنما المرادُ بها النوع الثاني . وهو متضمنٌ للنوع الأول وزيادة ؛ ولهذا تجد أسئلة الأنبياء وأتباعهم في القرآن بلفظ الربوبية غالبا فإنَّ مطالبهم كلها داخلةٌ تحتَ ربوبيته الخاصة . ليلحظ العبد هذا المعنى النافع .

ونظيرُ هذا المعنى الجليل : أن الله أخبرَ في عدة آيات أن الخلق كلهم عباده وعبيـده : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] فكلهم مماليكه . وليس لهم من الملك والأمر شيء . ويخبر في بعض الآيات أن عباده بعض خلقه كقوله : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، ثم ذكر صفاتهم الجليلة ، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] ، وفي قراءة : ﴿ عَبْدِهِ ﴾ ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : ١] ، ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [البقرة : ٢٣] ، فالمرادُ بها بهذا النوع من قاموا بعبودية الله ، وأخلصوا له الدين على اختلاف طبقاتهم .

فالعبودية الأولى : يدخل فيها البر والفاجر .

والعبودية الثانية : صفةُ الأبرار . ولكنَّ الفرق بين الربوبية والعبودية : أن الربوبية وصف الرب وفعلُه . والعبودية وصفُ العبيدِ وفعلهم .

أفادنا المؤلف رحمه الله بهذه القاعدة أن الربوبية على نوعين ، والعبودية على نوعين ،

فالربوبية عامة وخاصة، والعبودية عامة وخاصة، والعبودية تتعلق بالعبد، والربوبية تتعلق بالرب، فالعبودية المتعلقة بالربوبية، هذه هي عامة التي معناها الملك والتدبير والخلق، والعبودية المتعلقة بالعبد، بمعنى طاعة الله عز وجل، هذه خاصة بمن أطاعه، وقد اجتمع الصنفان في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢] رب العالمين عامة، رب موسى وهارون خاصة، ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] هذه خاصة، ﴿ كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [مريم: ٩٤] عامة، «يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته»[1] عامة، ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] خاصة؛ لأن الشيطان له سلطان على الذين يتولونه: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، فإذن إن عبادي ليس لك عليهم سلطان هذه عبودية خاصة، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] خاصة.

* * *

القاعدة الثانية والثلاثون

إذا أمر الله بشيء كان ناهيا عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمرًا بضده[2]، وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص، كان ذلك إثباتًا للكمال

وذلكَ: بأنّه لا يمكن امتثال الأمر على وجه الكمال إلا بترك ضده، فحيث أمرَ بالتوحيدِ والصلاةِ والزكاةِ والصومِ والحج وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام،

---

(١) جزء من حديث قدسي، أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، عن أبي ذر.

(٢) انظر: «المحصول» (٢/١/٢٠١)، «اللمع» (ص ٨٥ - ٨٦)، «تشنيف المسامع» (٢/٦١٧- ٦٢٢).

والعدل ، كان نهيًا عن الشرك ، وعن ترك الصلاة ، وترك الزكاة ، وترك الصوم ، وترك الحج ، وعن العقوق والقطيعة . وحيث نهى عن الشرك وإضاعة الصلاة – إلى آخر المذكورات . كان آمرًا بالتوحيد ، وفعل الصلاة إلى آخرها .

وحيث أمر بالصبر والشكر ، وإقبال القلب على الله إنابة ومحبة وخوفًا ورجاء ، كان نهيًا عن الجزع والسخط ، وكفر النعم ، وإعراض القلب عن الله في تعلق هذه الأمور بغيره . وحيث نهى عن الجزع ، وكفران النعم ، وغفلة القلب ، كان آمرًا بالصبر إلى آخر المذكورات .

وهذا ضرب مثل . وإلا فكل الأوامر والنواهي على هذا النمط ، وكذلك المدح لا يكون إلا بإثبات الكمالات ، فحيث أثنى على نفسه ، وذكر تنزهه عن النقائص والعيوب ، كالنوم والسِّنة واللغوب ، والموت ، وخفاء شيء في العالم من الأعيان والصفات والأعمال وغيرها ، والظلم ، فَلتضمن ذلك الثناء عليه بكمال حياته ، وكمال قيوميته ، وقدرته ، وسعة علمه ، وكمال عدله ؛ لأن العدم المحض لا كمالَ فيه ، حتى ينفى تكميلًا للكمال .

وكذلك إذا نفى الله عن كتابه الريب والاختلافَ والشك والإخبارَ بخلاف الواقع كان ذلك لكمال دلالته على اليقين في جميع المطالب ، واشتماله على الأحكام ، والانتظام التام والصدق الكامل ، إلى غير ذلك من صفات كتابه .

وكذلك إذا نفى عن رسوله الكذب ، والتقوُّل والجنون والسحر ، والشعر ، ونحوها . كان ذلك لأجل إثبات كمال صدقه وأنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى . ولكمال عقله ولزوال كل ما يقدح في كمال نبوته ورسالته .

فتفطن لهذه القاعدة في كل ما يمرُّ عليك من الآيات القرآنية في هذه الأمور وغيرها . تنل خيرًا كثيرًا . والله أعلم .

المؤلف رحمه الله يقول في هذه القاعدة : إن الله إذا أمر بالشيء كان نهيًا عن ترك

ذلك الشيء الذي عبر عنه بضده ، وإذا نهى عن شيء كان أمرًا بترك ذلك الشيء ، وهذه القاعدة ليست على عمومها عند التتبع ، فإن ترك المستحبات والمندوبات لا يستلزم أن يقع الإنسان في النهي ، ولهذا لا نقول : إن ترك المستحب مكروه ، فالمكروه شيء ، وترك المستحب شيء آخر ، نعم إذا كان الأمر واجبًا كان تركه حرامًا ، وأما إذا كان الشيء مستحبًا فإنه لا يلزم من تركه أن يقع الإنسان في النهي ، وهذا شيء ذكره أهل العلم بالأصول ، أما إذا كان النفي من باب المدح والتمدح بالشيء فإنه إثبات لضده ، فهو يدل على اتصافه بكمال ضده ، فإذا نفى عن نفسه النوم ، فلكمال حياته وقيوميته ، وإذا نفى عن نفسه التعب والإعياء فلكمال قدرته : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] ، يعني : من تعب وإعياء ، وذلك لكمال قدرته سبحانه وقوته ، وعلى هذا فقس ، وإنما قلنا بذلك ؛ لأن النفي المحض عدمٌ محض ، والعدم المحض ليس شيئًا ، فضلًا عن أن يكون كمالًا ، ولهذا نقول : ما من صفة نفاها الله عن نفسه إلا وهي تتضمن ثبوتًا مقابلًا لهذا النفي ، وإلا لو كانت نفيًا محضًا لم تكن كمالًا .

* * *

القاعدة الثالثة والثلاثون

المرض في القرآن - مرض القلوب - نوعان : مرض شبهات وشكوك ، ومرض شهوات ومحرمات[1]

والطريق إلى تمييز هذا من هذا ، مع كثرة ورودهما في القرآن ، يدركُ من السياق .

فإن كان السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين ، كان هذا مرض الشكوك والشبهات ، وإن كانَ السياقُ في ذكر المعاصي والميل إليها

(١) انظر : « مفتاح دار السعادة » (١/ ٤٠، ١٤٠) ، « إغاثة اللهفان » (١/ ١٢) .

كان مرض شهوة. ووجه انحصار المرض في هذين النوعين: أن مرض القلب خلافُ صحته. وصحةُ القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه ومعرفته ويقينه، وكمال إرادته ما يحبه الله ويرضاه.

فالقلب الصحيح: هو الذي عرف الحق واتبعه، وعرف الباطل وتركه، فإن كان علمه شكا وعنده شبهات تُعارض ما أخبر الله به من أصول الدين وفروعه، كان علمه منحرفا وكان مرض قلبه قوةً وضعفا بحسب هذه الشكوك والشبهات. وإن كانت إرادته ومحبته مائلة لشيء من معاصي الله. كان ذلك انحرافا في إرادته ومرضًا.

وقد يجتمع الأمران فيكون القلب منحرفا في علمه وفي إرادته.

فمن النوع الأول: قوله تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، وهي الشكوك والشبهات المعارضة لرسالة محمد ﷺ فزادهم الله مرضا عقوبة على ذلك المرض الناتج عن أسبابٍ متعددة، كلها منهم. وهم فيها غيرُ معذورين.

ونظير هذا قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [براءة: ١٢٥].

وكذلك قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣]، فإن مريض القلب بالشكوك وضعف العلم أقل شيء يريبه، ويؤثر فيه، ويفتتن به.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أي مرض الشهوة، وإرادة للفجور، أقل شيء من أسباب الافتتان يوقعه في الفتنة، طمعا أو فعلا. فكل من أراد شيئًا من معاصي الله فقلبه مريض مرض شهوة ولو كان صحيحا لاتَّصف بصفات الأذكياء الأبرياء الأتقياء

الموصوفين بقوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات : ٦] .

فمن كان قلبه على هذا الوصف الذي ذكره الله ، فليحمده على هذه النعمة التي لا يقاومها شيء من النعم . وليسأل الله الثبات على ذلك والزيادة من فضل الله ورحمته .

خلاصة هذه القاعدة أن المرض – مرض القلوب – ينقسم إلى قسمين : مرض شبهة وهو نقص في العلم ، ومرض شهوة وهو نقص في الإرادة ، فإذا اعتلّت إرادة الإنسان فذلك مرض الشهوة . اعتلت بمعنى : صارت إرادته غير ما يرضي الله ورسوله ، فهذا مرض قلبه مرض شهوة ، وإذا اعتلّ القلب بالجهل صار مرضه مرض شبهة ؛ لأنه اشتبه عليه الحق فصار مريضًا بذلك . وصحة القلب وسلامته أن يَمُنَّ الله على الإنسان فيجتمع في قلبه كمال العلم وكمال الإرادة ، فإذا اجتمع في القلب كمال العلم وكمال الإرادة ، فهذا هو القلب الصحيح السليم ، وفتش قلبك وعالجه . أعتقد أن بعض الناس يطهر بدنه كل يوم بالصابون وأسنانه بالفرشاة ؛ لأن لا يكون فيها وسخ ودرن ، لكن القلب المسكين متروك يشتبه عليه الحق يريد الباطل ما يهم ، ولهذا يجب أن نطهر قلوبنا وأن ننظرَ فيها كل يوم نضعها في المعتبر والتمحيص حتى ننظر أصحيحة هي أم مريضة ، ولعلك تقول : كيف يكون هذا القرآن سببًا لزيادة الإيمان في قوم وسببًا لزيادة الرجس في قوم آخرين ؟ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] ؛ لأن المؤمنين إذا نزلت الآية صدقوا بها . والتصديق زيادة الإيمان ، وأما الذين في قلوبهم مرض فإذا نزلت الآية استكبروا عنها وشكّوا فيها وكذبوا ، فازدادوا بذلك رجسًا إلى رجسهم – والعياذ بالله – وماتوا وهم كافرون .

* * *

القاعدة الرابعة والثلاثون

دلَّ القرآنُ في عدة آيات أنَّ من ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتلي بالاشتغال بما يضره وحُرِمَ الأمرَ الأول

وذلكَ أنه وردَ في عدةِ آيات : أن المشركين لما زهدوا في عبادةِ الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان ، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل ، بزعمهم : أنهم بشر ، ابتلوا بالانقياد لكل مارج العقل والدين .

هذا واضح ، لما عجزوا عن عبادة الله ماذا عبدوا ؟ اللات والعزى ، ولما لم ينقادوا لاتباع الرسول عليه الصلاة والسلام اتبعوا أبا جهل وأشباهه . قال ابن القيم :

هربوا من الرق الذي خُلقوا له فَبُلُوا برق النفس والشيطان[1]

فهؤلاء لما هربوا من الرق الذي خلقوا له وهو عبادة الله عز وجل بُلوا برق النفس والشيطان .

فكانوا عُبّادًا للشياطين ولأنفسهم الأَمَّارة بالسوء .

ولما عُرِضَ عليهم الإيمان أول مرة فعرفوه ، ثم تركوه ، قَلَّبَ اللهُ قلوبهم ، وطبعَ عليها وختم ، فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم .

ولما بين لهم الصراطَ المستقيم وزاغوا عنه اختيارًا ورضىً بطريق الغي على طريق الهدى ، عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم ، وجعلهم حائرين في طريقهم .

ولما أهانوا آيات الله ورسله أهانهم الله بالعذاب المهين . ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم في الدنيا والآخرة . ولما منعوا مساجدَ الله أن يذكر فيها اسمه وأخربوها ما كان لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلا خائفين .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ *

---

(١) نونية ابن القيم (٢/٤٦٦- مع الشرح) .

فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٧] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا، يخبر فيها [أن العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدي الطريق المستقيم ثم إذا تركها بعد أن عرفها، ونكص عنها بعد أن سلكها عوقب بإبعاده في طريق ضلاله الذي ارتضاه لنفسه وترك به طريق الهدى . فالاهتداء غير ممكن في حقه ما دام سادرًا[1] في طريق غوايته ممعنا في سبيل ضلالته . جزاء على فعله، كقوله في اليهود : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [البقرة: ١٠١ - ١٠٢]، فإنهم لما تركوا اتباع كتب الله المنزلة من عنده لهداية العباد، وإصلاح كل شئونهم، وإسعادهم ابتلوا باتباع أرذلها وأخسئها، وأضرها للعقول، وأفتكها في إفساد المجتمع. ولما ترك المحاربون لله ورسوله إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن ابتلاهم بإنفاقها في طاعة الشيطان .

* * *

القاعدة الخامسة والثلاثون

تقديم أعلى المصلحتين وأهون المفسدتين[2]

في القرآن عدة آيات فيها الحث على أعلى المصلحتين وتقديم أهون المفسدتين، ومنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته وهذه قاعدة جليلة . نبه الله عليها في آيات كثيرة .

---

(١) السادر : المتحير . القاموس [س د ر] .

(١) انظر : « مجموع الفتاوى » (٩٢/٣١)، « إعلام الموقعين » (٢٧٩/٣)، « زاد المعاد » (٥٢٢/٥)، « مفتاح دار السعادة » (٣٤٤/٢)، « القواعد الفقهية » للسعدي (قاعدة ٣٣) بتحقيقنا .

فمن الأول: المفاضلة بين الأعمال، وتقديم الأعلى منها. كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠]، وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ١٩]، وكقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [النساء: ٩٥].

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] بين تعالى أن ما نقمه الكفار على المسلمين من قتال في الشهر الحرام، وإن كان مفسدة فما أنتم عليه من الصد عن سبيل الله والكفر به وبسبيل هداه وبالمسجد الحرام وصدكم عنه، وإخراج أهله منه أكبر عند الله، وفتنتكم المؤمنين بشديد الأذى محاولين إرجاعهم إلى الشرك أكبر من القتال في الشهر الحرام.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ الآيات [الفتح: ٢٥]، فكف الله المؤمنين عن القتال في المسجد الحرام في صلح الحديبية مع وجود المقتضي من الكفار اتقاء للمفسدة المترتبة على ذلك: من إصابة المؤمنين والمؤمنات المستضعفين الذين حبسهم المشركون بمكة عن الهجرة بأنواع من الأذى أو القتل - ما يكون سببًا في لحوق المعرة بجيش المؤمنين.

وكذلك جميع ما جرى في صلح الحديبية من هذا الباب: من التزام تلك الشروط التي ظاهرها على المسلمين. ولكن تبين لهم بعد أنها عين المصلحة لهم والفتح المبين.

ومن هذا: أمره بكف الأيدي عن القتال قبل أن يهاجر الرسول إلى المدينة، لأن الأمر بالقتال في ذلك الوقت أعظم ضرارًا من الصبر والإخلاد إلى السكينة، مع متابعة تبليغ الرسالة وإقامة الحجة والجهاد الكبير بالقرآن.

ولعل من هذا مفهوم قوله : ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ١١] يعني فإن ضرّت فترك التذكير الموجب للضرر الكثير هو المتعين . والآيات في هذا النوع كثيرة جدًّا .

ومن الثالث : قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] .

هذا كالتعليل العام أن كل ما كانت مضرته وإثمه أكبر من نفعه ، فإن رحمة الله وحكمته لابد أن تقتضي المنع منه وتحريمه على عباده .

وهذا الأصلُ العظيم كما أنه ثابتٌ شرعًا فإنه هو المعقول بين الناس المفطرون على استحسانه ، والعمل به في الأمور الدينية والدنيوية ، والله أعلم][1] .

وهناك قاعدة ثالثة وهي أن الدين الإسلامي جاء بتحصيل المصالح وتقليل المفاسد ما أمكن ، هذه هي القاعدة التي صار عليها هذا الدين القويم ، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ، فالدين الإسلامي جاء بتحصيل المصالح وتقليل المفاسد بقدر الإمكان .

* * *

القاعدة السادسة والثلاثون

مقابلة المعتدي بمثل عدوانه

طريقة القرآن : إباحة الاقتصاص من المعتدي ومقابلته بمثل عدوانه ، والنهي عن ظلمه ، والندب إلى العفو عنه والإحسان .

هذه ثلاث حالات : اقتصاص جائز ، ظلم ممنوع ، عفو وإحسان مطلوب ؛ لأن هذا

---

(١) ما بين المعكوفين لم يقابل على الأشرطة ؛ لعدم وجود هذا الموضع فيها .

الأخير يجب أن يقيد بما إذا كان فيه الإصلاح ؛ لأن الله يقول : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠] ، أما لو كان رجل مجرم فعل جريمة وقلنا : عفونا عنك ، سيأتي ويفعل أخرى ، هل في عفونا هذا إصلاح ؟ لا ، ولهذا يجب في هذه المسائل أن ينظر الإنسان إلى الأمور بعين العطف ، لا بعين العاطفة ، يأتي رجل متهور يفعل بلية تخصك ، ويأتي ناس يصلحونه عليك ، فيقولون : ارحم هذا الرجال أعتقه له أولاد ، وكذا وكذا ، ويأتون بما يرقق النفس بالعفو عن هذا الرجل ، لكن ما يعلمون أن هذا الرجل لو عفونا عنه الآن لأتانا ببلية في آخر النهار ، فهذا ليس أهلًا للعفو ، فكل الآيات بل كل النصوص التي تحث على العفو يجب أن تكون مقيدة بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠] ، لأنه إذا لم يكن في العفو إصلاح كان ظلمًا ، والظلم ممنوع ، فصارت الأحوال ثلاثة : قصاص ، وعفو ، وظلم ، فالظلم ممنوع ، والعفو مندوب ، والقصاص جائز مباح .

وهذا في آيات كثيرة كقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦] ، ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى : ٤٠] ، فذكر المراتب الثلاث .

ولما كان القتال في المسجد الحرام مُحرما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ [البقرة: ١٩١- ١٩٤] وهو كل ما حرمه الله وأمر باحترامه . فمن انتهكه فد أباحَ اللهُ الاقتصاصَ منه ، بقدر ما اعتدى به لا أكثر . وقوله : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ﴾ الآية ، ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ

النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ الآية، ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾، ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ الآية، والآيات في هذا المعنى كثيرة. والله أعلم.

قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، هل هو السلطان الكوني أو الشرعي؟ الشرعي، وربما الكوني أيضًا، بأن ييسر الله عز وجل العثور على هذا القاتل فيقتل، ولهذا يقول العامة: «القاتل مقتول ولو بعد حين»؛ لأنه يقول: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾، ويدل على هذا أنه شامل للسلطان الكوني والشرعي قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ يعني: كأن الأمر مفروغ منه، وأن هذا القاتل لا بدّ وأن يقتل، لكن لا يسرف الولي في قتله ولا يتجاوز ويتعدى.

* * *

القاعدة السابعة والثلاثون

اعتبر الله القصد والإرادة في ترتب الأحكام على أعمال العباد

وهذا الأصل العظيم: صَرَّحَ به النبي ﷺ في قوله: «إنما الأعمال بالنيات»[1].

والمقصود هنا أنه ورد آياتٌ كثيرة جدًّا في هذا الأصل فمنها، وهو أعظمها أنه رَتَّبَ حصولَ الأجر العظيم على الأعمال بإرادة وجهه، لما ذكر الصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس. قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ

---

(١) متفق عليه من حديث عمر: البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] ، الآمر بهذه الأشياء في قوله : ﴿خَيْرَ﴾، وهو الذي يترتب عليه أن المعروف والصدقة والإصلاح بين الناس ، لكن ثواب الآخرة ما يأتي إلا بنية خالصة ، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ، أما من بفعله رياء وسمعة – والعياذ بالله – فإنه وإن ترتب على ذلك خير وحصل الإصلاح والصدقة فإنه لا يؤتى عليه أجرًا عظيمًا .

وقال : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٦٥] ، وفي مقابله قال: ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، ووصف الله نبيه وخيار خلقه من الصحابة رضي الله عنهم بأنهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانا . وقال في الرجعة : ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة : ٢٢٨]، ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] ، وقال تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢] ، ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤] ، ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة : ٢٢٠] ، وفي دعاء المؤمنين : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] فقال الله : « قد فعلت »[1] ، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب : ٥] .

وذكر الله قتل الخطأ ورتب عليه الدِّيَة والكفارة ، ثم قال : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] ، وقال في جزاء الصيد : ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ الآية [المائدة : ٩٥] ، وقال : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة : ٢٣٥] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٦) عن ابن عباس .

أعمالَ الأبدانِ وأقوالَ اللسانِ، صحتها وفسادها، وترتّب أجْرِهَا أو وِزْرِهَا: بحسب ما قام بالقلب.

القاعدة الثامنة والثلاثون

قد دلت آيات كثيرة على جبر المنكسر قلبه ومن تشوفت نفسه لأمر من الأمور إيجابًا أو استحبابًا

وهذه قاعدةٌ لطيفة، اعتبرها الباري وأرشدَ عباده إليها في عدة آيات.

منها: المُطلَّقة. فإنه لما كانت في الغالب منكسرة القلب حزينة على فراقِ بعلها، أمرَ الله بمتعتها على الموسِع قدره وعلى المقتر قدره، متاعا بالمعروف. وكذلك من مات زوجها عنها فإن من تمام جبر خاطرها: أن تمكثَ عند أهله سنة كاملة وصية ومتعة مُرَغَّب فيها. وكذلك أوجبَ الله للزوجة على الزوج النفقة والكسوة في مدة العدة، إذا كانت رجعية، أو كانت حاملة مطلقة.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨]، ويدخلُ الواجبُ والمستحبُ في مثل قوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وذلك لأن الحصاد يحضر الفقراء في الغالب، فكان إعفاؤهم مناسبًا جدًا؛ لأنك تحصد الحصاد وتكدسه وتدخره، فينبغي ألا تحرم هؤلاء الفقراء منه.

وكذلك إخباره عن عقوبة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين، وتواصوا أن لا يدخلنها اليوم عليهم مسكين[1].

وقال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾

(١) وهذا في سورة القلم، الآيات (١٧ - ٣٢).

إلى قوله : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ [الإسراء : ٢٦] .

المهم أن قوله : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ ﴾ بأنه إذا بلغ الأم والأب الكبر ضعفت نفوسُهما ورقت واحتاجا إلى من يرحمهما ، هذا من وجه ، من وجه آخر إذا بلغ الكبر فإن الإنسان يمل منه ويتعب ويحتاج أن يوصى بهما خيرًا في مثل هذه الحالة .

وقد ذكرَ اللهُ جبره لقلوب أنبيائه وأصفيائه أوقات الشدات وإجابته لأدعيتهم أوقات الحاجات والضرورات . وأمر عباده بانتظار الفرج عند الأزمات . فهذا أصل قد اعتبره الله وأرشد إليه فينبغي للعبد أن يكون على باله في وقت المناسبات ويعتبره عند وجود سببه .

هذا واضح ، وهذه من الآداب العالية والخصال الحميدة ؛ أنه عندما تجد الإنسان منكسر القلب إما بفراق محبوب أو غير ذلك ، فينبغي أن تدخل عليه الفرح والسرور وتهون عليه المصيبة بتذكيره بما هو أعظم ، فإذا تلف له بعض ماله تقول : إن من الناس من تلفت لهم أموالهم كلهم ، وإذا أصيب بمرض في عينه تقول : إن بعض الناس قد يصاب بالعمى ، وهكذا ، حتى تخفف عنه الأمور ، ومن ذلك ما مر علينا في درس الصباح من تعزية المصاب .

* * *

القاعدة التاسعة والثلاثون

في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية

طريقة القرآن في هذا : أعلى طريقة ، وأقرب إلى حصول جميع المصالح الكلية . وإلى دفع المفاسد . ولو لم يكن في القرآن من هذا النوع إلا قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] وإخباره عن المؤمنين : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] فالأمر مفرد مضاف إلى المؤمنين ، وفي الآية

الأولى : قد دخلت عليه « ال » المفيدة للعموم والاستغراق يعني أن جميع أمور المؤمنين وشئونهم ، واستجلاب مصالحهم ، واستدفاع مضارهم معلق بالشورى والتراود على تعيين الأمر الذي يَجْرونَ عليه .

وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورى .

فالمسلمون قد أرشدهم الله إلى أن يهتدوا إلى مصالحهم وكيفية الوصول إليها بإعمال أفكارهم مجتمعة . فإذا تعينت المصلحة في طريق سلكوه ، وإذا تعينت المضرة في طريق تركوه ، وإذا كان في ذلك مصلحة ومضرة ، نظروا : أيها أقوى وأولى وأحسن عاقبة ، وإذا رأوا أمرًا من الأمور هو المصلحة ولكن ليست أسبابه عتيدة عندهم ولا لهم قدرة عليها نظروا بأي شيء تدرك الأسباب وبأي حالة تنال على وجه لا يضر . وإذا رأوا مصالحهم تتوقف على الاستعداد بالفنون الحديثة والاختراعات الباهرة ، سعوا لذلك بحسب اقتدارهم . ولم يملكهم اليأسُ والاتكال على غيرهم ، الملقي إلى التهلكة . وإذا عرفوا - وقد عرفوا - أن السعي لاتفاق الكلمة وتوحيد الأمة هو الطريق الأقوم للقوة المعنوية جدوا في هذا واجتهدوا ، وإذا رأوا المصلحة في المقاومة والمهاجمة أو في المسالمة والمدافعة بحسب الإمكان ، سلكوا ما تعينت مصلحته فيقدمون في موضع الإقدام ، ويحجمون في موضع الإحجام .

وبالجملة لا يدعون مصلحة داخلية ، ولا خارجية دقيقة ولا جليلة إلا تشاوروا فيها ، وفي طريق تحصيلها وتنميتها ، ودفع ما يضادها وينقصها .

فهذا النظامُ العجيب الذي أرشدَ إليه القرآن : هو النظام الذي يصلح في كل زمان ومكان ، وفي أمة ضعيفة أو قوية .

ومن ذلك : قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] فهذه الآية نصٌّ صريح بوجوب الاستعداد للأعداء بما استطاعه المسلمون من قوة

عقلية ، ومعنوية ومادية ، مما لا يمكن حصر أفراده وفي كل وقت يتعين سلوك ما يلائم ذلك الوقت ويناسبه ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : ٧١] ونحوها من الآيات التي أرشد الله فيها إلى التحرز من الأعداء فكل طريق وسبب يتحرز به من الأعداء فإنه داخل في هذا ، ولكل وقت لبوسه ، ومن عجيب ما نبه عليه القرآن من النظام الوحيد : أن الله عاتب المؤمنين بقوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ؟ فأرشد عباده إلى أنه ينبغي أن يكونوا بحالة من جريان الأمور على طرقها لا يزعزعهم عنها فَقْدُ رئيس وإن عظم ، وما ذاك إلا بأن يستعدوا لكل أمر من أمورهم الدينية والدنيوية بعدة أناس ، إذا فقد أحدهم قام مقامه غيره ، وأن تكون الأمة متوحدة في إرادتها وعزمها ومقاصدها وجميع شئونها . قصدهم جميعا : أن تكون كلمة الله هي العليا وأن تكون جميع الأمور بحسب قدرتهم .

وقال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] أي اتقوا غضبه وعقابه بالقيام بما أمر به من كل ما فيه الخير والصلاح لكم جماعة ومنفردين ، فكل مصلحة أمر الله بها وهي متوقفةٌ في حصولها أو في كمالها على أمر من الأمور السابقة أو اللاحقة . فإنه يجب تحصيلها بحسب الاستطاعة ، فلا يكلفهم الله ما لا يطيقون . وكذلك كل مفسدة ومضرة لا يمكن اجتنابها إلا بسلوك بعض الطرق السابقة واللاحقة فإنها داخلة في تقوى الله تعالى ، وذلك أن بأسبابها لازم الحق حق ، والوسائل لها أحكام المقاصد(١) .

الشورى بأن تجتمع الأمة وتتشاور في أمورها الداخلية والخارجية ؛ لأنه إذا صدر الأمر من الشورى لم يكن رأيًا واحدًا ، بل كان عدة آراء ، ومن المعلوم أن عدة الآراء أقرب إلى الصواب من الرأي الواحد ، بل إن الإنسان أحيانًا إذا قرر الأمر ونوى تبين له خطأ الرأي

---

(١) انظر « القواعد الفقهية » للسعدي (قاعدة ٢) بتحقيقنا .

الأول الذي كان عنده لأول مرة ، أحيانًا ينوي شيئًا ثم يقوم إليه لينفذه ، فيقول : أتروى في الأمر حتى يكون الحكم على يقين وتؤدة ، هذا وهو إنسان واحد يجد من نفسه بأنه كل ما قرر الأمر وينظر فيه كان إلى الصواب أقرب ، فكيف إذا كانوا جماعة ، ولكن المشكل في زماننا هذا أنك لا تكاد تجد شخصًا حسن النية – مخلصًا – وهذه هي البلية ، يعني لا تكاد تجد إنسانًا يتكلم في أمور السياسة الداخلية والخارجية وهو يقصد مصلحة الأمة ، وهذا هو الذي يجعل الإنسان يتحير أحيانًا ويقول : ماذا تنفع الشورى وكل واحد من هؤلاء المسئولين لا يسعى إلا في مصلحته الخاصة ، ولهذا تأمل ﴿أَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يعني : ينظرون إلى هذا الأمر ، وهو أمر للجميع ليس أمرًا خاصًا ، فهذا هو الذي يوجب أن يقول القائل : كيف يمكن أن نحصل على مثل الشورى وأين من نثق في دينه وأمانته ونصحه ، هذا قليل ، لو وجدنا شخصًا جيدًا في الرأي والتدبير ، لكنه قد يكون خائنًا من حيث الأمانة ، ولو وجدناه أمينًا مخلصًا فقد يكون ضعيفًا من جهة الرأي والتحليل ، فأمر الشورى لا شك أنه خير ، ولكن مشكلته أنك لا تكاد تجد من هو أهلٌ للشورى .

الأمر الثاني مما أشار إليه الشيخ رحمه الله أنه ينبغي للناس أن يعتزوا بأنفسهم لا بقوادهم ، وأن يعتقد كل واحد أنه نفس ذلك القائد ؛ لأنهم إذا جعلوا القيادة لواحد حقيقة وظاهرًا وتصرفًا فإنها تهن نفوسهم إذا فقد ذلك الواحد ، وقد أرشد الله إلى ذلك بقوله : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، هل إذا مات محمد ﷺ ما يبقى لكم بقية على الإسلام ، هذا ليس (بصواب) ، وهكذا ينبغي لنا أن لا نركز على الرئيس الواحد ، بل نعتقد أننا كلنا قائم مقام هذا الرجل حتى لا نفقد إذا فقد وأن نجعل العمل سائرًا على ما هو عليه ، وهذان أمران مهمان ، ولهذا يذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه إذا رأى قائدًا قد (ركبه) الناس وغُرُّوا به فإنه يعزله[1] ، يعزله لسببين : السبب الأول : ألا يتكل الناس عليه ، والسبب

---

(١) من ذلك قصته المشهورة في عزل خالد بن الوليد . انظر الاستيعاب (٧٩٤/٢) ، و« البداية والنهاية » (٩/ ٥٦٢) ، و« تاريخ الطبري » (٣٩٨/٣) .

الثاني : طردًا لإعجابه بنفسه وتعاليه وتكبره ، فهذه أيضًا مهمة جدًّا ، ولهذا نسمع عن بعض الخطباء من رؤساء العرب الذين ملكوا القلوب في وقتهم يقول : أنا لست فلان – ويسمي نفسه – ولكنكم كلكم فلان ، يعني إذا كانت سياستي غلبتكم وهي محل إعجابكم فلا تجعلوني أنا أتصرف تصرفًا شخصيًا ، ولكن اجعلوا منكم كلكم أنتم ذلك الرجل .

والأمر الثالث : الذي ذكره الشيخ إعداد القوة للأعداء ، وتأمل قوله تعالى : ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ تجد أن النكرة في سياق الإثبات (قوة) لكنها لا تتعين بقوة معينة ، فإذا كان أعداؤنا يحاربوننا بالسلاح ، فإعداد القوة يكون بالسلاح ، وإذا كانوا يحاربوننا بالأفكار فإعداد القوة يكون بالأفكار ، وأن ندرس أفكارهم هذه لنرد عليهم ؛ لأننا لا يمكن أن نقاتلهم حتى نعلمه ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل : « إنك تأتي قومًا أهل كتاب »[1] أنت لو أردت أن ترد على صاحب باطل وأنت لا تعرف باطله لا يمكن أن ترد عليه ؟ أبدًا اعرف باطله لترد عليه ، وهذه طريقة العلماء ، فشيخ الإسلام رحمه الله لماذا فند أقوال الفلاسفة والمناطقة والمتكلمين ؛ لأنه درس هذه الأشياء وعرفها ، المهم ، قوله تعالى : ﴿ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ نكرة لا يتعين بقوة معينة فأي سلاح يغزوننا به ، فإننا نعد لهم ما نستطيع مثاله في القوة ، وعلى هذا فإذا غزونا بالأفكار أو بالأخلاق أو بالسلاح يجب أن نستعد لهم بكل هذه الأمور الثلاثة حتى يمكن لنا أن نقابلهم .

ومن الآيات الجامعة في السياسة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ الآية [النساء : ٥٨] . والآية التي بعدها . فالأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة ، من أجلّها : الولايات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة ، الدينية والدنيوية . فقد أمر الله أن تؤدى إلى أهلها بأن يجعل فيها الأكْفاءُ لها . وكل ولاية لها أكفاء مخصصون . فهذا الطريق الذي أمر الله به في الولايات من أصلح الطرق

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس : البخاري (١٤٩٦) ، ومسلم (١٩) .

لصلاح جميع الأحوال . فإن صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها والمدبرين لها والعاملين عليها .

يجب أن نولي كل رجل العمل الذي يختص به ، فلو أننا أردنا أن نولي شخصًا متخرجًا في كلية الشريعة ليكون قائمًا بالتدريس في كلية الهندسة ، وكلية الهندسة تأخذ واحدًا يدرس في كلية الشريعة ؟ هذا ما يصلح ، تؤدى الأمانات إلى أهلها إلى الذين يمكن أن يقوموا بها على وجهها ولكل مقام مقال ، إذا أحضرنا عجينًا لتصنع منه خبزًا ، فهل نعطيه للمرأة أو الرجل ؟ للمرأة ، فالحاصل أننا نقول : لابدّ أن نؤدي الأمانات إلى أهلها ، ما نجعل الذي يدرس النحو في الفقه ولا بالعكس ، هذا ما يمكن .

وهذه سياسة أم لا ؟ هذه من أعظم السياسات لو أن ولاة الأمور لاحظوها وجعلوا كل إنسان له اختصاص بعمل يشغل هذا العمل ليس له من الحكمة أو السياسة أن يأتي خريج كلية الشريعة عن فقدان الحكومة ما أنفقت من أموال ثم يأتي يطلب عملًا كتابيًا ، هذا ضياع للوقت وضياع للمال وضياع للرجال وللأعمال ، العمل الكتابي كل واحد يستطيع أن يعمل فيه ، ممكن يأتي واحد من الشارع أحسن من هذا يتصرف . وإذا طبقنا هذه الحال على الآية وجدنا أنها تضييع للأمانة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء : ٥٨] ، لكن هذا الذي متخرج من كلية الشريعة يقولون : تعال أنت كاتب آلة أو ما أشبه ذلك ، يفرح أم لا ؟ يفرح ، أتدرون لماذا ؟ لأنه يمكن نصف اختباره بالغش ، وهذا معناه أن ما عنده حصيلة ، ولو درس على الطلبة يغلبونه ، ولهذا ينفر بعض الناس المتخرجين من عمل التكليف ، والسبب في ذلك أنهم يخفقون ، ما نجحوا إلا بطريقة غير سليمة ، فلذلك كانوا لا يريدون أن يعملوا .

فيجب تولية الأمثل فالأمثل : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص : ٢٦] ، فصلاح المتولين للولايات الكبرى والصغرى عنوان صلاح الأمة وضده بضده .

ثم أرشدهم الله إلى الحكم بين الناس بالعدل الذي ما قامت السماوات

والأرض إلا به"[١].

فيجب تولية الأمثل فالأمثل، الفقهاء رحمهم الله ذكروا شروطًا للقضاة، ذكروا شروط القاضي عشرة[٢]، الشروط هذه لو فتشت في وقتنا الحاضر من تنطبق عليه ما وجدت أحدًا، لكن قال حبر زمانه شيخ الإسلام ابن تيمية: إنه يولّى الأمثل فالأمثل حتى أن يولى أعدل الفاسقين إذا لم نجد عدلًا[٣]، ولو كان فاسقًا نوليه، ما ندع الأمور تذهب بدون ولاية، فينظر الأمثل فالأمثل، ومن كان أمثل في القيام بهذا العمل وَوُلِّي عليه من هو دونه كان ذلك خيانة[٤].

فالعدل قوام الأمور وروحها. وبفقده تفقد الأمور. والحكم بالعدل من لازمه: معرفة العدل في كل أمر من الأمور، فإن كان المتولون للولايات هم الكُمَّل من الرجال والأكفاء للأعمال وجرت تدابيرهم وأفعالهم على العدل والسداد متجنبين للظلم والفساد تَرَقّت الأمة وصَلَحَتْ أحوالها، وتمام ذلك في الآية الأخرى التي أمر الله فيها بطاعة ولاة الأمور فهل يوجد أكمل وأغنى من هذه السياسة الحكيمة التي عواقبها أحمد العواقب؟

طاعة ولاة الأمور لكنها تبعٌ لطاعة الله ورسوله كما يشير إلى ذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر، وهذا يدل على أن طاعة ولاة الأمور تابعة لطاعة الله ورسوله، وعليه فإذا أمر ولاة الأمور بأمر فيه معصية لله ورسوله فإنهم لا يُطاعون، وإذا أمروا بأمر فيه طاعة

---

(١) لعله يشير إلى ما أخرجه أبو داود (٣٠٠٦)، وصححه ابن حبان (٥١٩٩) في قصة ابن رواحة حين أتى يهود خيبر ليخرص زرعهم، فأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء الله، أتطعموني السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض.

(٢) انظر في شروط القاضي: الفروع (٦/٣٧٤)، المحرر (٢/٢٠٣)، المغني (١٤/١٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٥٢)، ومثله في المبدع (١٠/٢١)، والفروع (٦/٣٧٦).

(٤) وفي الحديث «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة». أخرجه البخاري (٥٩) عن أبي هريرة.

الله ورسوله فإنهم يطاعون من وجهين ؛ أولًا أن هذه من طاعة الله ورسوله . والثاني : أنه من طاعة ولاة الأمور . وإذا أمروا بأمر ليس فيه طاعة ولا معصية وجب طاعتهم ، وهذه هي النقطة التي يجب أن نركز عليها وإلا إن قلنا : إنهم لا يطاعون إلا فيما هو طاعة ، لكانوا كغيرهم من الناس ، حتى إذا أمر واحد من الناس بطاعة الله لكان أمره مطاعًا ، لا لأمره ، ولكن لأنه طاعة الله ، ولهذا يجب علينا أن نطيع ولاة الأمور فيما نظموه لمصلحة الأمة ، وإن لم يكن طاعة لله ورسوله في ذاته إلا إذا كان معصية ، وأما قول بعض الجهال : نحن ما نطيعهم إلا إذا كان هذا مما أمر الله به . هذا مصادرة للنص مصادرة لجلالته ومصادمة له أيضًا ، والله أمر بطاعة ولاة الأمور إلا في المعصية ، وظاهر قوله : ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ ﴾ أنه ما دامت إمرتهم باقية فلهم الطاعة ولا يشترط في ذلك أن يكونوا عُدُولًا ، بل حتى لو رأينا من بعضهم ما هو معصية فإنه يجب أن يطاع ، ما نقول : لا نطيعه إلا إذا أطاع الله هو ، أبدًا أطعه وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك[1] ، ما لم يأمر بمعصية الله[2] ، ولهذا تجد هؤلاء الذين نعتبرهم سفهاء خرجوا على ولاة الأمور لمجرد أنهم رأوهم فسقة ، ماذا حصل ؟ حصل من الشر والفساد ما هو أعظم مما كان عليه هؤلاء الولاة ، نقرأ التاريخ من حين حصل الاختلاف على الأئمة إلى يومنا هذا ، نجد الشر والفساد كله في الخروج على ولاة الأمور ، ماذا حصل من قتل عثمان رضي الله عنه ، ومن قتل علي بن أبي طالب ، ومن قتل ما قتل من بقية الخلفاء ؟ حصل الشر والفساد ، حتى أولئك السفهاء الذين خرجوا على ولاتهم واستحلوا كراسيهم وسموها ثورة وما أشبه ذلك ، ماذا حصل هل أصلحوا الوضع ؟ أبدًا ، فإن المتأمل يجد أن الوضع الذي كان في السابق خيرًا مما هو عليه الآن ، كل ذلك بسبب الخروج عن طاعة الله ورسوله ، فلو أن هؤلاء أطاعوا الله ورسوله وصبروا على ولاة الأمور وطاعتهم في غير معصية الله ؛ لنالوا خيرًا كثيرًا .

ومن الآيات المتعلقة بالسياسة الشرعية : جميع ما شرعه الله من الحدود

---

(١) كما ورد في حديث مسلم (١٨٤٧) عن حذيفة .

(٢) في الباب عدة أحاديث منها حديث ابن عمر : على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . أخرجه البخاري (٧١٤٤) ، ومسلم (١٨٣٩) .

على الجرائم، العقوبات على المتجرئين على حقوقه وحقوق عباده، وهي في غاية العدالة والحسن وردع المجرمين والنكال والتخويف لأهل الشر والفساد، وفيها صيانة لدماء الخلق وأموالهم وأعراضهم.

والآيات التي فيها الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر والتكلمُ بالحق مع من كان وفي أي حال من الأحوال.

وكذلك ما فيها من النهي عن الظلم فيه إرشاد للحرية النافعة التي معناها التكلم بالحق وفي الأمور التي لا محذور فيها، كما أن الحدود والعقوبات والنهي عن الكلام القبيح والفعل القبيح فيها رد الحرية الباطلة، فإن ميزان الحرية الصحيحة النافعة هو ما أرشد إليه القرآن. وأما إطلاق عنان الجهل والظلم والأقوال الضارة المحللة للأخلاق، فإنها من أكبر أسباب الشر والفساد، وانحلال الأمور والفوضوية المحضة. فنتائج الحرية الصحيحة أحسن النتائج، ونتائج الحرية الفاسدة أقبح النتائج، فالشارع فتح الباب للأولى، وأغلقه عن الثانية، تحصيلًا للمصالح، ودفعا للمضار والمفاسد. والله أعلم.

هذا صحيح، فإن الحرية المطلقة لشخص ما تكون على حساب حرية غيره، لو أطلقنا لشخص الحرية لقال لنا: أريد أن أتمتع بأموال الناس ومساكنهم ومراكبهم وحتى زوجاتهم أيضًا، سيكون على حساب الآخرين، ولكن نقول: لك حرية فيما تملك فقط، وللآخرين حرية فيما يملكون، فالحرية الكاملة هي المبنية على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا أحد أحكم من الله وأعدلُ منه، وقد عدل سبحانه وتعالى في الحرية التي منحها العباد، فجعل لكل إنسان حرية لا يعتدي بها على حرية الآخرين، وهذا ظاهر، هذه أيضًا من السياسة، فالحرية الظالمة الجائرة التي تمنع من التكلم بالخير والتحليل من الشر، هذه لا شك أنها ظالمة، والإسلام يأتي بمحاربتها، والحرية الحقة التي تطلق لكل إنسان القول والعمل بما هو من حقه، هذه حرية صحيحة نافعة، ولكل مقام مقال، حتى وإن ملكنا نحن أن نتكلم أو أن نفعل وكان المقام يقتضي ألا نقول ولا نفعل فإننا لا نقول ولا نفعل.

القاعدة الأربعون

في دلالة القرآن على أصول الطب

أصول الطب ثلاثة: حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة، والحمية عن الأمور الضارة، ودفع ما عرض للبدن من المؤذيات.

ومسائل الطب كلها تدور على هذه القواعد[1].

ما هذه القواعد؟ الاستعمال النافع والاحتماء من الضرر ورفع الضرر بعد نزوله ثلاثة أشياء.

وقد نبّه القرآن عليها في قوله تعالى في حفظ الصحة ودفع المؤذي: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، فأمر بالأكل والشرب الذي لا تستقيم الأبدان إلا بهما، وأطلق ذلك ليدل على أن المأكول والمشروب بحسب ما يلائم الإنسان وينفعه في كل وقت وحال. ونهى عن الإسراف في ذلك، إما زيادة في كثرة المأكولات والمشروبات. وإما بالتخليط في المطعوم والأوقات. وهذا حمية عن كل ما يؤذي الإنسان. فإذا كان القوت الضروري من الطعام والشراب إذا صار بحالة يتأذى منه البدن ويتضرر: مُنع منه، فكيف بغيره؟

وكذلك أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمالُ الماء يضره، حِمية له عن المضرات كلها.

وأباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه ويفدي. وهذا من باب الاستفراغ وإزالة ما يؤذي البدن. فكيف بما ضرره أكثر من هذا؟

ونهى عن الإلقاء باليد إلى التهلكة. فيدخل في ذلك استعمال كل ما يتضرر به الإنسان من الأغذية والأدوية، ودفع ما يضر بمدافعته الذي لم يقع به

---

(١) انظر: زاد المعاد (٦/٤-٩، ١٠٣)، الآداب الشرعية (٣٤٢/٢).

والتحرز عنه ، بمعالجة الحادث بالطرق الطبية النافعة .

وكذلك ما ذكره اللَّه في كتابه من الأعمال كلها كالجهاد والصلاة والصوم والحج وبقية الأعمال والإحسان إلى الخلق فإنها وإن كان المقصود الأعظم منها نيل رضى اللَّه وقربه وثوابه ، والإحسان إلى عبيده ، فإن فيها صحة للأبدان وتمرينًا لها ، ورياضة وراحة للنفس ، وفرحا للقلب ، وأسرارًا خاصة تحفظ الصحة وتنميها وتزيل عنها المؤذيات .

وبالجملة فإن جَميع الشرائع ترجع إلى صلاح القلوب والأرواح والأخلاق والأبدان والأموال في الدنيا والآخرة . والله أعلم .

هذه القاعدة خلاصتها أن القرآن أرشد إلى أصول الطب الثلاثة ، وهي حفظ الصحة ، والبدن ، والحِمية عما يضرهم وإزالة ما يؤذيهم ، يعني بعد وقوعه ، وكلها ذكرها اللَّه سبحانه وتعالى في القرآن : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ، هذا استعمال ما يحفظ الصحة ، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ هذا الـحِمية عما يضر ، أما دفعُ ما كان ضارًا فذكر المؤلف رحمه اللَّه له فدية الأذى : ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ [البقرة : ١٩٦] يعني : فليحلقه ، ففي هذا إزالة المؤذي ، وإذا تم للبدن حفظ الصحة وحمايته مما يضره أو يؤذيه ورفع ما أضر به وأذاه تمت صحته .

* * *

القاعدة الحادية والأربعون

قصر النظر على الحالة الحاضرة

يرشد اللَّه عباده في كتابه من جهة العمل إلى قَصْر نظرهم إلى الحالة الحاضرة التي هم فيها ، ومن جهة الترغيب في الأمر والترهيب من ضده إلى ما يترتب عليها من المصالح ، ومن جهة النعم إلى النظر إلى ضدها .

وهذه القاعدة الجليلة دعا إليها القرآن في آيات عديدة . وهي من أعظم ما يدل على حكمة الله ، ومن أعظم ما يرقي العاملين إلى كل خير ديني ودنيوي ، فإن العامل إذا كان مشتغلا بعمله الذي هو وظيفة وقته فإنْ قصر فِكْرَه وظاهره وباطنه عليه نجح ، ويتم له الأمر بحسب حاله . وإن نظر وتشوقت نفسه إلى أعمال أخر لم يحن وقتها بَعْدُ فترت عزيمته ، وانحلت همته ، وصار نظره إلى الأعمال الأخرى ينقص من إتقان عمله الحاضر وجمع الهمة عليه . ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته وقل نشاطه . وربما كان الثاني متوقفًا على الأول في حصوله أو تكميله ، فيفوت الأول والثاني ، بخلاف من جمع قلبه وقالبه وصار أكبر همه هو القيام بعمله الذي هو وظيفة وقته ؛ فإنه إذا جاء العمل الثاني فإذا هو قد استعد له بقوة ونشاط ويتلقاه بشوق وصار قيامه بالأول معونة على قيامه بالثاني .

ومن هذا : قوله تعالى مصرحا بهذا المعنى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء : ٧٧] فانظر كيف حالهم الأولى وأمنيتهم وهم مأمورون بكف الأيدي ، فلما جاء العمل الثاني ضعفوا كل الضعف عنه . ونظير هذا ما عاتب الله به أهل أحد في قوله : ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران : ١٤٣] ، وقد كشف هذا المعنى كل الكشف قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء : ٦٦] ؛ لأن فيه تكميلا للعمل الأول ، وتثبيتًا من الله ، وتمرنا على العمل الثاني .

ونظيره قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [التوبة : ٧٥- ٧٧] ، فالله أرشد العباد أن يكونوا

أبناء وقتهم ، وأن يقوموا بالعمل الحاضر ووظيفته ، ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت واجتمعت تلك الهمة والعزيمة عليه ، وصار القيام بالعمل الأول معينا على الثاني . وهذا المعنى في القرآن كثير .

هذه المسألة التي ذكرها الشق الأول وهو أن الإنسان ينبغي أن يعتني بالعمل الذي بين يديه ؛ لأن العمل الذي بين يديك هو وظيفة وقتك ، بعض الناس يفرط فيه من وجهين : الوجه الأول أنه يتساهل ويتهاون يقول : هذه المسألة بسيطة ، هذا عمل قليل ، فيضيع عليه الوقت ، فإذا حصره الوقت عجز عنه ، وإذا عجز عنه انتقل هذا العمل من وظيفته الزمنية إلى وظيفة العمل الثاني ، فضيق عليه وعجز عن القيام بهما ، وعلى هذا يقول صاحب الحكمة : « لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد » ، وما أكثرَ ما يظن الظان أن هذا العمل يسير وأنه سيخلصه ثم يتمادى به الأمر فيعجز ، وإذا قابل الإنسان هذا العمل بهمة ونشاط وبدأ به فورًا ولم يتوان فيه أدركه على سهولة وأتقنه وأجازه ، هذه واحدة ، هل تضعوا هذه في أعمالكم اليومية ؟ نعم ، جرب تجد ، وانتهز الفرصة كما قال الشاعر : [الرجز]

وانتهز الفرصة إن الفرصة   تكون إن لم تَنْتَهِزْهَا غُصَّة

الشيء الذي ذكره الشيخ رحمه اللّٰه أن بعض الناس يرهقون أنفسهم ولا يتقنون العمل ، يقولون : نقرأ ليل نهار وهكذا ، وهذا غير صحيح ، لكن إذا جاء العمل يسيرًا تتحمله النفس وتقبلته وأتقنتـه انتقلت إلى العمل الثاني ، وهي قد أجادت العمل الأول فتلقته بانشراح ونشاط . فهذان وجهان في هذه المسألة : من الناس من يتهاون بالعمل ويقول هذا عمل قليل أؤخره ، فيضيع عليه الوقت . ومن الناس من يستقل هذا العمل ويريد عملًا أكثر ، فإذا ابتلي به عجز عنه ، ولهذا قال في الآية التي ذكرها الشيخ رحمه الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ﴾ [النساء : ٧٧] ، وهم بالأول يقولون : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة ، يقولون : ينبغي القتال . لما كتب عليهم القتال وعجزوا قالوا : ربنا لما كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى

أجل قريب ، كذلك الآية الثانية قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء : ٦٦] .

انظر إلى عبد الله بن عمرو بن العاص حين قال : « والله لأقومن الليل ما عشت ، ولأصومن النهار ما عشت » ، فدعاه الرسول ﷺ وبيّن له هل أنت الذي قلت كذا ؟ قال : نعم ، بدأ النبي ﷺ يحاططه وينازله ، حتى وصل إلى أن يصوم يومًا ويدع يومًا ، ماذا كانت حال عبد الله في آخر عمره ؟ شق عليه ذلك ، فكان يصوم خمسة عشر يومًا سردًا ويفطر خمسة عشر يومًا ، وقال : ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ[1] ، انظر الآن عجز ، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ ، وكذلك قراءة الكتب ، يقولون : إن الشيخ عبد الله أبا بطين بن عبد الرحمن كان يلقب مفتي الديار النجدية وكان عالمًا جيدًا في الفقه[2] ، يقول : إنني ما قرأت إلا الروض المربع في شرح زاد المستقنع ، لكنه كان يكرره ويتأمل فيه ويأخذ بمنطوقه ومفهومه وإشارته ، وصار عالمًا بحرًا في الفقه ، أما واحد يقفز من غصن إلى غصن من الكتب ، يقول : أطالع هذا أو أطالع هذا ؟ يروح عليه الوقت ، أحيانًا يأتي الإنسان يريد أن يطالع حكم مسألة مراجعة إذا فتح الكتاب كالبحر ووجد السمك أمامه وكان يريد حوتًا معينًا لما فتح الكتاب ووجد الأسماك تتداوج أمامه صار يأخذ هذه ويأخذ هذه ويأخذ هذه ، فيروح عليه الوقت ويضيع عليه الوقت ، ويأتي عليه الأذان وهو ما راجع المسألة التي يبحث عنها ، هذه معروفة عندكم ، لكن لو أن الإنسان بدأ أول ما يبدأ ما دام يريد مسألة معينة يبدأ أول ما يبدأ بها وإذا حصل عنده فضل وقت فليرجع إلى المسائل الأخرى ، لكن بعض الأحيان مع شغفة الإنسان على العلم يقول : والله هذه المسألة جيدة اقرأ يا ولد ، وهكذا وهكذا ، ويروح عليه الوقت ، ثم شيئًا آخر أيضًا أحيانًا تمر عليه مسألة نادرة الوجود ولو

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص : البخاري (١٩٧٦) ، ومسلم (١١٥٩) واللفظ له .

(٢) تولى القضاء والتدريس والخطابة ، مع الأخلاق الحميدة المرضية . توفي عام ١٢٨٢ هـ . انظر ترجمته في السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (ت ٣٨٣) ، الأعلام للزركلي (٤/٩٧) .

طلبها في محلها ما وجدها ، ثم تلك الساعة يقول : الآن حفظتها لا أنساها أبدًا . ثم تمر أيام قليلة فينساها ويحاول أن يجدها فلا يجدها ، وهذه مسألة أيضًا ينبغي لطالب العلم أن يلاحظها ، إذا مرت عليك مسألة مهمة ، إما قاعدة ما تكاد تلقاها في الكتب فاحفظها لا تقول الآن استقرت في ذهني ولا أنساها فلابد أن تقيدها عندك حتى لا تنساها . يقولون : إن ابن القيم رحمه اللّٰه له كتاب اسمه « بدائع الفوائد » هذا ما أُلف تأليفًا منسقًا كان كلما تطرأ على ذهنه مسألة كتبها ، وابن الجوزي له كتاب اسمه « صيد الخاطر » كل ما جاء في خاطره شيء قيده ، هذه أيضًا ينبغي للإنسان أن يلاحظها يضع عنده دفتر كل هذه المسائل النادرة الوجود التي إذا طلبها الإنسان يتعب ما يجدها يقيدها ولا يقول : حفظتها. فينساها .

وأما الأمور المتأخرة . فإن اللّٰه يُرشد العاملين إلى ملاحظتها لتقوى هممهم على العمل المثمر للمصالح والخيرات . وهذا كالترغيب المتنوع من اللّٰه على أعمال الخير ، والترهيب من أفعال الشر ، بذكر عقوباتها ، وثمرتها الذميمة .

فاعرف الفرق بين النظر إلى العمل الآخر الذي لم يجئ وقته ، وبين النظر إلى ثواب العمل الحاضر الذي كلما فَتَرت همة صاحبه وتأمل ما يترتب عليه من الخيرات استجد نشاطه ، وقوي عليه وهانت عليه مشقته . كما قال تعالى : ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] .

هذه الآية أيضًا ضعها على بالك ، كل عدو لك إذا كنت تعاني منه فإنه يعاني منك مثل ما تعاني منه ، سواء كان ذلك عدوًا بالسلاح أو بالأفكار أو بكل شيء ، لكن الفرق بالنسبة للمسلمين وأعدائهم : ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ ، هذا يخفف عنا كثيرًا ، أولًا إذا كانوا يألمون كما نألم فهذا من باب التأسي والتسلي ، والثاني إذا كنا نرجوا من اللّٰه ما لا يرجون ، فهذا من باب الترقي ، نحن أرقى منهم ، مثل ما قالوا لأبي سفيان : لسنا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار[1] .

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٨٧- ٢٨٨) ، والحاكم (٢/٢٩٦- ٢٩٧) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٦٩- ٢٧١) وغيرهم من حديث ابن عباس .

وأما إرشاده من جهة النعم التي على العبد من الله بالنظر إلى ضدها ليعرف قدرها، ويزداد شكره لله. ففي القرآن منه كثير يذكر عباده نعمته عليهم بالدين والإسلام وما ترتب على ذلك من النعم. كقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣] أي إلى الزيادة لشكر نعم الله. وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: ٧١] إلى آخر الآيات حيث يذكرهم أن ينظروا إلى ضد ما هم فيه من النعم والخير، ليعرفوا قدر ما هم فيه.

وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ حيث قال «انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦ - ٨] إلى آخرها.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٣/٩) عن أبي هريرة. وانظر إلى الفرق بين الصابر والراضي والشاكر للشيخ ابن عثيمين في شرحه الممتع على كتاب الجنائز ص ١١٣ بتحقيقنا. طبع «مكتبة السنة».

القاعدة الثانية والأربعون

الحقوق لله ولرسوله

في أن اللَّه قد ميز في كتابه بين حقه الخاص وحق رسوله الخاص ، والحق المشترك ، فالحقوق ثلاثة : حق لله وحده لا يكون لغيره ، وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات ، وحق لرسوله ﷺ خاص وهو التعزير والتوقير والقيام بحقه اللائق والاقتداء به ، وحق مشترك وهو الإيمان بالله ورسوله وطاعة اللَّه ورسوله ومحبة اللَّه ورسوله .

وقد ذكر اللَّه الحقوق الثلاثة في آيات كثيرة من القرآن ، فأما حقه : فكل آية فيها الأمر بعبادته وإخلاص العمل له والترغيب في ذلك ، وهذا شيء لا يحصى ، وقد جمع اللَّه ذلك في قوله : ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فهذا مشترك ، ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ فهذا خاص بالرسول ، ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح : ٩] فهذا حق للَّه وحده ، وقوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [التغابن : ١٢] في آيات كثيرة ، وكذلك ﴿ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، وكذلك قوله : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : ٦٢] . وقال تعالى : ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ فهذا مشترك ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة : ٥٩] فهذا مختصٌّ بالله تعالى .

ولكن ينبغي أن يعرف العبد أن الحق المشترك ليس معناه أن ما لله منه يثبت نظيره من كل وجه لرسوله ، بل المحبة والإيمان والطاعة لله لابد أن يصحبها التعبد والتعظيم لله والخضوع .

وأما المتعلق بالرسول من ذلك : فإنه حب في الله ، وطاعة لأجل أن من أطاع الرسول فقد أطاع اللَّه ، بل حق الرسول على أمته من حق اللَّه فيقوم المؤمن به امتثالا لأمر الله ، وعبودية له وقياما بحق رسوله وطاعة له .

وإنما قيل له حق الرسول : لتعلقه بالرسول ، وإلا فجميع ما أمر اللَّه به وحثَّ

عليه - من القيام بحقوق رسوله ، والحقوق الوالدين والأولاد والأقارب وغيرهم - كله حق لله تعالى فيقوم به العبد امتثالا لأمر الله وتعبدًا له ، وقياما بحق ذي الحق ، وإحسانا إليه ، إلا الرسول فإن الإحسان منه كله إلى أمته فما وصل إليهم خير إلا على يديه صلى الله عليه وسلم تسليمًا .

خلاصة هذه القاعدة أن الحقوق تنقسم إلى ثلاثة أقسام : حق لله ، وحق للرسول ﷺ ، وحق مشترك ، وهناك أيضًا حق رابع لا لله ولا للرسول ، ولكنه لذوي الحقوق ، حق الوالدين والأقارب وما أشبه ذلك ، ولكن كلام المؤلف الأخير يدلنا على أن كل شيء أمر الله به سواء مما يختص به أو مما يكون لخلقه فهو بالمعنى العام من حقوق الله ، لأني أنا حينما أبر والدي أقوم بذلك تعبدًا لله وامتثالاً لأمر الله ، كذلك حق النبي عليه الصلاة والسلام ، لولا أن الله أكرمه بالرسالة وأوجب علينا تصديقه واتباعه لكان هو رجلًا من قريش ، ولكن من أجل الله عز وجل صار بهذه المكانة ، فالإيمان بالله وبرسوله لا يستويان وإن اتفقا في أصل الإيمان لكنهما يختلفان فالإيمان بالله إيمان بالله لذاته لأنه الرب ، والإيمان بالرسول إيمان بالله ؛ لأن الله أرسله وأمرنا بالإيمان به ، فهما وإن اتفقا في الأصل لكنهما يختلفان .

ومن سفه بعض الناس ، أنهم يجعلون حق الله متأخرًا عن حق الرسول عليه الصلاة والسلام ويقدمون حق الرسول ﷺ على حق الله وما علموا أن تعظيم الرسول من تعظيم الله وليس تعظيم الله من تعظيم الرسول ، بل الأمر بالعكس ، فتعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام من تعظيم الله ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] .

إذن القاعدة هذه من قواعد التفسير أننا إذا تأملنا القرآن وجدنا أن الحقوق التي في القرآن التي أثبتها الله تنقسم إلى أربعة أقسام : حق لله ، وحق للرسول ، وحق مشترك بينهما ، وحق رابع لذوي الحقوق ، قال الله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ...﴾ [النساء : ٣٦] إلخ الآيات .

فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، هذا يتضمن حق الله وحق رسوله ؛ لأنها لا تكون

عبادة إلا باتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، أما بالوالدين إحسانًا وذي القربى واليتامى .. إلخ، فهذا من حقوق ذوي الحقوق.

﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ لماذا عرفنا أن بعضها لله وبعضها للرسول وبعضها مشترك؟ لأن ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ واضح يجب علينا أنه لابد أن نؤمن بالله ورسوله والاشتراط هنا واضح، ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ التعزير والنصرة والتوقير والاحترام لمن؟ للرسول عليه الصلاة والسلام، وتسبحوه، التسبيح لله إذ أننا نعلم بالضرورة من الدين أنه لا يصح أن نقول سبحان النبي أبدًا، بل نقول: سبحان اللَّه، فصار الدليل على أن هذه الحقوق منها مختص، ومنها مشترك، الدليل إما من نفس الآية، وإما من أدلة أخرى.

* * *

القاعدة الثالثة والأربعون

يأمر الله بالتثبت وعدم العجلة في الأمور التي يُخشى من سوء عواقبها، ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يُخشى فواتها

وهذه القاعدة في القرآن كثيرة.

قال تعالى في القسم الأول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [النساء: ٩٤] وفي قراءة[(١)]: ﴿ فتثبتوا ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ [الحجرات ٦]. وقد عاتب اللَّه المتسرعين إلى إذاعة الأخبار التي يخشى من إذاعتها فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي

---

(١) هي قراءة حمزة، كما في تفسير القرطبي (٥/٢١٧).

الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ الآية [النساء : ٨٣] ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ [يونس : ٣٩] ، ومن هذا الباب : الأمر بالمشاورة في الأمور ، وأخذ الحذر ، وأن [لا] يقول الإنسان ما لا يعلم ، وفي هذا آيات كثيرة .

وأما القسم الثاني كقوله : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ الآيات [آل عمران : ١٣٣] ، ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦١] ، ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ [الواقعة : ١٠] أي السابقون في الدنيا إلى الخيرات : هم السابقون في الآخرة إلى الجنات والكرامات ، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

وهذا الذي أرشد الله عباده إليه : هو الكمال أن يكونوا حازمين لا يفوتون فرص الخيرات ، وأن يكونوا متثبتين خشية الوقوع في المكروهات والمضرات .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] .

هذه القاعدة مهمة جدًا ؛ فالأمور ثلاثة أقسام ، ما عُلمت مضرته فالإقدام (عليه) لا يجوز لا بالمسارعة ولا بتأني . وما علمت منفعته ، فهنا المبادرة إليه هو الأكمل وجوبًا أو تطوعًا حسب ما تقضيه الحال ، فالمسارعة إليه هي الأكمل ، لكن هنا قد يكون الشيء منفعة بذاته ، ولكن يتردد الإنسان بين كون غيره أنفع منه أو هو أنفع من غيره ، وحينئذ يجب التثبت والتروي هو خير في ذاته ، لكن يتردد الإنسان بين كون غيره أنفع أو هو أنفع فحينئذ يتثبت ؛ لأن الإنسان لا يدري أخير هو أم غير خير لا باعتبار ذاته ولكن باعتبار غيره ، إذن هذا يدخل القسم الثاني ، وهو المشكوك فيه الذي يجب أن نتثبت فيه .

فهنا ثلاثة أقسام : قسم نعلم مضرته فلا نقدم عليه ، لا مبادرة ولا تأنيا ، وقسم آخر علمت منفعته فنقدم (عليه) ، وقسم ثالث يتردد فيه الإنسان ويحتاج إلى تثبت ؛ فنتثبت فيه قبل أن نقدم عليه ، ويدخل في ذلك ما أشكل علينا بذاته ، وما أشكل علينا بمقارنته مع غيره ، هل هو أنفع أم غيره أنفع ، ولهذا يقول الشاعر : [البسيط]

قد يدرك المتأني بعض حاجتِهِ وقد يكون مع المستعجلِ الزلل

وربما فات قومًا جُلُّ أمرِهمُ مع التأني وكان الرأي لو عجلوا[(١)]

فهنا ذكر الحالين : الأول قد يدرك المتأني بعض حاجته ، وقد يكون مع المستعجل الزلل ، إذن هذا البيت يشير إلى التأني في الأمور ، وربما فات قومًا جل أمرهم مع التأني وكان الرأي لو عجلوا ، فمثلًا إذا عَنَّ لك أن تقوم في طاعة اللّٰه فهنا لا تتأخر ، إذا كان الحال تتطلب إزالةَ مانعٍ من موانع الصلاة فلا تتأخر ، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أصابته نجاسة يبادر بإزالتها ؛ لما بال عليه صبي في حَجْره فدعا بماء فأتبعه إياه[(٢)] ، وبال أعرابي في ناحية المسجد فأمر بذَنُوب من ماء فأُريق عليه[(٣)] ، والتأخير قد يسبب للإنسان إحراجًا ، انظر إلى النبي عليه الصلاة والسلام مرة لما أقيمت الصلاةُ وحضر ولما تقدم ليكبر أو كبر ذكر أنه لم يغتسل ، فقال : مكانَكم ، ثم ذهب واغتسل وجاء وصلى بهم بعد ما أقيمت الصلاة[(٤)] ، والنبي عليه الصلاة والسلام يجري عليه مثل هذه الأمور لأجل أن يسن اللّٰه عز وجل لعباده مثل هذه الأحوال .

* * *

القاعدة الرابعة والأربعون

عند ميلان النفوس أو خوف ميلانها إلى ما لا ينبغي : يذكرها الله ما يفوتها من الخير ، وما يحصل لها من الضرر

وهذا في القرآن كثير . وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة ؛ لأن الأمر والنهي المجرد لا يكفي أكثرَ الخلق في كفّهم عما لا ينبغي ، حتى يُقرن

---

(١) الشعر للقطامي ، وانظر تاريخ دمشق (٤٦/٩٨) .

(٢) متفق عليه : البخاري (٢٢٣) ، ومسلم (١٠٣/٢٨٧) عن أم قيس بنت محصن .

(٣) متفق عليه : البخاري (٢٢١) ، ومسلم (٩٩/٢٨٤) عن أنس .

(٤) متفق عليه : البخاري (٦٤٠) ، ومسلم (١٥٨/٦٠٥) عن أبي هريرة .

بذلك ما يفوتُ من المحبوبات التي تزيد أضعافا مضاعفة على الذي يكرهه الله ، وتميل إليه النفس ، وما يحصل من المكروه المرتب عليه كذلك ، قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ فهنا لما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر الخلق عن الاستقامة ، قال مذكرًا لهم ما يفوتهم إن افتتنوا ، وما يحصل لهم إن سلموا من الفتنة : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء : ١٠٩] وقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٧] ، والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جدًا .

فإذا بان للناظر أصلها وقاعدتها سهل عليه تنزيل كلِّ ما يرد منها على الأصل المتقرر . والله أعلم .

هذه القاعدة تفيد أن الأوامر والنواهي في حد ذاتها قد لا تكفي في استقامة العبد ، لكن إذا ذكر له ما في الأمر من فائدة تنفيذه مشى ؛ لأن النفوس مجبولة على حب ما يلائمها ، وإذا ذكر له ما في النهي ما يحفظ العقوبة فإنه يحذر ؛ لأن النفوس مجبولة على النفور مما لا يلائمها ، وهذا واضح حتى في أوامرك أنت لولدك لو قلت : افعل كذا ، قد يتوانى ، لكن إذا أعطيته جائزة ، أو قلت : لك جائزة ، أقدم ، فاللَّه عز وجل أحيانًا إذا ذكر حالاً من الأحوال التي تميل إليها النفوس وربما تنسى ما يجب عليها من حق اللَّه ذكّرها فهنا قال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ يعني يفتتن بها الإنسان وينشغل بها عن طاعة اللَّه عز وجل ، ولما كان هذا سببًا لميل الإنسان إلى أمواله وأولاده قال : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فلا تقدموا هؤلاء الأولاد والأموال على ما عند اللَّه من الأجر ، وكذلك الآية التي ذكرها المؤلف رحمه اللَّه : ﴿ هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ،

ولنفرض أنكم نجحتم في ذلك ، لكن ﴿ مَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، وهذه الآية تنفع في الدنيا وفي الدين أيضًا ، فنقول لمن جادل بباطل لنفرض أنك لبيانك وفصاحتك غلبت صاحب الحق ، ولكن هل تغلب اللَّه يوم القيامة ؟! لا ، وكذلك أيضًا من دافع عن باطل وتوكل عن إنسان في قضية مالية يدافع عنه بباطل ، فنقول : لنفرض أنك نجحت وخصمت خصمك لكن من يجادل اللَّه يوم القيامة ، وهذه آية عظيمة ينبغي للإنسان أن يتذكرها كلما همّت نفسه أن يقوم بمخالفة لله سبحانه وتعالى ، وكذلك أيضًا الآية الثالثة وهي قوله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ ، وهذه الآية أيضًا ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ مقيدة بآية أخرى ، وهي قوله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ [الإسراء : ١٨] .

إذن هل يحصل له كل ما يريد ؟ لا ، بل هو مقرون بمشيئة اللَّه ، ولهذا نجد ناسًا يطلبون الدنيا ولا ينالون منها شيئًا وهم لا يريدون إلا الدنيا ، ومع ذلك لا ينالون منها شيئًا ، ولهذا يضرب المثل بفقير النصارى إذا واحد فشل في شيء قيل له : أنت مثل فقير النصارى لا حصَّل دين ولا دنيا ، ومعلوم أن النصارى ، وغيرهم من الكفار يسعون للدنيا لا للآخرة ، ومع ذلك قد يصابون بالفقر المضطجع وبالهلاك وبالأمراض وكل شيء ، فانظر إلى هذه الآية : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ ، لو نظرنا إلى هذه الآية نفسها لكانت يقينًا لأنها جملة شرطية خبرية ، والخبر لها لا يُخْلَف لكن هذه الآية مقيدة بقوله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ ، ما نشاء ليس ما يشاء هو .

* * *

القاعدة الخامسة والأربعون

حث الباري سبحانه في كتابه على الصلاح والإصلاح

هذه القاعدة من أهم القواعد؛ فإن القرآن يكاد يكون كله داخلا تحتها؛ فإن الله أمر بالصلاح في آيات متعددة والإصلاح، وأثنى على الصالحين والمصلحين في آيات أخر.

والصلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة مقصودا بها غاياتها الحميدة. فأمر الله بالأعمال الصالحة وأثنى على الصالحين؛ لأن أعمال الخير تصلح القلوب والإيمان، وتصلح الدين والدنيا والآخرة، وضدها فساد هذه الأشياء. وكذلك في آيات متعددة فيها الثناء على المصلحين ما أفسد الناس، والمصلحين بين الناس، والمصالح فيما بين المتنازعين؛ وأخبر على وجه العموم أن الصلح خير.

فإصلاح الأمور الفاسدة السعي في إزالة ما تحتوى عليه من الشرور والضرر العام، والخاص. ومن أهم أنواع الإصلاح السعي في إصلاح أحوال المسلمين في إصلاح دينهم ودنياهم: كما قال شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، فكل ساعٍ في مصلحة دينية أو دنيوية للمسلمين، فإنه مصلح. والله يهديه ويرشده ويسدده. وكل ساعٍ بضد ذلك فهو مفسد، والله لا يصلح عملَ المفسدين.

هل تحفظون آية في الثناء على المصلحين؟ ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، ففي الآية الأولى بيّن الله جزاءهم، وفي الآية الثانية بيّن الله تعالى ما ارتفع عنهم من العذاب بسبب إصلاحهم، ﴿وَمَا كَانَ

رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ، وانتبهوا لهذا الشرط : أهلها مصلحون ، ولم يقل : وأهلها صالحون ، إذن فالصلاح في الأمة بدون إصلاح لا يأمن ارتفاع الهلاك عنهم ، بل لا بد أن يكونوا مصلحين آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر مع صلاح أنفسهم .

ومن أهم ما يكون أيضا : السعي في الصلح بين المتنازعين ، كما أمر الله بذلك في الدماء والأموال والحقوق بين الزوجين . والواجب أن يصلح بالعدل ويَسلك كل طريق توصل إلى الملائمة بين المتنازعين ، فإن آثار الصلح بركة وخير وصلاح ، حتى إن اللّه أمر المسلمين إذا جنح الكفار الحربيون إلى المسالمة والمصالحة أن يوافقوهم على ذلك متوكلين على الله . وأمثلة هذه القاعدة لا تنحصر . وحقيقتها : السعي في الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح أو تكميلها ، أو إزالة المفاسد والمضار أو تقليلها : الكلية منها والجزئية ، المتعدية والقاصرة . والله أعلم .

إذا جنح الكفار إلى المسالمة فقد قال اللّه تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ٦١] ، وهذا في حال ضعف المسلمين ، وأما في حال القدرة والقوة فإن الواجب مقاتلة الكفار حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون أو يسلمون ، فإن أسلموا فلا قتال وإلا دفعوا الجزية ، فإن أبوا وجب علينا قتالهم ، لا تعصبًا لما نحن عليه من الملة ولكن إصلاحًا لهم ؛ لأن غيرهم إذا رأوا أنهم قوتلوا ربما سيكون في ذلك خير ونحن إذا قاتلناهم لا نقول لهم : ادخلوا في ديننا لأنه ديننا ، ولكن نقول : ادخلوا في ديننا لأنه ديننا ودينكم وواجب عليكم أن يكون دينكم ، هذا لأنه دين اللّه وأنتم عباد الله ، فكان هذا الدين واجب علينا وعليكم ، لكن أنتم خرجتم منه ونريد أن نردكم إليه ، ولهذا قال شعيب : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ [الأعراف : ٨٩] ، نبين لهؤلاء الكفار أننا لا نقاتلهم تعصبًا لدين نحن عليه في مقابل دين هم عليه لكنا نقاتلهم ليدخلوا في دينًا هو لنا ولهم مفروض علينا وعليهم ؛ لأنه دين اللّه الذي خلقهم وأمرنا بقتالهم حتى يدخلوا دينًا هو لنا ولهم

مفروض علينا وعليهم؛ لأنه دين الله الذي خلقهم وأمرنا بقتالهم حتى يدخلوا في دين الله أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، والإنسان الحر لا يرضى لنفسه أن يعطي الجزية عن يد وهو صاغر، فيكون في هذا عذاب نفسي يوجب في النهاية أن يسلموا، الخلاصة أن هذه القاعدة فيها إشارة إلى فائدة الصلح وإلى فائدة الإصلاح وأن الإنسان عليه أن يكون صالحًا لنفسه ساعيًا في إصلاح غيره، هذه واحدة، ثانيًا: عليه أن يصلح بين المسلمين ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وهذا خلاف طريق النمام - والعياذ بالله - الذي يسعى بين الناس بالإفساد والفرقة وربما يطلق أشياء لم يكن لها أصل، وأشد من ذلك ما يطلقه بعض الناس - والعياذ بالله - الظلمة الذين هم في الحقيقة من أعداء الإسلام أولئك الذين يوشون بين العلماء بعضهم مع بعض.

كل هذا من الأمور التي هي إفساد وليست إصلاحًا وهؤلاء الذين يوشون بين أهل العلم ويلقون بينهم العداوة والبغضاء والأخذ والرد في أمور يسوغ للمسلمين الخلاف فيها؛ لأنها أمور اجتهادية مبنية على الاجتهاد - هؤلاء في الحقيقة من أعداء المسلمين هم يظنون أنهم مصلحون وهم مفسدون، لماذا؟ لأن إضعاف جانب حملة الشرع هو إضعاف لجانب الشرع، فإذا أضعفنا حملة الشرع وجعلناهم خصماء فيما بينهم فمعنى ذلك أننا أضعفنا الشرع كله، وصار الناس لا يثقون بأحد كلما أراد أحد أن يحتج بقول عالم من علماء المسلمين قال: انظر إلى إشكاله وما اشتد عليه من الكلام، هذا لاشك أنه أمر منكر وأن هذا من وحي الشيطان لهؤلاء الأغرار الذين تعتبرهم صغار العقول وسفهاء الأحلام، فالواجب على المسلمين إذا رأوا تصدعًا منهم ولاسيما فيما بين علمائهم؛ فالواجب عليهم أن يقوموا بالإصلاح ورأب الصدع وجمع الكلمة حتى يكون الناس أمة واحدة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وأنتم أيها الشباب عليكم إذا رأيتم مثل هؤلاء المفسدين أن تحذروا الناس منهم ومن طريقهم وتبينوا أن هؤلاء من أشد الناس ضررًا ليس على الشخص الذي يهاجمونه ولكن على المسلمين وعلى الإسلام، وهم ضل سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا والعياذ بالله، فالواجب علينا أن نصلح ما

استطعنا ، ومع ذلك فإنه يجب علينا أن نقول كلمة الحق . ويمكن إظهار كلمة الحق بأن يقول الإنسان الحق بدون أن يتعرض للطعن في شخص ، هو إذا قال الحق وبينه بأدلته النقلية والعقلية عرف الناس فساد ضده وبقيت الأمور ليس فيها تحزب وليس فيها تكتل وليس فيها أنت مع فلان وأنا مع فلان كما هو حادث في بعض البلاد ، نسأل اللَّه السلامة والعافية .

* * *

القاعدة السادسة والأربعون

ما أمر الله به في كتابه : إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه فهذا أمر له بالدخول فيه . وإما أن يوجه لمن دخل فيه فهذا أمر به ليصحح ما وجد منه ، ويسعى في تكميل ما لم يوجد فيه

إذا وجه الخطاب بشيء إلى شخص لم يقتصر به ، فهذا أمر لفعله وإيتائه مثل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة : ٢١] ، فليس كل الناس عابدين لله ، فيكون الخطاب موجهًا – حتى الكفار يدخلون في هؤلاء – فيكون أمرًا بفعل هذا الشيء ، أما إذا وجه الأمر إلى من تلبس به واتصف به فهذا أمر بتحقيقه وتكميل ما نقص منه كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] ، وما أشبه ذلك ، وهذه القاعدة مهمة ؛ لأنه أحيانًا يجعل الإنسان [يستشكل] كيف يقول اللَّه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ [والجواب] : يكون أمرًا لإتمام ما نقص منه وإكمال ما كان موجودًا منه .

وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية : أصولها وفروعها .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا ﴾ من القسم الأول .

ما هو القسم الأول ؟ الأمر بالدخول فيه .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾ من الثاني والثالث . فإنه أمرهم بما يصحح ويكمل إيمانهم من الأعمال الظاهرة والباطنة ، وكمال الإخلاص فيها . والنهي عما يفسدها وينقصها . وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويصوموا رمضان أمرٌ بتكميل ذلك ، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل . والنهي عن كل مفسد وناقص لذلك العمل ، وكذلك أمره لهم بالتوكل والإنابة ونحوها من أعمال القلوب بتحقيق ذلك ، وإيجاد ما لم يوجد منه .

وبهذه القاعدة نفهم جوابَ الإيراد الذي يُوردُ على طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم . والله قد هداهم للإسلام . جوابه : ما تضمنته هذه القاعدة . ولا يُقال هذا تحصيل حاصل .

فافهم هذا الأصل الجليل النافع ، الذي يفتحُ لك من أبواب العلم كنوزًا ، وهو في غاية اليسر والوضوح .

يعني المؤمن يقول : اهدنا الصراط المستقيم ، وباق عليه التكميل ، وباقٍ عليه الإكمال ، التكميل فيما أنا فاعله ويحتاج إلى تكميل وتحسين وإكمال فيما نقص مني ، فأنت مثلًا تصلي الصلوات ، لكن هل تأتي بالرواتب كلها ؟ قد لا تأتي . تصلي الصلوات ، لكن هل الصلوات كاملة فقد تنصرف من صلاتك ولم يكتب لك منها إلا العشر[1] مثلًا ، فهذه القاعدة كما قال الشيخ رحمه الله قاعدة مهمة جدًا يزول بها إشكال كثير ويستحضر الإنسان بها كيف يدعو الله عز وجل إذا قال : اهدنا الصراط المستقيم .

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٧٩٦) ، والنسائي في الكبرى (٦١١) عن عمار بن ياسر ، وصححه ابن حبان (١٨٨٩) ، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٥٣٥) .

القاعدة السابعة والأربعون

إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها وذلك الحكم لا يختص بها، بل يشملها ويشمل وغيرها: جاء الله بالحكم العام

وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليل على إحكامه وانتظامه العجيب. وأمثلة هذه القاعدة كثيرة.

منها: لما ذكر الله المنافقين وذمهم، واستثنى منهم التائبين فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦]، فلما أراد الله أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرا عظيما، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن، ولئلا يظن اختصاص الحكم بهم.

ولما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠] لم يقل وأعتدنا لهم، للحكمة التي ذكرناها، ومثله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ أي هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها: ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: ٦٤].

وهذه أيضًا تقع كثيرًا في مقام الإظهار في موضع الإضمار، فإن الإظهار أحيانًا يظهر في موضع الضمير ليفيد الحكم بالعموم، فالآيات التي ذكرها المؤلف واضحة، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، لو قال: «وسوف يؤتيهم» لتوهم واهم أن هذا الأجر العظيم لهؤلاء فقط، ولكنه قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، فأظهر في موضع الإضمار وفائدته أن الحكم عام لهم ولغيرهم . وهناك فائدة أخرى أن هذا الأجر ثبت من أجل الإيمان ، فكل مؤمن وإن لم يستطع الإنفاق فإن اللّه تعالى يؤتيه أجرًا عظيمًا . فالمهم أن هذه القاعدة كما قال الشيخ رحمه اللّه قاعدة مهمة جدًّا ، وهي أن اللّه تعالى يحكم بحكم عام يشمل ما سيق الكلام من أجله وما لم يذكر ، وهذا من بدائع القرآن وجمعه وأنه من جوامع الكلم .

* * *

القاعدة الثامنة والأربعون

متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها ، كان المراد بذلك : العلم الذي يترتب عليه الجزاء

وذلك : أنه قد تقرر في الكتاب والسنة والإجماع أن اللّه بكل شيء عليم ، وأن علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي ، والظواهر والبواطن والجليات والخفيات ، والماضي والمستقبل ، وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا الأعمال . وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع كذا أو قدر كذا ؛ ليعلم كذا .

فوجه هذا : أن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء . وأما علمه بأعمال العباد ، وما هم عاملون قبل أن يعملوا . فذلك علم لا يترتب عليه الجزاء ؛ لأنه إنما يجازي على ما وجد من الأعمال وعلى هذا الأصل نَزِّل ما يرد عليك من الآيات كقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة : ٩٤] ، وقوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد : ٢٥] ، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ

الْمُنَافِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ١١] ، وقوله : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ [الكهف : ١٢] ، وما أشبه هذه الآيات ، كلها على هذا الأصل .

نحن نعلم علم اليقين أن الله بكل شيء عليم في المستقبل وفي الماضي وفي الحاضر ، وهذا لا إشكال فيه ، ولكن ترد آيات توجب إشكالاً مثل قوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْـمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، أليس الله قد علم ذلك من قبل ؟ نعم ، و﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [المائدة : ٩٤] قبلُ : ما علم؟ نعم علم، وأمثال ذلك كثير، وهذا يوجب الإشكال على الإنسان فأراد الشيخ رحمه الله أن يبين الجواب ، فقال : إن العلم علمان ؛ علم لا يترتب عليه الجزاء ، وعلم يترتب عليه الجزاء ، فعلم الله تعالى بأن هذا الشيء سيكون هذا لا يترتب عليه الجزاء ، وكيف يترتب جزاء على من لم يؤمر ولم ينه ، وأما قوله : ﴿ لنَعْلَمَ الْـمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ فهذا علم بما يكون ليجازي عليه ، وأما قول بعض أهل العلم : « إلا لنعلم » علم ظهور ، فهذه العبارة فيها نظر ؛ لأن علم الله بالشيء قبل وقوعه علم به ، وهذا الأمر باطل ، لكن إن أراد بعلم الظهور أن تعلق علم الله تعالى بهذا الشيء قبل وقوعه تعلق بأن الشيء سيوجد وتعلق بعد الوجود تعلق بأنه وجد يعني علم الله السابق على الوقوع علم بأنه سيوجد وعلم الله بعد الوقوع علم بأنه وجد ، وهذا صحيح ، وهذا أيضًا فرق ثانٍ بأن الله إذا علق العلم بموجود فهو علم بأنه وجد ، وإذا تعلق علمه بما سيوجد فهو علم بأنه سيوجد لا بأنه وجد ؛ لأنه لو كان علم بأنه وجد صار على خلاف الموجود .

* * *

القاعدة التاسعة والأربعون

إذا منع الله عباده المؤمنين شيئًا تتعلق به إرادتهم، فتح لهم بابًا أنفع لهم منه، وأسهل وأولى

وهذا من لطفه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢] فنهاهم عن التمني الذي ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، وأمرهم أن يسألوه بلسان المقال، وبلسان الحال.

ولما سأل موسى عليه السلام رؤية ربه حين سمع كلامه، ومنعه الله منها سلاه بما أعطاه من الخير العظيم، قال: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠] وفي هذا المعنى آيات كثيرة.

وهذا يعرف الإنسان به فضل الله عز وجل وإحسانه إلى خلقه أنه إذا منعهم من شيء فتح لهم أبوابًا خيرًا منه، فقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني من العلم والمال والجاه والرئاسة وغير ذلك، الله سبحانه وتعالى فضل الناس بعضهم على بعض، فلا تتمنى أن يكون ما أعطاه الله أخاك لك دون أخيك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: ولا تتمنوا مثل ما فضل الله؛ لأن الإنسان يجوز أن يتمنى مثل ما فضل الله به بعض عباده[1]، يجوز أن تتمنى مثل علم ابن تيمية، ويقال: إن رجلًا كان

---

(١) كما جاء في الحديث «لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان ...» أخرجه الترمذي (٢٣٢٥) عن أبي كبشة الأنماري، وقال: حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد (٤/٢٣٠، ٢٣١)، وصحح إسناده ابن كثير في مقدمة تفسيره (١/٦٧).

يطوف بالبيت ويقول : اللهم إني أسألك فقهًا كفقه شيخ الإسلام ونحوًا كنحو ابن هشام . هذا جائز ، ولكن لو قال : اللهم ارزقني فقه شيخ الإسلام ، يعني اجعله لي دونه هذا ما يجوز ، إذن ماذا أقول ؟ أسأل اللَّه من فضله ، قل : اللهم إني أسألك أن تعطيني مثل ما أعطيت هذا الرجل ، اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، فهذا من ألطف القواعد كما قال الشيخ رحمه اللَّه ، كذلك أيضًا : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ ربما يندم الإنسان على نسخ اللَّه تعالى بعض الأحكام أو بعض الآيات أو يندم على تنسيته إياها ، ننسها أي من النسيان ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأعلى : ٦، ٧] ، إذا ندم الإنسان نقول : لا تندم يا أخي ، إن اللَّه إذا نسخ آية أو أنساها أتى بخير منها أو مثلها ، وبدأ بالخيرية من قبل ، قال : ﴿ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ، إذن ما الفائدة من النسخ ، إذا كانت الآية الثانية مثل الأولى ؟ الفائدة : اختبار العبد هل يكون قابلًا راضيًا أو لا ، وانظر إلى نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، العمل واحد والاتجاه واحد إذا بقي مشروعًا وكان من الممكن أن يتجه إلى الشمال أو الجنوب ، لكن الفائدة هو امتحان الناس ، ولهذا قال اللَّه عز وجل : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ ، فإن بعض الناس إذا رأى النسخ – والعياذ بالله – ارتد قال : كيف هذا ، الشرع يُبَدِّل اليوم كذا وغدًا كذا ، ما يصلح ! فالحاصل أني أقول : إن اللَّه سبحانه وتعالى إذا منع العباد شيئًا فتح لهم أبوابًا كثيرة مثله أو خيرًا منه ، وعلى هذا نقول : من ترك شيئًا لله عوضه اللَّه خيرًا منه ، بل أيضًا قصة موسى عليه السلام لما كلمه اللَّه اشتاق إلى ربه أن يراه ؛ لأن رؤية المتكلم ليست كسماع كلامه ، ولهذا كان الصحابة إذا خطبهم النبي ﷺ استقبلوه بوجوههم حتى يروه[1] ، لو حدثك

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١١٣٦) عن عدي بن ثابت عن أبيه ، قال البوصيري في الزوائد : رجال إسناده ثقات ، إلا أنه مرسل ، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري « أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله » البخاري (٩٢١) ، ومسلم (١٠٥٢/١٢٣) ، قال الحافظ معلقًا : ووجه الدلالة أن جلوسهم حوله لسماع كلامه يقتضي نظرهم إليه غالبًا . وقال البخاري : واستقبل ابن عمر وأنس رضي اللَّه عنهم الإمام . قال الحافظ : أما ابن عمر فرواه البيهقي (٣/١٩٩) ، وأما أنس فرويناه في نسخة نعيم بن حماد بإسناد صحيح ، ورواه ابن المنذر في الأوسط (٤/٧٤) وقال : لا أعلم في ذلك خلافًا بين العلماء . الفتح ٢/٤٠٢ .

أحد بحديث من وراء الجدار قد تسمع قوله ، ليس كما تراه ، أنت الآن تسمع في المسجل كلام الرجل بنفسه، لكن ليس هو كحضورك عنده وهو يتكلم، فبينهما فرق عظيم، فموسى عليه السلام لما سمع كلام اللّٰه اشتاق إلى رؤية اللّٰه عز وجل ، فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ قال اللّٰه تعالى : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ ، مستحيل ، هذا لأن نقص الإنسان في الدنيا لا يمكن أن يتحمل رؤية اللّٰه عز وجل ، ثم ضرب اللّٰه له مثلًا وقال : ﴿ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ ، فتجلى اللّٰه عز وجل للجبل فاندك الجبل، جبل أصم حجر صلب لما تجلى اللّٰه له ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ اندك الجبل وصار ترابًا ، لما رأى موسى هذا الأمر خر صعقًا ، ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فما سألتك الرؤية عن شك ، ولكن شوق ، ثم قال اللّٰه له : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ ، ولا تأخذ ما لم تؤت ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، هنا سلي عن الرؤية بقوله : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] ، يعني لا تهنوا وتضعفوا في طلب الكفار – ونحن نتعب تتألم أجسامنا بالجراح والقتل وغير ذلك – لأن هذا الذي يصيبكم يصيبهم قطعًا هم مثلكم بشر ، لكن الفارق : ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ ، وهذا لا شك أنه يسلي المرء ويوجب له النشاط في تدبير الأمر .

* * *

القاعدة الخمسون

آيات الرسول : هي التي يبديها الباري ويبتديها

وأما ما أبداه المكذبون له واقترحوه ، فليست آيات . وإنما هي تعنتات وتعجيزات .

وبهذا يُعرف الفرق بينها وبين الآيات . وهي البراهين والأدلة على صدق

الرسول وغيره من الرسل، وعلى صدق كل خبر أخبر اللَّه به، وأنها الأدلة والبراهين التي يَلزمُ مِنْ فهمها على وجهها صدقُ ما دلت عليه ويقينه.

وبهذا المعنى «ما أرسل اللَّه من رسول إلا أعطاه من الآيات ما على مثله آمن البشر»[1]، وأما ما آتى اللَّه محمدًا ﷺ من الآيات فهي لا تُحد ولا تعد من كثرتها، وقوتها ووضوحها. ولله الحمد. فلم يبق لأحد من الناس بعدها عذر.

فعلم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعينونها ليست من هذا القبيل وإنما مقصودهم بهذا أنهم وطّنوا أنفسهم على دينهم الباطل وعدم اتباع النبي ﷺ فلما دعاهم إلى الإيمان وأراهم شواهدَ الآيات أرادوا أَنْ يُبرروا ما هم عليه عند الأغمار والسفهاء، بقولهم: ائتنا بالآية الفلانية والآية الفلانية إن كنت صادقًا، وإن لم تأت بذلك فإننا لا نصدقك. فهذه طريقة لا يرتضيها أيٌّ منصف. ولهذا يخبر تعالى أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا لم يؤمنوا لأنهم وطنوا أنفسهم على الرضا بدينهم وعرفوا الحق ورفضوه.

وأيضا فهذا من جهلهم في الحال والمآل.

أما الحال فإن هذه الآيات التي تقترح وتعين جرت العادة أن المقترحين لها لم يكن قصدهم الحق. فإذا جاءت ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقوبة الحاضرة.

وأما المآل: فإنهم جزموا جزمًا لا تردد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدقوا. وهذا قلب للحقائق، وإخبار بغير الذي في قلوبهم. فلو جاءتهم لم يؤمنوا إلا أن يشاء اللَّه تعالى.

وهذا النوع ذكره اللَّه في كتابه عن المكذبين في آيات كثيرة جدًا كقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] الآيات.

---

(١) هو بمعناه في الصحيحين: البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢/٢٣٩) عن أبي هريرة بلفظ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ...» الحديث.

قوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٤] إلخ الآيات ، فبين الله عز وجل أنهم لن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [يونس : ٩٦ - ٩٧] ، وبهذا نعرف مراد المؤلف في كتابه في أول القاعدة ، حيث قال : إن آيات الرسول هي التي يبديها الباري ويبتديها ، وأما ما أبداه المكذبون واقترحوه فليست بآية . مراده أن عدم وجودها لا يدل على عدم آيات الأنبياء - هذا المعنى - وإلا لو اقترحوا آية وجاء بها الرسول لقلنا إنها آية ، لكن مراده أن الآيات التي اقترحوها إذا لم تأت لا تدل على أن الرسول ليس بحق ، أما لو اقترحوا آية وجاء بها فإنها لاشك أنها آية ، وكلام المؤلف رحمه الله يريد به الأمر المخالف ، فالآيات التي جاءت بها الرسل ابتداءً واضحة أنها آيات ، والآيات التي اقترحت عليهم ؛ تخلفها لا يعني أنهم غير صادقين ، لكن إذا وجدت فهي دليل على صدقهم أيضًا .

وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ [الأنعام : ١١١] إلى آخرها .

وأيضًا إذا تدبرت الاقتراحات التي عينوها لم تجدها في الحقيقة من جنس البراهين ، وإنما هي - لو فرض الإتيان - تكون شبيهة بآيات الاضطرار التي لا ينفع الإيمان معها ، ويصير شهادة ، وإنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب .

هذا شرط مهم جدًّا ؛ لأنه لو جاء بالآيات التي اقترحوها صار إيمانهم مثل إيماننا بالغيب ، بل هو إيمان بالمشاهدة والواقع وحينئذ لا ينفعهم ، ولهذا الغالب أنه إذا أتت الرسل بالآيات المقترحة ولم يؤمن المختلفون - الغالب أنهم يهلكون ؛ لأن العذاب يكون مقارن لها ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ

النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء : ٥٩] ، فالحاصل أن الآيات المقترحة إذا جاءت موافقة لما اقترحوه صار هذا الإيمان بالرسول ليس هو إيمانًا بالغيب ، [ولكن] إيمان بماذا ؟ بالمشاهدة ؛ لأن هذا مثل الأمارة التي يقولها الإنسان لشخص مثل أن أقول إذا وجدت السيارة عند الباب فأنا في البيت ، فإذا وجد السيارة عند الباب علم بأنه بالبيت ، هذا إيمان مشاهدة أم غيب ؟ مشاهدة .

فكما أنه منفرد بالحكم بين العباد في أديانهم ، وحقوقهم . وأنه لا حكم إلا حكمه ، وأنه من قال ينبغي أو يجب أن يكون الحكم كذا وكذا فهو متجرئ على الله ، متوثب على حرمات الله ، وأحكامه . فكذلك براهينُ أحكامه لا يتولاها إلا هو . فمن اقترحَ شيئًا من عنده فقد ادَّعى مشاركةَ اللَّه في حكمه ، ومنازعته في الطرق التي يهدي ويرشد بها عباده ، وَمَن أظلم ممن قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ؟!

هذه أيضًا مهمة جدًّا ، الإنسان إذا اقترح سبيلًا غير سبيل اللَّه أو حكمًا غير حكم اللَّه أو ما أشبه ذلك فإنه منازع لله تعالى في حكمه وفي طريق هدايته لخلقه ، لو قال مثلًا : ينبغي أن يوزع الصوم على كل شهر ثلاثة أيام ويكون ستًا وثلاثين يومًا بعد أن كان ثلاثين يومًا ، لو كان هكذا لكان أيسر على الناس وأسهل وأكثر . نقول : إذا قلت ذلك فقد نازعت اللَّه تعالى في شرعه وظلمت نفسك ، فإن اللَّه تعالى أحكم وأعلم بما يصلح عباده ، كذلك الذي يقترح آية على الرسل [ولم يأتوا بها ، فقال] : إنكم لم تأتوا بالآية الفلانية التي اقترحناها ، وهذا فيه جرأة على اللَّه تعالى (معلومة) . والحاصل أننا يجب علينا أن نؤمن بالآيات التي جاءت بها الرسل ، سواء كانت موافقة لما اقترح عليهم أم جاءت ابتداءً لم تقترح ونقول : إن الآية حقيقة هي التي جاءت ابتداءً ، أما ما جاءت جوابًا لاقتراح فهي في الحقيقة - كما قال الشيخ - كالإيمان بالشهادة وليست كالإيمان بالغيب .

* * *

القاعدة الحادية والخمسون

كلما ورد في القرآن الأمر بالدعاء، والنهي عن دعاء غير الله والثناء على الداعين: تناول دعاء المسألة ودعاء العبادة

وهذه قاعدة نافعة فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة: دعاء المسألة فقط، ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء.

ويدل على عموم ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] أي استجب طلبكم، وأتقبل عملكم.

أفادنا المؤلف رحمه الله تعالى في هذه القاعدة أنَّ الدعاء سواءً كان أمرًا أو نهيًا أو ثناء يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، فقولك: «اللهم اغفر لي» دعاء مسألة، وصلاتك ليغفر الله لك دعاء عبادة، وكما قال الشيخ رحمه الله: أكثر الناس يظنون أنَّ الدعاء إنما هو دعاء المسألة والأمر ليس كذلك، بل هو شامل لدعاء المسألة ودعاء العبادة؛ لأن العابد حقيقة أمرة وحاله أنه يدعو الله لكن بلسان الحال، لأنك لو سألت أي إنسان يصلي أو يصوم أو يزكي أو يحج: ماذا تريد؟ لقال: أريد مغفرة الله، إذن هو قد سأل الله بحاله. وهذا وجه كون العبادة دعاء.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فسمى ذلك عبادة. وذلك لأن الداعي دعاء المسألة يطلب مسئوله بلسان المقال، والعابد يطلب من ربه القبول والثواب، ومغفرة ذنوبه بلسان الحال.

فلو سألته ما قصدت بصلاتك وعبادتك وحجك وقيامك بحق الله وحق الخلق؟ لكان قلب المؤمن ناطقا بأن قصدي من ذلك رضى ربي، ونيل ثوابه، والسلامة من عقابه، ولهذا كانت هذه النية شرطا لصحة الأعمال وكمالها.

وقال تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [غافر : ٦٥] أي أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم ، وأخلصوا له أعمال البر والطاعة .

وقد يقيَّدُ أحيانا بدعاء الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [القمر : ١٠] ، وأما قوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ الآية [يونس : ١٢] فيدخل فيه دعاء الطلب ، فإنه لا يزال ملحًّا بلسانه ، سائلاً دفع ضرورته . ويدخل فيه دعاء العبادة ، فإن قلبه في هذه الحال يكون راجيًا طامعًا ، منقطعًا عن غير الله ، عالـمًا أنه لا يكشف السوء إلا الله . وهذا دعاء عبادة .

وقال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : ٥٥] يدخل فيه الأمران . فكما أن من كمال دعاء الطلب : كثرة التضرع والإلحاح ، وإظهار الفقر والمسكنة ، وإخفاؤه ذلك وإخلاصه ، فكذلك دعاء العبادة لا تتم ولا تكمل إلا بالمداومة عليها ومقارنة الخشوع والخضوع وإخفاؤه ، وإخلاصها لله تعالى .

وكذلك قوله عن خلاصة الرسل : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ، فإن الرغبة والرهبة وصفٌ لهم إذا طلبوا وسألوا ، ووصف لهم إذا تعبدوا وتقربوا بأعمال الخير والقُرَبِ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ [القصص: ٨٨] ، ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ، ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨] يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة .

فكما أن من طلب من غير اللّٰه حاجة لا يقدرُ عليها إلا اللّٰه فهو مشرك كافر . فكذلك من عَبدَ مع اللّٰه غيره فهو مشركٌ كافر .

من طلب من غير اللّٰه حاجة يقدر عليها المطلوب فإن ذلك ليس بشرك ، لو قلت للرجل : أعني على حمل متاعي إلى سيارتي . لم يكن هذا شركًا ، لكن لو قلت لرجل :

ارزقني ولدًا ذكرًا . صار ذلك شركًا ووجهه واضح ؛ لأنه سأل ما لا يقدر عليه إلا الله من غير الله ، فكذلك فهو مثل مَنْ عبد غير الله ؛ لأن العبادة لا تصلح إلا لله ، والدعاء بما لا يقدر عليه إلا الله لا يصلح إلا لله عز وجل ، إذن من طلب من مخلوق ما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر ، كما أن من عبد غير الله فهو مشرك كافر ، ومن طلب من مخلوق ما يقدر عليه فهو غير مشرك ، ولكنه من باب الجائز ، وليس من باب الكمال ، فالكمال ألا تسأل مخلوقًا شيئًا ، وكان من جملة ما بايع عليه النبي ﷺ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئًا ، فكان الرجل يسقط عصاه من بعيره فينزل هو بنفسه ويأخذ العصا ويركب[1] .

ومثله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس : ١٠٦] كل هذا يدخل فيه الأمران .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة ، أما دعاء المسألة فإنه يسأل الله تعالى في كل مطلوب باسم يناسب ذلك المطلوب ويقتضيه ، فمن سأل رحمة الله ومغفرته دعاه باسم الغفور الرحيم ، وحصول الرزق باسم الرزاق . وهكذا .

إذن قوله : ادعوه بها ، أي اجعلوها وسيلة لحصول مطلوبك ووسيلة الشيء تناسبه ، فعندما تسأله المغفرة تأتي باسم الغفور تقول : يا غفور ، أو تقول : اللهم اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم ، وعندما تسأل الرزق تقول : اللهم يا رزاق ارزقني ، أو تقول : اللهم ارزقني فإنك الرزاق ذو القوة المتين ، ولا ينبغي أن تقول : اللهم يا شديد العقاب اغفر لي ، لأن هذا غير مناسب ، كيف تسأل المغفرة باسم يقتضي العقوبة ، هذا يتنافى مع الآداب .

وأما دعاء العبادة فهو التعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، فيفهم أولًا معنى ذلك الاسم الكريم ، ثم يُديمُ استحضاره بقلبه ، ويمتلئ قلبه منه ، فالأسماء الدالة على العظمة والجلال والكبرياء تملأ القلب تعظيمًا وإجلالًا لله تعالى . والأسماء

(١) في هذا المعنى عدة أحاديث ؛ منها ما أخرجه مسلم (١٠٤٣/١٠٨) عن عوف بن مالك .

الدالة على الرحمة والفضل والإحسان تملأُ القلبَ طمعًا في فضل اللَّه ورجاءً لِرَوْحِه ورحمته . والأسماءُ الدالةُ على الوداد والحب والكمال تملأُ القلب محبة وودًّا وتألهًا وإنابة لله تعالى . والأسماء الدالة على سعة علمه ولطيف خبره توجبُ للعبد مراقبة اللَّه تعالى والحياءَ منه .

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكملُ الأحوال ، وأجلُّ وصف يتصف به القلب ، وينصبغُ به ولا يزالُ العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذبَ دواعيه منقادة راغبة . وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية .

فنسأل اللَّه تعالى أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه ، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين .

الدعاء الموجود في القرآن يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة ما لم يقيد بدعاء المسألة فيكون مسألة مثل قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ ، هذا واضح أن هذا دعاء المسألة ، وإلا فالأصل أنه يشمل هذا وهذا ، وقد بين المؤلف رحمه اللَّه كيفية دعاء اللَّه تعالى بأسمائه الحسنى وأنه يدعو بها في دعاء المسألة ودعاء العبادة .

* * *

القاعدة الثانية والخمسون

إذا وضح الحق وبان لم يبق للمعارضة العلمية ولا العملية محل

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية ، قد وردت في القرآن وأرشد إليها في مواضعَ كثيرة .

وذلك : أنه من المعلوم أنَّ محلَّ المعارضات ، وموضع الاستشكالات ،

وموضع التوقفات، ووقت المشاورات إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات فترد عليه هذه الأمور؛ لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح. فأما إذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنى واحدًا واضحًا، وقد تعيّنت المصلحة، فالمجادلة والمعارضة من باب العبث، والمعارضُ هنا لا يُلتفت لاعتراضاته؛ لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، يعني: وإذا تبين هذا من هذا لم يبق للإكراه محل؛ لأن الإكراه إنما يكون على أمر فيه مصلحة خفية، فأما أمر قد اتضح أن مصالح الدارين مربوطة ومتعلقة به، فأيُّ داعٍ للإكراه وأي موجب له؟

إذن فقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ خبر على ذلك وليس نهيًا، ليس المعنى: لا تكرهوا على الدين، بل المعنى أنه لا محل للإكراه في الدين، لماذا؟ لأنه قد تبين الرشد من الغي، وإذا تبين فإن الإنسان لا يكره؛ لأن كل عاقل تبين له الرشد من الغي، فإنه سيتبع الرشد فلا يكره عليه، هذا هو المعنى الذي يتبادر من الآية الكريمة كما شرحه الشيخ رحمه الله، وإن كان بعض العلماء يقول: إن قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ﴾ أي: لا تكرهوا أحدًا على الدين؛ لأنه لا يكره أحد على دين الله، فإما أن يدين لله عز وجل، وإما أن يدين للطاغوت ويؤدي الجزية، لكن الآية كغيرها من الآيات لا يحمل الخبر على النهي إلا بدليل، وإلا فإن الأصل أن يبقى الكلام على ظاهره: النفي للنفي والنهي للنهي، فإذا كان الأمر واضحًا، فلا ينبغي أن يحول الكلام عن ظاهره.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أي هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة على حقّيته فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، كقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [الأنفال: ١٥٩] أي في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة، ويُطلب فيها وجه المصلحة، فأما أمرٌ قد تعيّنت مصلحته، وظهر وجوبه فقال فيه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد كشف اللّٰه هذا المعنى غاية الكشف في قوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦] أي فكل من حاول في الحق بعد ما تبين علمه أو طريق عمله، فإنه غالطٌ شرعًا وعقلًا، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩]، فَلَامَهُم على عدم التزام الأكل مما ذكر اسم اللّٰه عليه، وذكر السبب لهذا اللوم، وهو أنه تعالى فصَّل لعباده كل ما حرم عليه فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح ليس للتوقف عنه محل.

قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، دليل على أن ما سكت عنه ليس بحرام، ودليل على أن المحرمات مفصلات مبينات، فإذا كان مُبينًا ولم يكن مما ذكر اسم اللّٰه عليه فإنما ذكر اسم اللّٰه عليه يكون حلالًا وعلى هذا فنقول: الأصل فيما سُكت عنه الحِلّ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «وما سكت عنه فهو عفو»[(١)].

ولما ذكر تعالى الآيات الدالةَ على وجوب الإيمان، وبخ ولام المتوقفين عنه بعد البيان، فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠، ٢١].

ولما بين جلالة القرآن وأنه أعلى الكلام وأصدقه وأنفعه، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، ولما ذكر عِظَمَ نعمه الظاهرة والباطنة قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم: ٥٥] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] وكذلك في آيات كثيرة يأمر بمجادلة المكذبين، ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتى إذا وصل معهم إلى حالة وضوح الحق التام وإزالة الشُّبَهِ كلها انتقل من

---

(١) أخرجه الترمذي (١٧٢٦)، وابن ماجه (٣٣٦٧) عن سلمان، وله شاهد موقوف من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود (٣٨٠٠)، وصححه الحاكم (١١٥/٤). وانظر جامع العلوم (ح ٣٠).

مجادلتهم إلى الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة . والآياتُ في هذا المعنى الجليل كثيرةٌ جدًّا .

القاعدة هذه تدور إلى أنه متى اتضح الشيء سواء كان حكمًا عمليًا أو كان خبر علميًا فإنه لا وجه للمجادلة فيه لأنه واضح ، وإنما يجادل ويستثبت ويُسأل عن الأمر المشكل الذي يحتاج إلى بيان ، فأما ما كان بيِّنًا واضحًا فإنه لا تجوز المجادلة فيه وينكر على مَنْ جادل ويُذم كما في الآيات التي ساقها المؤلف رحمه الله ، وعليه فكل مَنْ جادل في دين الله فقد جادل بغير حق ؛ لأن الدين واضح بيِّن قد بيّن الله تعالى الرشد من الغيّ وفرق بين الحق والباطل وفرق سبحانه وتعالى بين أولياء الله وأعداء الله ، فلا يمكن بعد هذا أن يقع جدال أو إشكال .

* * *

القاعدة الثالثة والخمسون

من قواعد القرآن : أنَّه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادة ، ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منته وإحسانه ، وأنها لا تنقص من الأجر شيئًا

وهذه القاعدة تبين من لطف اللَّه وإحسانه بالعباد ، وحكمته الواسعة ما هو أثر عظيم من آثار تعريفاته ونفحة عظيمة من نفحاته ، وأنه أرحم الراحمين ، قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، فبين تعالى أن هذه العبادة العظيمة لعظم مصلحتها وكثرة فوائدها العامة والخاصة أنه فرضها على العباد وإن شقت عليهم وكرهتها نفوسهم لما فيها من

التعرض للأخطار وتلف النفوس والأموال، لكن هذه المشقات بالنسبة إلى ما تفضي إليه من الكرامات ليست بشر بل هي خير محض وإحسان صرف من اللَّه على عباده، حيث قيض لهم هذه العبادات التي توصلهم إلى منازل لولاها لم يكونوا واصليها، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥، ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، فكلما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات، وفي ترك المحرمات لقوة الداعي إليها، وفي الصبر على المصيبات، كان الأجر أعظم والثواب أكبر.

وقال تعالى في بيان لطفه في تسهيل العبادة الشاقة: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١١، ١٢]، فذكر منته على المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التي جعلها اللَّه تعالى مُسهلة للعبادة، مزيلة لمشقتها، محصلة لثمراتها، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٣]، فالبشرى التي وعد اللَّه بها أولياءه في الحياة الدنيا من أشرفها وأجلها: أنه يسر لهم العبادات، وهون عليهم مشقة القربات، وأن ييسرهم للخير، ويعصمهم من الشر بأيسر عمل، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥- ٧] أي لكل حالة فيها تيسير أموره وتسهيلها، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]،

ومن الحياة الطيبة التي يرزقونها : ذوق حلاوة الطاعات واستحلاء المشقات في رضى الله تعالى .

فهذه الأحوال كلها خير للمؤمن ، إن سهل الله له طريق العبادة وهونها حمد الله وشكره ، وإن شقت على النفوس صبر واحتسب الخير في عنائه ومشقته ورجا عظيم الثواب ، وهذا المعنى في القرآن في آيات متعددة . والله أعلم .

خلاصة هذه القاعدة أن الأجر على قدر المشقة ، وقد دل عليها قوله ﷺ لعائشة : « إن أجرك على قدر نصبك »[(١)] أي مشقتك ، وفيها أيضًا بيان المنة على العباد بتسهيل الطاعات وأن تسهيل الطاعات من آثار رحمته ، وعجبًا لبعض الناس أن يسلكوا بأنفسهم مسلك الصعوبة والتعسير في أمور العبادة ، وهذا تبرأ منه النبي عليه الصلاة والسلام ، فإن قومًا في عهد الرسول ﷺ اجتمعوا واتفقوا على أن بعضهم يصوم ولا يفطر ، والآخر يقوم ولا ينام ، والثالث لا يتزوج النساء ، والرابع لا يأكل اللحم ، فخطب النبي عليه الصلاة والسلام وأخبرهم بأنه ﷺ يصوم ويفطر ، ويقوم وينام ، ويتزوج النساء ، وأن من رغب عن سنته فليس منه[(٢)] . فالذين يسلكون طرق التعسير مع وجود التيسير أخطأوا على أنفسهم ، لو أن رجلًا قال : أنا لا أريد أن أركب سيارة فيها مكيف وأركب سيارة ليس فيها مُكيف وقديمة ، أين الأحسن ؟ الأول أحسن ، وهي من نعمة الله على الإنسان ، أما أن يذهب ويتعب نفسه فهذا خطأ ، نعم إذا كانت العبادة لا يمكن أن تأتي بها إلا بمشقة هذا شيء آخر ، أما أن يكون أمامك طريقان سهل وصعب وتذهب إلى الصعب ، فهذا ليس من شريعة الله ، ويقول العامة - أول ما ظهرت السيارات - إن الحج على الإبل أجره كامل وعلى السيارات نصف الأجر وعلى الطيارات ربع الأجر ، هذا غير صحيح ، بل نقول : إن

---

(١) متفق عليه : البخاري (١٧٨٧) ، ومسلم (١٢١٦/١٢٦) عن عائشة . وانظر فتح الباري (٣/٦١١) .
(٢) أخرجه مسلم (١٤٠١/٥) عن أنس ، وهو في البخاري (٥٠٦٣) بدون ذكر « اللحم » . وانظر فتح الباري (٩/١٠٤) .

هذا من نعمة اللّه على العبد ، صحيح أن الرسول ﷺ نهى عن كثرة الإرفاه ، يعني لا ينبغي للإنسان أن ينغمس في الترفه حتى ينسى الخشونة ، وكان ينهى عن كثرة الإرفاه ويأمر بالاحتفاء أحيانًا(١) ، يعني ينبغي لنا أحيانًا أن نمشي حفاة ، حتى لو أن الناس شَهَّرُوا بنا .

* * *

القاعدة الرابعة والخمسون

كثيرًا ما ينفي اللّه الشيء لعدم وجود فائدته وثمرته المقصودة منه ، وإن كانت صورته موجودة

وذلك أن اللّه خلق الإنسان وركب فيه القوى : من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ليعرف ربه ، ويقوم بحقه ، فهذا المقصودُ منها ، وبوجود ما خلقت له تكمل ويكمل صاحبُها ، وبفقد ذلك يكون وجودها أضرّ على الإنسان من فقدها ، فإنها حجة اللّه على عباده ونعمته التي توجد بها مصالح الدين والدنيا ، فإما أن تكون نعمة تامة إذا اقترن بها مقصودها ، أو تكون مِحْنة وحجة على صاحبها إذا استعملها في غير ما خُلقت له . ولهذا كثيرًا ما ينفي اللّه تعالى هذه الأمور الثلاثة عن أصناف الكافرين ، كقوله : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٧١] ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت : ٦٣] ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام : ٢٧ وغيرها] ، وقال تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، فأخبر أن صورها موجودة ولكن فوائدها مفقودة ، وقال تعالى : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ

---

(١) صحيح . أخرجه أبو داود (٤١٦٠) ، وأحمد (٢٢/٦) عن فضالة بن عبيد ، وأخرجه النسائي مختصرًا (١٨٥/٨) ، وانظر شعب الإيمان للبيهقي (٦٤٦٩) .

الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠ - ٨١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، فأثبت لهم الكفر من كل وجه، فلم يكن دعواهم الإيمان ببعض ما يقولون آمنا به من الكتب والرسل بموجب لهم الدخول في الإيمان؛ لأن إيمانهم بهم مفقودة فائدته، حيث كذبوهم في رسالة محمد ﷺ وغيره من الرسل الذين لم يؤمنوا بهم، وحيث أنكروا من براهين الإيمان أعظم من الطريق الذي أثبتوا به رسالة من ادعوا الإيمان به، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] لما كان الإيمان النافع هو الذي يتفق عليه القلب واللسان وهو المثمر لكل خير، وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، نفى عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته.

ويشبه هذا: ترتيب الباري كثيرًا من الواجبات والفروض على الإيمان كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ - إلى قوله - إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]، وذلك أن الإيمان الواجب يقتضي أداء الفرائض والواجبات ويقتضي اجتناب

المحرمات، فما لم يحصل ذلك فهو إلى الآن لم يتم ولم يتحقق، فإذا وجدت هذه الأمور تحقق، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتبه ورسله، قال تعالى عن أهلِ الكتاب المنحرفين: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، ونظير ذلك قول موسى عليه السلام لما قال له بنو إسرائيل: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، فكما أن فقد العلم جهل ففقد العمل به جهل قبيح.

خلاصة هذه القاعدة أن اللّه تعالى قد ينفي الشيء لانتفاء ثمرته وفائدته، وهذا واقع في الكتاب والسنة، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، وقال عز وجل في آيات كثيرة: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، وما أشبه ذلك، وهم عندهم علم وعندهم عقل، لكن لمّا لم ينتفعوا بهذا صار وجودهم كعدمه، وقال النبي ﷺ: «لا صلاة بحضرة طعام»[1]، مع أن الصلاة توجب ولو بحضرة الطعام، لكن نفاها لانتفاء ثمرتها وفائدتها؛ لأن من يدافع الأخبثين أو يحضره طعام يشتاق إليه فإنه سوف يصلي وقلبه معلق بهذا الشيء انشغل بالمدافعة فتكون صلاته كأنها لا صلاة، إذن من هذه القاعدة نأخذ أن الشيء قد ينفى بالانتفاء حقيقة، وهذا هو الأصل، وقد ينفى لانتفاء ثمرته وفائدته، وهذا كثير، وإن كان خلاف الأصل، لكن ما لا ينتفع به فوجوده كالعدم، بل إن وجوده أذى فإن من لا يسمع إطلاقًا خير ممن يسمع ولا ينتفع بلاشك، وإذا قال قائل: كيف يقول اللّه لهؤلاء الأذكياء: بل أكثرهم لا يعقلون، وما أشبه ذلك، نقول: لأنهم لم ينتفعوا بهذا العقل فصار موجود كأنه معدوم.

* * *

(١) أخرجه مسلم (٥٦٠/٦٧) عن عائشة.

القاعدة الخامسة والخمسون

يُكتب للعبد عمله الذي باشره ويكمل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله، ويكتب له ما نشأ عن عمله

فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن.

ثلاثة أمور: يكتب للعبد عمله الذي باشره، وهذا واضح: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ويُكمَّلُ له ما شرع فيه ولم يكمله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، والثالث يكتب له ما نشأ من عمله: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[(١)]، ويكتب له ما تركه لعذر وكان يعمله وهو موضع رابع مثل: «من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمله صحيحًا مقيمًا»[(٢)]. فهذه أربعة أمور كلها تكتب للإنسان، أما النية - مجرد النية - فإنه يكتب للإنسان إذا تمنى العمل الصالح ولم يقدر عليه، ومن ذلك ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام حين قسم الناس إلى أقسام: «منهم من آتاه الله مالاً فهو ينفقه في طاعة الله وقال الآخر الذي لم يؤت المال: لو أني لي مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان، قال النبي عليه الصلاة والسلام: فهما بالأجر سواء»[(٣)] بالنية لا بالعمل؛ لأنه لم يعمل وليس من عادته أن يعمله، فلو كان من عادته أن يعمله لكتب له ما كان يعمل إذا تركه لعذر، نقول: أليس قد قال النبي ﷺ: «إن في المدينة لأقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا وهم معكم». قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة، قال: حبسهم العذر»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٦) عن أبي موسى.

(٣) أخرجه الترمذي، وتقدم (ص ١٥٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٣٩) عن أنس.

فهذا يقتضي أنهم شاركوهم في أجر العمل ، الجواب أن يحمل هذا على من كان عادتهم الخروج في الجهاد في سبيل الله ، ولكن عذروا حبسهم العذر ، وهؤلاء يؤتون أجرهم كاملًا أو يقال ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا وإلا وهم معكم » . يعني بنيتهم فيكون لهم أجر النية لا أجر العمل ، فصارت الأقسام أربعة أو خمسة : من عمل عملًا كتب له أجر ، من شرع فيه فلم يكملهِ كتب له أجر ، ما نشأ من عمله وإن لم يكن على باله من الفعل كتب له أجر ، ما كان يفعله وتركه لعذر كتب له أجر ، ما تمناه ولم يقدر عليه كتب له أجر ، ولكن أجر النية فقط لا أجر العمل والدليل على أنه أجر النية فقط أن الفقراء لما جاءوا إلى النبي ﷺ يشكون : قالوا : يا رسول الله ، سبق أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق . فأخبرهم بأن يسبحوا ويحمدوا ويكبروا ثلاثًا وثلاثين دبر كل صلاة وأنهم بذلك يدركون من سبقهم ولا يكون أحدًا أفضل منهم ، فلما رأوهم عملوا مثلهم ، فجاء الفقراء فقالوا : يا رسول الله ، صنعوا كما نصنع ، فقال لهم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[(١)] . ولم يقل لهم أجرهم بنيتهم ، فهذا دليل على ما ذكرناه بأن من تمنى العمل وليس من عادته فعله ولا يستطيع فعله فإنه يكتب له أجره بالنية .

أما الأعمال التي باشرها العبد : فأكثر من أن تحصى النصوص الدالة عليها ، كقوله : ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان : ١٥] ، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس : ٤١] ، ونحو ذلك .

وأما الأعمال التي شرع العبد فيها ولمّا يكملها ، فقد دل عليها قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء : ١٠٠] ، فهذا خرج للهجرة ، وأدركه الأجل قبل تكميل عمله ، فأخبر تعالى أنه وقع أجره على الله ، فكل من شرع في عمل من أعمال الخير ، ثم عجز عن إتمامه بموت أو عجز بدني أو عجز مالي أو مانع داخلي أو

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة : البخاري (٨٤٣) ، ومسلم (٥٩٥) واللفظ له .

خارجي ، وكان من نيته لولا المانع لأتمه ، فقد وقع أجره على الله ، فإنما الأعمال بالنيات [(١)] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريقَ الموصلةَ إليه ، سواءٌ كَمُلَ ذلك العمل أو حصل له عائق عنه .

وأما آثار أعمال العبد ؛ فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أي : باشروا عمله ، ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ [يس : ١٢] التي ترتبت على أعمالهم من خير وشر .

ويدل على هذا : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » [(٢)] ، والعكس سيئة ، فالإنسان يكتب له آثار عمله قصده أو لم يقصده غرس غرسًا فانتفع به من لم يخطر بباله أن ينتفع به فيؤجر على ذلك [(٣)] ، وإن كان لم يكن في باله حيث غرسه أو زرع الزرع ، لكن هذا نشأ من عمل .

وقال في المجاهدين : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٠] ، فكل هذه الأمور من آثار عملهم . ثمَّ ذكر أعمالهم التي باشروها بقوله : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٢١] .

والأعمال التي هي من آثار عمله نوعان :

أحدهما : أن تقع بغير قصدٍ من الإنسان ، كأن يعمل أعمالًا صالحة

---

(١) متفق عليه من حديث عمر : البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧/٧٠) عن جرير .

(٣) مثل ما جاء في الصحيحين : البخاري (٢٣٢٠) ، ومسلم (١٥٥٣) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » .

خيرية، فيقيدي به غيرُه في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله، وكمن يتزوجُ بغير نية حصول الأولاد الصالحين، فيعطيه اللَّه أولادًا صالحين، فإنه ينتفع بهم وبدعائهم.

والثاني: وهو أشرف النوعين: أن يقعَ ذلك بقصده، كمن علَّم علمًا نافعًا، فنفس تعليمه ومباشرته من أجلِّ الأعمال، ثم حصلَ من العلم والخير المترتب على ذلك، فإنه من آثارِ عمله، وكمن يفعل الخير ليقتدي به الناس، أو يتزوج لأجل حصول الذرية الصالحة، فيحصل مراده، فإن هذا من آثار عمله، وكذلك من يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا، أو يباشر صناعةً مما ينتفعُ بها الناس في أمور دينهم ودنياهم، وقد قصد بذلك حصول النفع. فما ترتب من نفع ديني أو دنيوي على هذا العمل، فإنه من آثار عمله، وإن كان يأخذ على عمله أجرًا وعوضًا، فإن اللَّه يدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: صانعه، وراميه، والممد به[1].

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١٣)، والنسائي (٦/٢٨) عن عقبة بن عامر. وقد صححه الحاكم (٢/٩٥)، وابن خزيمة (٤/١١٣)، واللفظ له.

القاعدة السادسة والخمسون

يرشد القرآن الكريم إلى قيام جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من مصالحهم من يقوم بها، وليوفر وقته عليها لتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعًا واحدة

وهذه من القواعد الجليلة، ومن السياسة الشرعية، فإن كثيرًا من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها، فالطريق إلى حصولها ما أرشد الله عباده إليه، قال تعالى في الجهاد الذي هو من أعظم مصالح الدين والعلم: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية، وبالعلم طائفة أخرى، وأن القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت، وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] إلى غير ذلك من الآيات الدالات على هذا الأصل الجليل والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها؛ لأن كل فرد مأمور أن يراعي المصالح الكلية، ويكون سائرًا في جميع أعماله إليها، فلو وفّق المسلمون لسلوك هذه الطريق لاستقامت أحوالهم، وصلحت أمورهم، وانجابت عنهم شرورٌ كثيرة. فالله المستعان.

وهكذا الأمة الواحدة تكون كل طائفة منها تقوم بمصلحة؛ لأن قيام الجميع بالمصالح متعذر؛ إذ لو فرضنا أن الناس اتجهوا [إلى] مصلحة واحدة معينة تعذرت المصالح الأخرى

وترك المصالح الكلية أيضًا فساد ، ولذلك نقول : المؤمنون يعتبرون وإن كانوا أفرادًا متعددين ، لكنهم كأنهم جسد واحد ، فالرجل للمشي ، واليد للبطش ، لو أن أحدًا قال : أجعل اليدين للمشي ، والرجلين للبطش والأكل والشرب هل يمكن ؟ طبعًا لا يمكن ، كذلك الأصابع كل أصبع له وظيفة خاصة يقوم بها ، وهكذا الجسد الإسلامي يجب أن يكون المسلمون كلٌّ يسعى في مصلحة معينة تليق به ، فالرجل مثلًا ضعيف الجسم قوي الذاكرة والحفظ والفهم نقول : طلب العلم له أفضل ، والرجل القوي الجسم البليد تكرر عليه المسألة أربعين مرة ما يحفظها إلا بخمسين مرة إلا أنه شجاع ومقدام ومتمرس في الجهاد ، فهذا الأليق به أن يجاهد في سبيل الله ، والرجل الآخر عنده فطنة في الصناعة أو في الطب أو ما أشبه ذلك ، نقول : اتجه لهذا حتى تقوم الأمة الإسلامية كلّ بما يدرك ويختص به ، هذا الذي ذكره الشيخ رحمه اللَّه صريح ، هي قاعدة نافعة ، وقد ذكر من القرآن أدلة : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ ، وقوله : ﴿ ما كان ﴾ يحتمل أن يكون مستحيلًا شرعًا أو مستحيلًا قدرًا وكونًا وأقل الأمرين أنه يكون مستحيلًا شرعًا لا يمكن أن يخرجوا كلهم للجهاد بل بعضهم يبقى للعلم وبعضهم يذهب للجهاد ، ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ ، انظر أيضًا وضع الجهاد ، ما نقول : تخرج قبيلة واحدة للجهاد والقبائل الأخر لا تخرج ، نقول : ﴿ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ نأخذ من بني تميم من قريش من كذا من كذا طائفة ، لماذا ؟ ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ ، وإذا تفقهوا في الدين وحفظوا دين اللَّه جاءت الفرقة المجاهدة فينذرون ﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ، وعلى هذا فالواو في قوله : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ تعود على القاعدين أو النافرين ؟ على القاعدين ، واللَّه عز وجل قد جعل الجهاد في سبيل اللَّه عديلًا للضرب في الأرض للتجارة ، فقال : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [المزمل : ٢٠] ، كذلك أيضًا الآية الثانية التي ذكر : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، ﴿ مِّنكُمْ ﴾ ليس كلكم وإن كان بعض العلماء يقولون : « من » بيانية أي فلتكونوا على هذا الوصف ،

ويعني ولتكونوا أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، لكن المعنى الأول هو الذي عليه أكثر الناس ؛ أي أنه يجب أن يكون من الأمة الإسلامية أمة متفرغة لهذا الشأن ﴿ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ، ومن المعلوم أن الدعوة للخير لا بد أن يسبقها علم وإلا كانت ضررًا ؛ أي أن الإنسان إذا دعا بدون علم صار ضرره أكثر من نفعه غالبًا[1] ، بل لابد من العلم حتى يكون الإنسان داعيًا إلى الله على بصيرة .

* * *

القاعدة السابعة والخمسون

في كيفية الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيهما على التوحيد والمطالب العالية

قد دعا الله عباده إلى التفكر في هذه المخلوقات في آيات كثيرة ، وأثنى على المتفكرين فيها ، وأخبر أن فيها آياتٍ وعبرًا ، فينبغي لنا أن نسلك هذا الطريق المنتج للمطلوب بأيسر ما يكون وأوضح ما يكون .

وحاصل ذلك على وجه الإجمال : أننا إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم ، عرفنا أنه لم يوجد بغير مُوجد ، ولا أَوجد نفسه - هذا أمر بديهي - فتيقنا أن الذي أوجده الأول الذي ليس قبله شيء ، كامل القدرة ، عظيم السلطان ، واسع العلم ، وأن إيجاد الآدميين في النشأة الثانية للجزاء أسهل من هذا بكثير : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، وعرفنا بذلك أنه الحي القيوم .

---

(١) على الداعي ألا يتصدى للفتوى والفقه إلا إذا كان عالِمًا ، وإلا فليقتصر على الدعوة العامة للتمسك بالإسلام والأخلاق الحميدة ، وإلا لم يبد في نظر الناس أنه « عالِم » أو « شيخ » ! فهؤلاء لن يكونوا معه في قبره ، أو بين يدي ربه !!

عرفنا أنه الحي القيوم ، كيف ذلك ؟ لأنه لولا حياته لم يوجدوا ، فالقيوم على وزن الفيعول ، فهو من صيغة المبالغة في الوصف والقائم بنفسه القائم على غيره ، ووجه ذلك أن هذه السماوات والأرض دائمًا تحتاج إلى من يقوم عليها ، ولازم هذه الحاجة أن يكون اللَّه تعالى قيوم عليها دائمًا ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ .

وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام والإتقان والحسن والإبداع عرفنا بذلك كمال حكمة اللَّه وحسن خلقه وسعة علمه .

وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التي لا تُعَدُّ ولا تحصى ، عرفنا بذلك أن اللَّه واسع الرحمة ، عظيم الفضل والبر والإحسان والجود والامتنان ، وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات فإن ذلك دال على إرادة اللَّه ونفوذ مشيئته ، ونعرف بذلك كله أنَّ مَنْ هذه أوصافه ، وهذا شأنه ؛ هو الذي لا يستحق العبادة أحد إلا هو ، وأنه المحبوب المحمود ، ذو الجلال والإكرام ، والأوصاف العظام الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلا إليه ، ولا يُصرف خالص الدعاء إلا له ، لا لغيره من المخلوقات المربوبات المفتقرات إلى اللَّه في جميع شئونها .

ثم إذا نظر إليها من جهة أنها كُلُّها خلقت لمصالحنا ، وأنها مسخرة لنا ، وأن عناصرها وموادها وأرواحها قد مكّن اللَّه الآدمي من استخراج أصناف المنافع منها عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة ، من جملة المنافع التي خلقها اللَّه لبني آدم فيها ، فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه في استخراج ما يصلح أحوالنا منها ، بحسب القدرة ، ولم نخلد إلى الكسل والبطالة ، أو نضيف علم هذه الأمور واستخراجها إلى علوم باطلة ، بحجة أن الكفار سبقوا إليها ، وقاموا فيها ، فإنها كلها – كما نبه اللَّه – داخلة في تسخير اللَّه الكون لنا ، وأنه يُعلم الإنسان ما لم يعلم .

أما دلالة هذه المخلوقات على التوحيد ، فمن جهتين : الأول : أن هذه الأشياء كلها لا

تتم إلا بازدواج شيئين، كل الأشياء لا تتم إلا بازدواج شيئين، قال الله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وافتقار كل واحدة من هذه المخلوقات إلى شيء آخر لتكون العناصر دليل على وحدانية من جعل هذه الأشياء مفتقر بعضها إلى بعض.

ثانيًا: أن هذه المخلوقات نظامها واحد لا تختلف ولا تتنافر، ولو كان لها خالقان لكان هذا يخلق أو هذا يتصرف في مخلوقاته بشيء يضاده تصرف الآخر، فإذا نظرنا إلى انتظام الكون علمنا أن مدبره وخالقه واحد وهو الله سبحانه وتعالى، ثم إن المؤلف (سار) في هذه القاعدة إلى أنه يجب علينا ألا نخلد إلى الكسل والخمول وعدم التأمل وعدم استخراج منافع الأرض التي قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك: ١٥]، ولكن مع الأسف أن المسلمين أخلدوا إلى الكسل وناموا وأضاعوا أوقاتهم بحروب بعضهم بعضًا وقتال بعضهم بعضًا حتى (سبقتهم) الأمم الكافرة، مع أن الكافر استعمل هذا الشيء للدنيا فقط، لكن لو وفق المسلمون إلى العمل بهذه الأشياء لكان يعملون للدنيا وللآخرة، فهذه القاعدة مهمة عظيمة وللنظر في هذه المخلوقات العظيمة من حيث الدلالة على خالقها ووحدانيته وما تصرف منه من أنواع صفاته كالرحمة والعلم والقدرة، وما إلى ذلك، والثاني من جهة أنه ينبغي لنا أن نستعمل عقولنا وأفكارنا في استخراج منافعنا من هذه المخلوقات.

* * *

القاعدة الثامنة والخمسون

إذا أراد اللَّه إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة أراهم نقصها في غيرهم من المستعدين للكمال، وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن

منها : لما أراد اللَّه إظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم، علمه أسماء كل شيء ثم امتحن الملائكة، فعجزوا عن معرفتها، فحينئذ نبأهم آدم عنها، فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أرادَ اللَّه إظهار شرفِ يوسف في سعة العلم والتعبير رأى الملك تلك الرؤيا، وعرضها على كل من لديه علم ومعرفة فعجزوا عن معرفتها، ثم بعد ذلك عَبَّرَها يوسف ذلك التعبير العجيب، الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن التعبيرُ عنه.

الذين يعبرون الرؤيا قالوا لا نعرف، قالوا : هذه أضعاث أحلام، وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فَعَبَّرها تعبيرًا عجيبًا فقال لهم : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ كلها خصب وزرع كامل : ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾، وإنما أرشدهم إلى بقائه في السنبل لأن الحب إذا بقي في السنبل ما يسوس ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ [يوسف : ٤٨]، يعني من الذي تحفظونه، وهذا يدل على أن الشيء عندهم شحيح يتوافرون بحفظه وتحصيله، ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف : ٤٩]، كم هذه من السنين؟ أربعة عشر، وإنما قال : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ لأنه فهم ذلك من الحصر سبع وسبع، والعدد المحصور له منتهى.

ولما عارض فرعون الآيات التي أرسل بها موسى، وزعم أنه سيأتي بسحر

يغلبه فجمع كل سحَّار عليم من جميع أنحاء المملكة واجتمع الناس في يوم عيدهم وألقى السحرة عِصيَّهم وحبالهم في ذلك المجمع العظيم، وأظهروا للناس من عجائب السحر فـ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فحينئذ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأى الناس جميعَ حبالهم وعصيهم، فظهرت هذه الآية الكبرى، وصار أهل الصنعة أولَ من خضع لها ظاهرًا وباطنًا.

وهذه أيضًا مما أظهر اللَّه الأنبياء على غيرهم فيها.

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي ﷺ وتمالأ عليه جميع أعدائه ومكروا مكرتهم الكبرى للإيقاع به، نصره اللَّه ذلك النصرَ العجيب، فإن نصر المنفرد الذي أحاط به عدوه الشديد حَرْدُه[1]، القوي مكره، الذي جمعَ كلَّ كيده ليوقع به أشد الأخذات وأعظمَ النكبات، وتخلصه وانفراج الأمر له؛ من أعظم أنواع النصر، كما ذكر اللَّه هذه الحال التي عاتب بها أهلَ الأرض، فقال: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فأيده ﴿وأنزل للَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ الآية [التوبة: ٢٦].

وقريب من هذا نصره له يوم حنين، حيث أعجبت الناس كثرتُهم، فلم تغن عنهم شيئًا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولو مدبرين، وثبت ﷺ، فأنزل عليه سكينته ونصره في هذه الحال الحرجة، فكان لهذا النصر من الوقع الكبير ما لا يُعبّر عنه، وكذلك ما ذكره اللَّه من الشدائد التي جرت على أنبيائه وأصفيائه، وأنه إذا اشتدَّ البأس، وكادَ أن يستولي على النفوس اليأس؛ أنزل اللَّه فرجه ونصره ليصير لذلك موقع في القلوب وليعرف العبادُ ألطافَ علّام الغيوب.

---

(١) الحرد: الغضب والغيظ.

ويقاربُ هذا : إنزاله الغيثَ على العباد ، بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فيحصل من آثار رحمة اللَّه والاستبشار بفضله ، ما يملأ القلوب حمدًا وشكرًا وثناءً على الباري تعالى[1] ، وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل ضدها ، كقوله : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ وقوله : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص : ٧١] الآيات .

ونلمح مثل هذا المعنى في قصة يعقوب وبنيه ، حين اشتدت بهم الأزمة ودخلوا على يوسف ، وقالوا : ﴿قد مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ الآية [يوسف : ٨٨] ، ثم بعد قليل قال : ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف : ٩٩] في تلك النعمة الواسعة والعيش الرغيد والعز المكين ، والجاه العريض ، فتبارك من لا يدرك العباد من ألطافه ودقيق بره أقل القليل .

ويناسب هذا من ألطاف الباري : أن اللَّه يذكّر عباده في أثناء المصائب ما يقابلها من النعم ؛ لئلا تسترسل النفوس في الجزع فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفت عليها المصائب ، وهان عليها حملها ، كما ذكّر اللَّه المؤمنين حين أصيبوا بأحد : ما أصابوا من المشركين ببدر ، فقال : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران : ١٦٥] وأدخل هذه الآية في أثناء قصة أحد : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران : ١٢٣] ، ويبشر عبده بالمخرج منها حين تباشره المصائب ، ليكون هذا الرجاء مخففًا لما نزل به من البلاء ، فقال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف : ١٥] ، وكذلك رؤيا يوسف يعقوب إذا ذكرها رجاء الفرج ، وهبَّ على قلبه نسيم الرجاء ، ولهذا قال : ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف : ٨٧] ، وكذلك قوله تعالى لأم موسى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى

أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] ، وأعظم من ذلك كله : أن وعد الله لرسله بالنصر وبتمام الأمر وهون عليهم المشقات ، وسهل عليهم الكريهات ، فتلقوها بقلوب مطمئنة وصدور منشرحة ، وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال .

* * *

القاعدة التاسعة والخمسون

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

ما أعظمَ هذه القاعدةَ والأصلَ العظيم الذي نص اللَّه عليه نصًّا صريحًا وعمم ذلك ، ولم يقيده بحالة من الأحوال ، فكل حالة هي أقوم في العقائد والأخلاق ، والأعمال والسياسات الكبار ، والصغار والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية ، فإن القرآن يهدي إليها ويرشد إليها ، ويأمر بها ويحث عليها ، ومعنى « أقوم » أي أكمل وأصلح ، وأعظم قيامًا وصلاحًا للأمور .

فأما العقائد فإن عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها صلاح القلوب وغذاؤها ، وكمالها ، فإنها تملأ القلوب محبة اللَّه تعظيمًا له وألوهية وإنابة ، وهذا المعنى هو الذي أوجد اللَّه الخلق لأجله .

وأما أخلاقه التي يدعو إليها فإنه يدعو إلى التحلي بكل خلق جميل ؛ من الصبر ، والحلم ، والعفو ، وحسن الخلق ، والأدب ، وجميع مكارم الأخلاق ، ويحث عليها بكل طريق ويرشد إليها بكل وسيلة .

وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق اللَّه وحقوق العباد على أكمل الحالات وأجلها وأسهلها وأوصلها إلى

المقاصد .

وأما السياساتُ الدينية والدنيوية فهو يرشد إلى سلوك الطرق النافعة في تحصيل المصالح الكلية ، وفي دفع المفاسد ، ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال ، حتى في سياسة الأب مع أولاده وزوجه وأهله وخادمه وأصحابه ومعامليه ، فلا يمكن أنه وُجد أو يوجد حالة يتفق العقلاء أنها أقوم من غيرها وأصلح ، إلَّا القرآن يرشد إليها نصًّا أو ظاهرًا ، أو دخولًا تحت قاعدة منَ قواعده الكلية .

وتفصيل هذه القاعدة لا يمكن استيفاؤه ، وبالجملة فالتفاصيل الواردة في القرآن وفي السنة من الأوامر والنواهي والإخبارات كلها تفصيلًا لهذا الأصل المحيط .

وبهذا وغيره يتبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح أو معنى نافع أو طريق صلاح ينافي القرآن . واللَّه تعالى ولي الإحسان .

في هذه القاعدة : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] يتبين لنا أن جميع القوانين المخالفة للقرآن كلها لا خير فيها وأنه إن قدر فيها الخير ، فما في القرآن خير وأشد وأفيد : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٣] ، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء : ٦٦ - ٦٨] ، فالحاصل أن كل ما كان أقوم في العقائد والأقوال والأعمال والأخلاق والسياسات والمعاملات والمتروكات والمنهيات ، فإن القرآن يهدي إليها . ونأخذ من هذا قواعد عظيمة منها إذا تعارض مصلحتان أحدهما أنفع أخذنا بالأنفع ومنها إذا تعارض نصان أحدهما أشد أخذنا بالأخف[١] ، فكل ما كان أقوم كان القرآن يهدي إليه ، والعكس بالعكس ، فكل ما كان أعوج وأردأ وأسوأ فإن القرآن لا يهدي إليه بل يهدي إلى ضده .

(١) انظر قواعد السعدي الفقهية (٣٣) وشرح الشيخ ابن عثيمين لها (ص ١٥٠) بتحقيقنا .

القاعدة الستون

من قواعد التعليم الذي أرشد الله إليه في كتابه

أن القصص المبسوطة يجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها. والأمور المهمة ينتقل في تقريرها نفيًا وإثباتًا من درجة إلى أعلى أو أنزل منها. ثم يقع التفصيل لذلك الإجمال، يحصل به الإيضاح والبيان التام الكامل لا يقع ما يقاربه لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم إجمال، وقد وقع هذا النوع في القرآن في مواضع:

منها: في قصة يوسف في قوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣]، ثم قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧]. ثم ساق القصة بعدها.

وكذلك في قصة أهل الكهف، حين قال: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ [الآيات: ٩- ١٢]، فهذا إجمالها قد حوى مقصودها وزبدتها، ثم وقع بعده التفصيل في قوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ إلى آخر القصة.

وكذلك في قصة موسى لما قال تعالى: ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٣] هذا مجملها، ثم وقع التفصيل.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥]، فأجملها ثم وقع بعده التفصيل.

وأما التنقل في تقرير الأشياء من أمر إلى ما هو أولى منه فكثير :

منها : لما أنكر على من اتخذ مع اللَّه إلهًا آخر وزعم أن اللَّه اتخذ ولدًا فقال في إبطال هذا : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ ، فأبان أن قولهم هذا قول بلا علم ، ومن المعلوم أن القول بلا علم من الطرق الباطلة ، ثم ذكر قبحه ، فقال : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ، ثم ذكر مرتبة هذا القول من البطلان ، فقال : ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف : ٥] .

وقال في حق المنكرين للبعث : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي علمهم فيها علم ضعيف ، لا يعتمد عليه ، ثم ذكر ما هو أبلغ منه فقال : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ﴾ ، ومن المعلوم أن الشك ليس معه من العلم شيء ، ثم انتقل منه إلى قوله : ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل : ٦٦] ، والعمى آخر مراتب الحيْرة والضلال .

وقال نوح عليه السلام في تقرير رسالته وإبطال قول من كذبه ، وزعم أنه في ضلال مبين ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ ، فلما نفى الضلالة من كل وجه أثبت بعده الهدى الكامل من كل وجه ، فقال : ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ثم انتقل إلى ما هو أعلى من ذلك وأن مادة هذا الهدى الذي جئت به من الوحي الذي هو أصل الهدى ومنبعه ومادته ، فقال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٢] ، وكذلك هود عليه الصلاة والسلام(١) .

وقال في تقرير رسالة أكمل الرسل : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [النجم : ١، ٢] ، فنفى عنه ما ينافي الهدى من كل وجه ، ثم قال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم: ٤] الآيات .

---

(١) يعني قال مثل هذا الكلام - كما في سورة الأعراف آية : ٦٥ - ٦٨ .

وهو في القرآن كثير جدًا ، كانتقاله من ذكر هبة الولد لزكريا إلى مريم[١] ، وكذلك أمر القبلة بعد تعظيمه للبيت[٢] ، وغيرها .

هذه القاعدة تتضمن أمرين : الأمر الأول الإجمال ثم التفصيل ، وهذا من طرق البلاغة ؛ لأن الإجمال أقرب إلى الحفظ وأوعى للذهن ، ثم إن الإجمال إذا وقع بقيت النفس متشوقة إلى التفصيل فيرد عليها التفصيل وهي أحوج ما تكون إلى معرفته ، فإذا ورد العلم على القلب وهو محتاج إلى معرفته مشتاق إليها رسخ فيه أكثر وثبت فيه وتمكن ، هذا من فوائد التفصيل بعد الإجمال ، وإلا فلو قال قائل : لماذا لم يذكر الشيء المفصل من أول الأمر؟ نقول : لو فعلنا ذلك لفاتنا هذان الأمران وهما أن التفصيل بعد الإجمال أثبت للقلب ؛ لأنه يرد على القلب وهو متشوق له ، ولأن الاختصار والإجمال أوعى للذهن وأقرب للحفظ . وأما الانتقال من حال إلى أخرى فهذا أيضًا ظاهر ؛ لأن المعاني لا ترد على القلوب دفعة واحدة ، وإنما ترد إليها متنقلة مرحلة مرحلة ، ومن هذا أيضًا الأحكام ، فإن الأشياء التي لا يستطيع الناس أن يأتوا بها مرة واحدة دفعة واحدة يجعلها اللّه تعالى مرتبة شيئًا فشيئًا فمن المأمورات الصلاة والصيام والزكاة كلها بمراتب ففي الصلاة كان في الأول يصلون بكرة وعشية ثم صارت خمس صلوات[٣] ، وفي الزكاة كانوا يؤمرون بأن يؤتوا المال حقه : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤١] بدون تقدير ثم قدّر ، وفي الصيام كان بالأول من شاء صام ومن شاء افتدى ثم تعيّن الصيام[٤] .

وفي المنهيات نجد أن اللّه عز وجل في الأمور التي يصعب الامتناع عنها مرة واحدة يجعلها مرتبة مثل الخمر والميسر ، فإن الناس كانوا قد عاشوا عليهما فيصعب أو يشق عليهم أن يَدَعوها مرة واحدة ، فجاء الأمر مرتبًا ينتقل من حال إلى حال ليسهل عليهم التنفيذ والفعل أو الترك[٥] .

---

(١) كما في سورة آل عمران ، آية (٣٨) ، وسورة مريم ، آية (١٦) . (٢) كما في سورة البقرة : آية ١٤٢ .

(٣) أخرج البيهقي في سننه (١/٣٥٩) عن قتادة قال : « كان بدء الصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي » . وانظر تفسير ابن كثير (٤/٣٥٥) ، وفتح الباري (١/٣٦٥) .

(٤) كما في سورة البقرة آية : [١٨٥] .

(٥) يوضح ذلك ما جاء في البخاري (٤٩٩٣) عن عائشة قالت : « لو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر =

القاعدة الحادية والستون

معرفة الأوقات وضبطها حث الله عليه، حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص

وذلك أن اللّٰه رتب كثيرًا من الأحكام العامة والخاصة على مُددٍ وأزمنة تتوقف الأحكام عملًا وتنفيذًا على ضبط تلك المدة وإحصائها، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] فقوله: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يدخل فيه مواقيت الصلوات والصيام والزكاة، وخص الحج بالذكر لكثرة ما يترتب عليه من الأوقات الخاصة والعامة.

وكذلك مواقيت للعدد والديون، والإجارات وغيرها. وقال تعالى لما ذكر العدة: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، وقوله في الصيام: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]، وذلك لمعرفة قدرة اللّٰه في إفاقتهم، فلو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم، فمتى ترتب على ضبط الحساب وإحصاء المدة، مصلحة في الدين أو في الدنيا، كان مما حث وأرشد إليه القرآن.

ويقارب هذا قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] الآية، وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]، ونحوها من الآيات.

في معرفة الأوقات وضبطها نفع عظيم أيضًا كما ذكرها المؤلف، وهي أن الإنسان لا

= لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا ...» الحديث.

ينفرط عليه وقته لأن الإنسان إذا أطلق نفسه وأهملها انفرط عليه وقته ، لكن إذا رتب وقته حفظ وقته وضبطه ولم يضع عليه منه شيء ، مثلًا يقوم الصبح إذا صلي الفجر ورتب نفسه أفعل كذا وكذا ، وبعد طلوع الشمس أفعل كذا وكذا ، في اليوم الفلاني أفعل كذا وكذا ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « أحب العمل إلى اللَّه أدومه وإن قلّ »[1] . حتى لا يكون الإنسان منفرطًا في شغله فيضيع عليه الوقت وقد بين اللَّه تعالى في القرآن أن ضياع الوقت من حال من أغفل اللَّه ذكره عن قلبه : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] ، فالذي ينبغي لك أيها الإنسان أن تضبط وقتك وتجعل كل وقت له عمل معين حتى لا تتداخل الأعمال ويضيع عليك الوقت بلا فائدة ، وذكر المؤلف رحمه اللَّه أمثلة من هذا تدل على ضبط الوقت وعلى حفظه وحمايته .

* * *

القاعدة الثانية والستون

الصبر أكبر عون على كل الأمور ، والإحاطة بالشيء علمًا وخبرًا هو الذي يعين على الصبر

وهذه القاعدة عظيمة النفع قد دل القرآن عليها صريحًا وظاهرًا في أماكن كثيرة .

ما الفرق بين الصريح والظاهر ؟ الصريح هو الذي لا يحتمل إلا معنى واحدًا ، والظاهر هو الذي يحتمل معنيين أحدهما أظهر ، والمجمل يحتمل معنيين لا يتميز أحدهما بالظهور عن الآخر ، الألفاظ ثلاثة أقسام : صريح وظاهر ومجمل ، فقوله صريحًا وظاهرًا يعني صريحًا لا يحتمل إلا معنى واحد وظاهرًا يحتمل معنيين وهو في أحدهما أرجح .

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة : البخاري (١٩٧٠) ، ومسلم (١٧٧/٧٨٢) واللفظ له .

قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] أي استعينوا على جميع المطالب في جميع شئونكم بالصبر ، فبالصبر يسهل على العبد القيام بوظيفة الطاعات ، وأداء حقوق اللَّه وحقوق عباده ، وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات فينهاها عن هواها حذر شقاها ، وطلبًا لرضى مولاها . وبالصبر تخف عليه الكريهات .

ولكنَّ هذا الصبر وسيلته وآلته التي ينبني عليها ، ولا يمكن وجوده بدونها ، ومعرفة الشيء المصبور عليه ، وما فيه من الفضائل وما يترتب عليه من الثمرات ، فمتى عرف العبد ما في الطاعات من صلاح القلوب ، وزيادة الإيمان واستكمال الفضائل ، وما تثمره من الخيرات والكرامات ، وما في المحرمات من الضرر والرذائل ، وما توجبه من العقوبات المتنوعة ، وعلم ما في أقدار اللَّه من البركة وما لمن قام بوظيفته فيها من الأجور ، هان عليه الصبر على جميع ذلك ، وبهذا يعلم فضل العلم وأنه أصل العلم والفضائل كلها ، ولهذا كثيرًا يذكر في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة إنما ذلك لقصور علمهم ، وعدم إحاطتهم التامة بها ، وقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [النساء : ١٧] ليس معناه : أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء ، وإنما قَصُرَ علمهم وخبرتهم بما توجبه الذنوب من العقوبات وأنواع المضرات وإزالة المنافع .

وقال تعالى مبينًا أنه متقرر أن الذي لا يعرف ما يحتوي عليه الشيء يتعذر عليه الصبر ، فقال عن الخضر لما قال له موسى وطلب منه أن يتبعه ليتعلم مما علمه اللَّه قال : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ [الكهف : ٦٧، ٦٨] ، فعدم إحاطته به خُبرًا يمتنع معه الصبر ، ولو تجلّد ما تجلّد فلابد أن يُعال صبره .

وقال تعالى مبينًا عظمة القرآن وما هو عليه من الجلالة والصدق الكامل :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس : ٣٩] ، فأبان أن الأعداء المكذبين به إنما تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه ، وأنهم لو أدركوه كما هو لألجأهم واضطرهم إلى التصديق والإذعان ، فهم وإن كانت الحجة قد قامت عليهم ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه ، ولم يعرفوه حق معرفته .

فقال في المعاندين الذين بان لهم علمه وخبروا صدقه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

والمقصود أن الله أرشد العباد إلى الاستعانة على أمورهم بملازمة الصبر ، وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى الأمور ، ومعرفة حقائقها وما فيها من الفضائل أو الرذائل . والله أعلم .

المؤلف رحمه الله يقول : أن هذه القاعدة تشتمل على أمرين ؛ الأمر الأول : أن الصبر أكبر عون على الأمور ؛ لأن الإنسان إذا صبر على الشيء وصبر عليه كان ذلك عونًا له على إدراكه ، ويُذكر أن الكسائي وهو إمام الكوفيين في النحو [(١)] صار يتعلم النحو فعجز عنه ، ما عرفه ، وفي يوم من الأيام رأى نملًا يحمل نواة ليصعد بها إلى الجدار ، فكلما صعد بهذه النواة ثقلت عليه ثم تسقط منه إلى الأرض وهكذا عدة مرات ، حتى فازت بها ، فقال : هذه صابرت هذا الصبر حتى حصل لها مقصودها في غذاء جسم بدنه ، فلماذا لا أصبر حتى أنال مقصودي في تعلم النحو ، وصار يتعلم حتى صار إمامًا في النحو . وهكذا ينبغي للإنسان أو لطالب العلم أن يصبر على طلب العلم وأن لا ييأس ، فلابد من الصبر ثم هذا الصبر يحتاج إلى من يعينك عليه ، من الذي يعينك على الصبر ؟ الذي يعينك على الصبر

---

(١) هو الإمام شيخ القراءة والعربية أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله مولاهم الكوفي الملقب بالكسائي لكساءٍ أحرم فيها . له عدة تصانيف ؛ منها : معاني القرآن ، وكتاب في القراءات ، وكتاب النوادر الكبير ، ومختصر في النحو . مات سنة تسع وثمانين ومائة . انظر طبقات النحويين : ١٣٨ - ١٤٢ ، نزهة الألباء : ٦٧ ، ٧٥ ، طبقات المفسرين : ١/٣٩٩ .

معرفة ما للمصبور عليه أو للمصبور عنه من النتائج ، فإن كان مطلوبًا حصوله فاعلم ما يترتب عليه من الثمرات والمنافع والمصالح ، وإن كان مطلوبًا تركه فاعلم ما يترتب على فعله من الشرور والسيئات ، هذا يعينك على الصبر . كذلك مما يعينك على الصبر في طلبك أو في إدراك مطلوبك أن تقول لنفسك : أنت الآن قطعت شوطًا بعيدًا للوصول إلى الغاية والرجوع من أثناء الطريق معناه إضاعة الوقت وخسارة ما اكتسبت وبعض الناس مثلًا يغيب الزكاة بالمال ، فإذا انتصف بها قال : هذا صعب . يقول : باق عليّ نصفها وأنا عندي سنة وثلاثة أشهر في نصفها معناه أن يكمل النصاب كم؟ ثلاث سنين الآن النصف الثاني ينضاف إليه النصف الأول ، ماذا حصل الآن ؟ ضيع عليه الماضي كله .

فهذا أيضًا مما يعين على الصبر معرفة المصبور عليه وما يترتب عليه من نتائج العواقب.

والثاني معرفة أنه إذا تخلى عن الصبر أو رأى على نفسه شيئًا كثيرًا اكتسبه ، وهذا كأنه سفه .

أما الأمر الثالث مما يعين على الصبر فهو أن يرجو الإنسان بصبره ثواب اللَّه عز وجل ، فإن اللَّه يقول : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، ويقول : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] ، فإذا عرف ما في الصبر نفسه بقطع النظر عن الحصول عليه من الثواب والكرامة فإنه يستمر على صبره ويتحمل .

رابعًا مما يعين على الصبر أن الإنسان إذا صبر على الشيء صار هذا الشيء كأنه غريزة في نفسه حتى إنه ليتخلى إذا فقده ، وانظر نفسك أيها الطالب في أول السنة الدراسية أول ما تأتي يومًا ويومين ثلاثة تجد نفسك متعبًا مالًّا من طول الدروس ، فإذا تمرنت عليها سهل عليك وهان حتى إنك تفقد الدروس عند حلول الإجازة ، وهذا الشيء مشاهد ، فمثل هذه الأمور تعين الإنسان على الصبر والتحمل وعدم النكوص على عقبيه وأن يستمر على ما هو عليه ، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه قال : « من بورك له في شيء فليلزمه »[(١)] . وهذه كلمة عظيمة . وإلا تجد كل يوم لك رأي ونظر ، فإن هذا يذهب عليك الوقت .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢١٤٧) عن أنس مرفوعًا والبيهقي في الشعب (١٢٤١) ، والقضاعي (٣٧٥) بلفظ =

القاعدة الثالثة والستون

يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان إيمانه وعمله الصالح

وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوي المجردة أو بإعطاء الله للعبد من الدنيا بالرياسات ، كل ذلك من طرق المنحرفين ، والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلاً لهذه القاعدة ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ [سبأ : ٣٧] ، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] ، وقد أكثر الله من هذا المعنى في عدة آيات .

وأما حكاية المعنى الآخر عن المنحرفين ، فقال عن اليهود والنصارى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١] ، ثم ذكر البرهان الذي من أتى به فهو المستحق للجنة ، فقال : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ١١٢] ، وقال تعالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : ١٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم : ٧٣] ، ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ

= « من رزق » ، وأخرجه ابن ماجه (٢١٤٨) عن عائشة بلفظ « إذا سبب الله لأحدكم رزقًا فلا يدعه » . قال البوصيري في الزوائد : في إسناده مقال . وقال العجلوني في كشف الخفا (٢/٢٢٦) عن رواية البيهقي : ضعيفة .

وعزاه ابن تيمية في الفتاوى (١٨/١٢٣) إلى بعض السلف . وفي الباب عند أحمد (١/١٦٦) عن الزبير ابن العوام قال : « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيرًا فأقم » . قال عنه الهيثمي في المجمع (٤/٧٢) : فيه جماعة لم أعرفهم .

عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] ، ونحوها من الآيات التي يستدل بها الكفار على حسن حالهم ، بتفوقهم في الأمور الدنيوية ، والرياسات ، ويذمُّون المؤمنين ويستدلون على بطلان دينهم بنقصهم في هذه الأمور . وهذا من أكبر مواضع الفتن .

هذه الأشياء تجمع ثلاثة أمور ؛ الأمر الأول إيمان الإنسان وعمله الصالح ، وهذا هو المقياس للرجل ، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه »[١] . هذا هو المقياس الأول إذا كان مؤمنًا عاملًا بالصالحات ، هذا هو الدليل على كمال حاله وحسن حاله ، الثاني : الدعاوي المجردة يدعيها الإنسان لنفسه وهي بعيدة عن الإيمان بالله واليوم الآخر ، فهذه لا تدل على كمال حاله وحسن حاله ؛ لأن كل إنسان يستطيع أن يدعي الكمال ، لكن إذا نظرنا إلى حاله وهو متفرغ الكمال ما نقبل منه ، ومن هذا دعاوي أولياء الشياطين أنهم أولياء اللّٰه وأحباء اللّٰه مثل أولئك المخرفون الذين يدعون الولاية لأنفسهم بأنهم أولياء ليجذبوا الناس إليهم – فهذه اثنين . والأمر الثالث : إعطاء اللّٰه الإنسان المال والرئاسة والجاه والسمعة هل تدل هذه على كماله ؟ لا ، قد يكون الأمر بالعكس فقد يعطى الإنسان هذه الأمور ابتلاءً من اللّٰه عز وجل وامتحانًا له فيتولى عن الناس ويكون له جاه عندهم ورئاسة وما أشبه هذا ، وهذا لا يدل على حسن حاله حقيقة فهذه الأمور ثلاثة ، وميزان هذه الأمور هو الإيمان والعمل الصالح ، فكمال الإنسان هو بالإيمان والعمل الصالح فقط أما الرئاسات وما يتعلق بها والدعاوي الباطلة فهذه لا تدل على حسن حاله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ماذا يقولون ؟ ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ لا نقبل منهم هذه الدعوى ، ولهذا ردها اللّٰه عليهم ، فقال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٢] . أيضًا إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ يقولون : ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ، فيقدحون في المؤمنين ، فقال اللّٰه عز وجل : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٨٤) ، وابن ماجه (١٩٦٧) عن أبي هريرة ، وفيه انقطاع أشار إليه الترمذي ، ونقله عن البخاري . وأخرجه الترمذي (١٠٨٥) من حديث أبي حاتم المزني ، وقال : حسن غريب .

السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣] ، وعلى هذا فيجب أن ننظر إلى حال الإنسان لا إلى دعواه الباطلة ولا إلى ما أوتي من مال وولد ورئاسة وجاه وما أشبه ذلك .

* * *

القاعدة الرابعة والستون

الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد ترد على الحق والأمور اليقينية ، ولكن سرعان ما تضمحل وتزول

وهذه قاعدة شريفة جليلة قد وردت في عدة مواضع من القرآن ، فمن لم يحكمها حصل له من الغلط في فهم بعض الآيات ما أوجب الخروج عن ظاهر النص ، ومن عرف حكمة الله تعالى في ورودها على الحق الصريح لأسباب مزعجة تدفعها أو لشبهة قوية تحدثها ثم بعد هذا إذا رجع إلى اليقين والحق الصريح ، وتقابل الحق والباطل ، فزهق الباطل وثبت الحق ، حصلت العاقبة الحسنة ، وزيادة الإيمان واليقين ، فكان في ذلك التقدير حكم بالغة ، وأياد سابغة ، ولنمثل لهذا أمثلة :

فمنها : أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الخلق إيمانًا ويقينًا ، وتصديقًا بوعد الله ووعيده ، وهذا أمر يجب على الأمم أن يعتقدوا في الرسل ، من أنهم قد بلغوا ذروته العليا ، وأنهم معصومون من ضده ، ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يعرض من الأمور المزعجة المنافية حسًّا لما علم يقينًا ما يوجب لهؤلاء الكمّل أن يستبطئوا معه النصر ، ويقولون : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٤] وقد يقع في هذه الحالة على القلوب شيء من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات وتأثيرها في القلوب ، ثم في أسرع وقت تنجلي هذه

الحال ، ويصير لنصر اللّه وصدق موعوده من الوقع والبشارة والآثار العجيبة أمر كبير ، لا يحصل بدون هذه الحالة ، ولهذا قال : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف : ١١٠] ، فلهذا الوارد الذي لا قرار له ، وعندما حقت الحقائق اضمحل وتلاشى لا ينكر ويطلب للآيات تأويلات مخالفة لظاهرها .

ومن هذا ما أشكل على العلماء ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ، وفيها قراءة سبعية (وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا جاءهم نصرهم) ، فعلى قراءة التشديد (وظنوا أنهم قد كذّبوا) النتيجة منها واضحة يعني تيقنوا أنهم قد كذّبوا فأيقنوا التصديق ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء ﴾ ، لكن الإشكال (وظنوا أنهم قد كُذِبُوا) ، هذه ظاهر كلام الشيخ رحمه اللّه أنهم ورد على قلوبهم أن وعدهم بالنصر ليس صحيحًا ، ولكن يقول الشيخ : إن هذا الوارد يضمحل ويتلاشى ، لكن لقوة الواردات على القلوب ينسون صدق الوعد فيظنون هذا الظن ، هذا ما ذهب إليه شيخنا رحمه الله ، يقول : فقد كذبوا ؛ أي كذبوا بوعد النصر ، ومعنى كذبوا يعني أخبروا بالكذب كما جاء في الحديث : « صدقك وهو الكذوب »[(١)] . وهذه لو بقيت لكان مطعنًا في الرسل أن يظنوا أن اللّه وعدهم فكذب ، ولكن شيخنا يقول : إن هذا وارد ، يرد على القلوب ، ولكنه يتلاشى بسرعة ، وسبب وروده على القلب قوة الواردات التي توجب مثل هذا الظن .

يقول الشيخ رحمه الله : إن هذا أحسن من تأويل الآيات بوجوه بعيدة ، ولكن عندي أنه ليس كما قال شيخنا بهذا ، وأن المعنى قد كُذِبُوا أي كَذَبَهم أقوامهم في قولهم إننا مؤمنون ؛ لأنهم لو صدقوا في قولهم مؤمنون لجاءهم النصر فيظن هؤلاء الرسل أنهم قد كذبوا ليس في خبر اللّه يعني أنه كذبهم حين أخبرهم بالنصر ، ولكن قد كذبوا أي كذبهم أقوامهم بقولهم إننا مؤمنون وأنه تخلف النصر لعدم إيمان قومهم ، وحينئذ لا يوجد إشكال وتبقى الآية على ظاهرها صحيحة بدون إشكال : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ ﴾ يعني :

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٥، ٥٠١٠) تعليقًا عن أبي هريرة .

استبعدوا نصر اللَّه وظنوا أنهم قد كُذِبوا من أقوامهم الذين قالوا إنا مؤمنون وإنا معكم ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ ، وهذا المعنى الذي قلته لاشك أنه أحسن مما ذهب إليه شيخنا رحمه اللَّه ، والواردات بلا شك ترد على الإنسان ويغفل وينسى عن الحقيقة التي هي الواقع ، ولهذا لما كسفت الشمس خرج النبي ﷺ فزعًا يظن أنها الساعة ، كما جاء في الحديث[1] . وكيف يظن أنها الساعة والساعة لها أشراط ولها علامات لا تأتي هكذا ، لكن لقوة الوارد ، الذي ورد على قلبه نسي أن تكون للساعة أشراط تتقدمها .

ومن هذا الباب بل من صريحه : قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : ٥٢] أي يلقى من الشبه ما يعارض اليقين ، ثم ذكر الحكم العظيمة المترتبة على هذا الإلقاء ، وأن نهاية الأمر وعاقبته أن اللَّه يبطل ما يلقي الشيطان ، ويحكم آياته ، واللَّه عليم حكيم ، فقد أخبر بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء ، لهذه الحكم التي ذكرها ، فمن أنكر وقوع ذلك بناءً على أن الرسل لا ريب ولاشك معصومون ، وظن أن هذا ينافي العصمة ، فقد غلط أكبرَ غلطٍ ، ولو فهم أن الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل قولًا خالف فيه الواقع وخالف نص الآيات الكريمات .

قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : ٥٢ - ٥٤] .

هذه الآية تنازع الناس فيها قديمًا وحديثًا تنازعًا كبيرًا ، فمنهم من قال : إن الرسول ﷺ لما قرأ قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ

---

(١) متفق عليه : البخاري (١٠٥٩) ، ومسلم (٩١٢/٢٤) عن أبي موسى .

الأُنْثَى ﴾ [النجم : ١٩ -٢١] قال – حين قوله : ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ، وسمع المشركون هذا الكلام من الرسول ﷺ وسجدوا مع النبي ﷺ في آخر السورة ؛ لأن آخر السورة سجد مع النبي ﷺ المؤمنون والمشركون والجن والإنس [1] ، ومنهم من أنكر هذا ، وقال : لا يمكن أن الرسول عليه الصلاة والسلام يثني على هذه الأصنام ويقول : تلك الغرانيق العلى ، قال : هذا لا يمكن وأنكروا إنكارًا عظيمًا للآثار الواردة في هذا المعنى ، ولكن عند التأمل يمكن أن نقول : إن هذا الذي سمع من الرسول عليه الصلاة والسلام ليس هو قول الرسول ، وإنما هو قول الشيطان ألقاه فسمعه الناس فظنوا أنه من قول الرسول فقالوا : أثنى على أصنامنا وآلهتنا ، وهو ليس كلام الرسول ، ولهذا قال : ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ ، فجعل هذا من فعل الشيطان ، وحينئذ فلا حاجة إلى أن نبطل هذه الآثار الواردة ، ومنهم من قال : إن التمني إذا تمنى هو أمنية القلب وليس (فيه صلاح) يعني أن الرسول لم يتمن ولكن الشيطان يفسد عليه أمنيته ويحول بينه وبينها . وهذا ضعيف ، ومنهم من قال : ﴿ إذا تمنى ﴾ أي قرأ ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ باعتبار من سمعوا هذه القراءة فيلقي في قلوب أناس شكًا وشبهة ويلقي في قلوب الآخرين يقينًا وثباتًا ، ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٤]، فيكون هنا الإلقاء ما يلقيه الشيطان في قلب السامع من شبهات حول القرآن فينسخ اللَّه ما يلقي الشيطان ثم يحكم اللَّه آياته ، لكن سياق الآيات يدل على أن الذي يلقيه الشيطان في أمنيته قول يُسمع فيظن أنه قرآن ثم بعد ذلك ينسخ اللَّه هذا القول ويبين بطلانه ويحكم اللَّه آياته ويكون هذا القول فتنة للذين في قلوبهم مرض ، وأما الذين أوتوا العلم فإنهم يعلمون أنه ليس بشيء وليس بصواب [2] .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٦٢) عن ابن عباس .

(٢) انظر : تفسير القرطبي (٥٤/١٢) ، تفسير ابن كثير (٤٤٣/٥) ، فتح الباري (٤٣٩/٨) .

ومن هذا - على أحد قولي المفسرين - قوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء : ٨٧] ، وأنه ظن عرض في الحال ثم زال ، نظير الوساوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرهها العبد حين ترد قلبه[1] ، ولكن إيمانه ويقينه يزيلها ويذهبها ، ولهذا قال ﷺ عندما شكى إليه أصحابه هذه الحال التي أقلقتهم ، مبشرًا لهم : « الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة »[2] .

ويشبه هذا : العوارض التي تعرض في إرادات الإيمان لقوة وارد من شهوة أو غضب ، وأن المؤمن كامل الإيمان قد يرد في قلبه همٌّ وإرادة ، لفعل بعض المعاصي التي تنافي الإيمان الواجب ، ثم يأتي برهان الإيمان وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة ، فيدفع هذا العارض ، ومن هذا قوله تعالى عن يوسف : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف : ٢٤] ، وهو أنه لما رجع إلى ما معه من الإيمان ومراقبة الله وخوفه ورجائه دفع عنه هذا الهم واضمحل وصارت إرادته التامة فيما يرضي ربه ، ولهذا بعد المعالجة الشديدة التي لا يصبر عليها إلا الخواص من الخلق ، فقال ﷺ : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ الآية [يوسف : ٣٣] ، وكان أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : « رجل دعته امرأة ذاتُ منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله »[3] .

هذا الذي ذكره شيخنا هو الصواب في هذه الآية : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ يوسف ؛ لأنها امرأة مدللة ، امرأة الملك وعليها من الحلي والثياب والجمال والبهاء ما يوجب تعلق النفس بها ، فدعته في موضع لا يطلع عليهما إلا الله ؛ لأنها أغلقت الأبواب ولم يبق معه إلا هذه المرأة ، دعته إلى نفسها وهو شاب ، وفيه ما في الرجال ، فهمت به وهم بها أيضًا[4] ، لكن منعه أنه رأى برهان ربه ، فرجع إلى نفسه ، ورأى ما معه من اليقين ونور

---

(١) انظر : إعلام الموقعين (٤/٢٠٢، ٢٠٣) .

(٢) أخرجه أبو داود (٥١١٢) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٦٨) عن ابن عباس ، وصححه ابن حبان (١٤٧) .

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة : البخاري (١٤٢٣) ، ومسلم (١٠٣١/٩١) .

(٤) قال البغوي في تفسيره لهذه الآية (٤/٢٣١) : « وقال بعض أهل الحقائق : الهم همَّان : همّ ثابت وهو =

الإيمان ، فامتنع ، وهذا لا يضر يوسف ، بل لا يزيده إلا مدحًا وفضلًا ؛ لأنه إذا كان في هذه الحال الذي وجد السبب وانتفى المانع ثم بعد ذلك تركه لله صار أعظم منزلة وأعلى درجة مما لم يكن له هم بها ؛ لأنه إذا لم يكن هم بها ما يهمه ، لكن إذا هم بها ثم بعد ذلك تركه لله عز وجل صار هذا أعظم ، فهذا مدح وثناء ليوسف ، وأما من قال : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ أي : بضربها ، فهذا من أفسد الأقوال ؛ لأنه إذا كان ضربها حقًّا فإن برهان ربه لا يصرفه عنه ، وإن كان باطلًا ، فمعنى ذلك أنها فعلت ما تستحق الضرب عليه ، فهذا التفسير باطل ، وأن المعنى ما ذهب إليه شيخنا رحمه اللَّه أنه همٌّ حقيقي ، ثم ما هذا البرهان الذي رآه ؟ قال بعضهم : أنه رأى أباه يعقوب يعض يديه وأنامله يقول له : لا تفعل ، وهذا أيضًا باطل ؛ لأن الأب لا يسمى برهانًا ، ولكن البرهان ما معه من الإيمان والعلم باللَّه سبحانه وتعالى والخوف منه ، هذا هو الذي منعه ، والحاصل أن مثل هذه العوارض كما قال شيخنا لا تؤثر على الأمور الثوابت الراسخة ؛ لأنها عوارض تأتي وتزول قد يعرض على القلب ولا سيما قلوب المؤمنين شيء من الشك والجحود والكفر ، ولكن كل هذا يزول مع الإيمان حتى إنه يصور الرجل إذا قام يصلي كأنما يصلي لأبيه أو لأخيه أو لمعلمه أو ما أشبه ذلك ، ولكن كل هذا يزول بالتعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم والابتعاد عنه .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠١] ، يشمل الطائف الذي يعرض في أصل الإيمان والذي يعرض في إراداته ، فإذا مسهم تذكروا ما يجب من يقين الإيمان ، ومن واجباته فأبصروا ، فرجع الشيطان خاسئًا وهو حسير .

ولعل من هذا قول لوط عليه الصلاة والسلام : ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ، وقول النبي ﷺ : « رحم اللَّه لوطًا ، لقد كان يأوى إلى ركن

= إذا كان معه عزم وعقد ورضى مثل هم امرأة العزيز ، والعبد مأخوذ به ، وهم عارض وهو الخَطْرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام ، فالعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل . ثم أورد حديث أبي هريرة قال اللَّه عز وجل : « إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها ... الحديث » وهو في الصحيحين : البخاري (٧٥٠١) ومسلم (١٢٨) .

شديد »[1] : يعني : وهو الله القوي العزيز ، لكن غلب على لوط ﷺ تلك الحالة الحرجة والنظر إلى الأسباب العادية ، فقال ما قال ، مع علمه التام بقوة ذي العظمة والجلال .

لوط عليه الصلاة والسلام قال : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يعني إلى قوم يمنعونني ويعصمونني ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : « رحم الله لوطًا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد » ، من هو ؟ الله عز وجل ، لكنه في تلك الحالة الحرجة كما قال الشيخ هنا غاب عنه ما سوى الأسباب الحسية ، وهو القرابة والقوم الذين يحمونه ويمنعونه .

* * *

القاعدة الخامسة والستون

قد أرشد القرآن إلى المنع من الأمر المباح ، إذا كان يفضي إلى محرم أو ترك واجب

هذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة ، وهي من قاعدة : الوسائل لها أحكام المقاصد[2] .

ننظر الآن إذا كان المباح يفضي إلى المحرم كان حرامًا ، وإذا كان يفضي إلى الواجب كان واجبًا ، فتسرى فيه الأحكام الخمسة ، يقول الشيخ رحمه الله : وهذه القاعدة من قاعدة الوسائل لها أحكام المقاصد يعني ما كان وسيلة إلى شيء فله حكم ذلك الشيء ، فالذي يؤدي إلى الواجب يكون واجبًا ، مثاله : الوضوء للصلاة واجب ، فإذا لم يمكن الوضوء إلا بشراء الماء كان شراء الماء واجبًا ، وما كان يؤدي إلى المحرم كان حرامًا ، مثل لو أن شخصًا جاء يطلب مني وعاء للخمر قلنا : البيع عليك حرام ، هناك قاعدة تقول : ما لا

---

(١) متفق عليه : البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) عن أبي هريرة .

(٢) انظر القواعد الفقهية (ص٣٦) بتحقيقنا .

يتم الواجب إلا به فهو واجب[(١)] ، هل هذه أعم أم قاعدة الوسائل لها أحكام المقاصد ؟ الوسائل لها أحكام المقاصد أعم ، وعلى هذا فتكون هي القاعدة المعتبرة أن الوسائل لها أحكام المقاصد .

فمنها قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١] ، ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢] ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ [الجمعة : ٩] ، وقد وردت بعض آيات تدل على هذا الأصل الكبير ، فالأمور المباحة هي بحسب ما يتوسل بها إليه ، فإن توسل بها إلى فعل واجب أو مسنون كانت مأمورًا بها ، وإن توسل بها إلى فعل محرم أو ترك واجب كانت محرمة منهيًا عنها ، وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية . والله الموفق .

قوله : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الأصل في سب المشركين أنه مباح ، بل قد يجب ، فإذا كان يؤدي إلى سب الله سبحانه وتعالى وهو ليس أهلًا للسب فسب آلهتهم كان محرمًا ، الضرب بالرجل الأصل الإباحة ، فإذا كانت امرأة تضرب برجلها ليعلم ما تخفى من زينتها وهو أن تبدي شيئًا من حليها فكيف إذا لبست المرأة حليًا جذابًا في ذراعيها أو في ساقيها وخرجت بذلك للناس فإنه يكون أشد تحريمًا ، ولهذا لا يجوز للمرأة أن تلبس الحلي وتبرز ذراعها للناس . ثالثًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ [الجمعة : ٩] ، والأصل في البيع والشراء أنه حلال مباح ، فإذا كان يؤدي إلى ترك واجب وهو صلاة الجمعة كان حرامًا .

---

(١) انظر كلام الشيخ ابن عثيمين في شرحه لقواعد السعدي الفقهية (شرح القاعدة ٢) ، وشرحه لنظم العَمريطي في أصول الفقه (شرح الأبيات ٦١ - ٦٣) بتحقيقنا .

القاعدة السادسة والستون

من قواعد القرآن أنه يستدل بالأقوال والأفعال على ما صدرت عنه من الأخلاق والصفات

وهذه قاعدة جليلة، فإن أكثر الناس يَقْصرُ نظره على نفس اللفظ الدال على ذلك القول أو الفعل من دون أن يفكر في أصله وقاعدته التي أوجبت حضور ذلك الفعل والقول، والفطن اللبيب ينظر إلى الأمرين ويعرف أن هذا لازم لهذا، أو هذا ملزم لهذا. وقد تقدم ما يقارب هذا المعنى الجليل، ولكن لشدة الحاجة إليه أوردناه على أسلوب آخر، فمن ذلك أن قوله عن عباد الرحمن أنهم: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ذلك صادرٌ عن وقارهم وسكينتهم وخشوعهم وعن حلمهم الواسع وخلقهم الكامل وتنزيههم لأنفسهم عن مقابلة الجاهلين، ومثل قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، يدل مع ذلك على حسن إدارة المُلْك وكمال السياسة وحسن النظام.

كيف ذلك؟ قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يعني: كل في عمله الخاص، وهذا لاشك أنه يدل على حسن إدارة المُلْك؛ لأننا لو جعلنا الأعمال كلها عند طائفة واحدة أو عند شخص واحد (لانهالت) أخطاؤه وعجز عن إدارة الملك، فإذا وزعت فقال: هذا على المال وهذا على السياسة وهذا على كذا وهذا على كذا، فهو خير.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، يدل على حسن الخلق ونزاهة النفس عن الأخلاق الرذيلة وعلى سعة عقولهم وقوة حلمهم واحتمالهم ومثل الأخبار عن أهل الجاهلية في تقتيل أولادهم خشية الفقر أو من

الإملاق يدل على شدة هلعهم وسوء ظنهم بربهم وعدم ثقتهم بكفايته، وكذلك قوله عن أعداء رسوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]، يدل على سوء ظنهم بالله وأن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته، وأمثلة هذا الأصل كثيرة واضحة لكل صاحب فكرة حسنة.

معناها أن الأقوال والأفعال إذا صدرت من شخص استدل بها على حاله كمالاً أو نقصًا، فإذا وجدنا هذا الرجل متأنيًا في أموره متدبرًا لما يقول ويفعل، فدل بذلك على كمال عقله ووفور ذهنه، وإذا رأينا الأمر بالعكس فدل على سوء عقله وتدبيره، ومعناها أنهم استدلوا بالآثار على المؤثر، هذا الخلاصة آثار الشيء استدلوا بها على مؤثرها.

* * *

القاعدة السابعة والستون

يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق، عند ورود الشبهات والتوهمات

وهذه قاعدة جليلة يعبر عنها: أن الموهوم لا يدفع المعلوم، وأن المجهول لا يعارض المتيقن ونحوها من العبارات، وقد نبه الله عليها في مواضع كثيرة.

لما أخبر عن الراسخين في العلم، وأن طريقتهم في المشتبهات: أنهم يقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فالأمور المحكمة المعلومة: يتعين أن يرجع إليها الأمور المشتبهة المظنونة، وقال تعالى في زجر المؤمنين عن القدح في إخوانهم المؤمنين: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فأمرهم بالرجوع إلى ما عُلِمَ من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات، وأن يعتبروا هذا الأصل المعلوم، ولا يعتبروا كلام من تكلم بما يناقضه، ويقدح فيه وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] ، فوجاهته عند الله تدفع عنه وتبرئه من كل عيب ونقص قاله فيه من آذاه لأنه لا يكون وجيهًا عند ربه حتى يسلم من جميع المنقصات ويتحلى بجميع الكمالات اللائقة بأمثاله من أولي العزم . فيحذر الله هذه الأمة أن يسلكوا مسلك من آذى موسى مع وجاهته ، فيؤذوا أعظم الرسل جاهًا عند الله ، وأرفعهم مقامًا ودرجة .

وقال تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [يونس : ٣٢] ؟ ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ [سبأ : ٦].

* * *

القاعدة الثامنة والستون

ذكر الأوصاف المتقابلات يغني عن التصريح بالمفاضلة إذا كان الفرق معلومًا

وهذه القاعدة في القرآن كثير يذكرها في المقامات المهمة كالمقابلة بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك ، وبين إلهية الحق وإلهية من سواه ، ويذكر تباين الأوصاف التي يعرف العقلاء بالبداهة التفاوت بينها ويدع التصريح بالمفاضلة للعقلاء ، قال تعالى : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] ، ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [النمل : ٥٩، ٦٠] والآيات التي بعدها : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [الزمر : ٢٩] ، ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [هود : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٤٠] ، ﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾

[يونس: ٥٩] ، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩] ، وقال قبلها : ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر : ٩٠] ، فهذا الموضع ترك القسم الآخر كما ترك التصريح بالمفاضلة ، لعلمه من المقام ، فقوله : ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ إلخ يعني كمن ليس كذلك ، والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وهو من بلاغة القرآن وأسلوبه العجيب ، كقوله : ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك : ٢٢] ، ولما ذكر أوصاف الرسول الداعي وما يدعو إليه وأعظم الناس معارضة له قال : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ : ٢٤] ، ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم : ٥-٦] ، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف : ٢٩] ، وذلك أنه إذا ميزت الأشياء تمييزًا تامًا وعرفت مراتبها في الخير والشر والكمال والنقص صار التصريح بعد ذلك بالتفضيل لا معنى له ، والله أعلم .

يعني الشيء المعلوم ليس في حاجة إلى استعمال مجاز ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، معلوم أن الله خير ﴿أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ إلخ . وهكذا الشيء المعلوم لو ذكر لكان الكلام المفيد الأول لا فائدة منه : ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ يعني كمن هو غافل لا يقنت لا في الليل ولا في النهار على الوجه الذي ذكره الله عز وجل ، وهكذا أن الشيء المعلوم يغني عنه ذكر ما يقابله مما هو معلوم أنه خير أو شر .

* * *

القاعدة التاسعة والستون

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة :

فمنها : ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله ، فعوضهم الله الرزق الواسع في الدنيا ، والعز والتمكين.

وإبراهيم ﷺ لما اعتزل قومه وأباه ، وما يدعون من دون الله : وهب له إسحاق ويعقوب والذرية الصالحين. وسليمان ﷺ لما ألهته الخيل عن ذكر ربه فأتلفها عوضه الله الريح تجري بأمره والشياطين كل بناء وغواص. وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله ، وهب لهم من رحمته وهيأ لهم أسباب التوفيق والراحة ، وجعلهم هداية للضالين ، ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها لله ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالى عوضه من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق جميع لذات الدنيا.

وهذا شيء مشاهد أن الإنسان إذا ترك محارم الله عز وجل خوفًا من الله سبحانه وتعالى ورغبة فيما عنده من الثواب فإنه يجد في قلبه لذة وحلاوة وحبًا للخير ما لا يمكن أن يوصف ، وإذا انغمس الإنسان في شهواته وفي لهوه وغفلته صارت هذه الشهوات واللهو حسرة عليه ، وتجده يكون منقبضًا إذا ترك هذه الشهوات طرفة عين ، إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما استسلم لذبح ابنه وهو أحب شيء إليه في الدنيا ، ورثه الله عز وجل الخلة فاتخذه خليلًا .

* * *

القاعدة السبعون

القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين، ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسكُ بأصوله وفروعه

قد تقدم من الأدلة على هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلى الإصلاح والصلاح، وفي طريقته في محاجة أهل الباطل، وفي سياسته الداخلية والخارجية ما يدل على هذا الأصل، ويعرف الخلق أن العصمة من الشرور كلِّها التمسكُ بهذا القرآن وأصوله وعقائده، وأخلاقه، وآدابه وأعماله.

ولكن نزيد هنا بعض التفصيلات، فنقول: أهل الشرور والفساد نوعان؛ أحدهما: المبطلون في عقائدهم وأديانهم ومذاهبهم الذين يدعون إليها، ففي القرآن من الاحتجاج على هؤلاء وإقامة الحجج والبراهين على فساد أقوالهم شيء كثير لا يأتي مبطل يقول إلا وفي القرآن بيانه بالحق الواضح والبرهان الجلي، ففيه الرد على جميع المبطلين من الدهريين والماديين والمعطلين والمشركين والمتمسكين بالأديان المبدلة أو المنسوخة من اليهود والنصارى والأميين: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، يذكر اللَّه حجج هؤلاء ويرفضها ويُبدي من الأساليب المتنوعة في إفسادها ما هو معروف وتفصيل هذا بالجملة لا يحتمله هذا الموضع.

النوع الثاني: من المقاومين للأديان والدنيا والسياسات والحقوق الشيوعيون الذين انتشر شرهم وتفاقم أمرهم وسرت دعايتهم في طبقات الخلق سريان النار في العشب الهشيم ولم يكن عند الأكثرين ما يرد صولتهم ويقمع شرهم، وإنما عندهم من الأصول والعقائد والأخلاق والسياسات ما يمكن أمثال هؤلاء الذين هم فساد العباد والبلاد، ولكن - ولله الحمد - القرآن العظيم والدين القويم قد

تكفل بمقاومة هؤلاء كما تكفل بمقاومة غيرهم وفيه من الأصول والأخلاق والآداب الراقية ما يردهم على أعقابهم منهزمين . فما فيه من العدل ووجوب الحقوق العادلة بين طبقات الناس بحسب أحوالهم وما فيه من إيجاب الزكاة والإلزام بها ، ودفع حاجات الفقراء والمساكين ووجوب القيام بالمصالح الكلية والجزئية ووجوب الأملاك والحقوق ، كل هذا أعظم صدق وأحسن حكم للوقاية من شرور هؤلاء المفسدين ، وكذلك ما حضَّ عليه القرآن من لزوم الآداب العالية والأخلاق السامية والأخوة الدينية والرابطة الإسلامية يمنع من تغلغل شرورهم التي طريقها الأقوم تحليل الأخلاق وانحلال الآداب وتحلل الروابط النافعة والثورة العامة على الرأسماليين الذين يجمعون ويمنعون ، فهؤلاء وإن أبدو من القوة المادية والتسلط على العباد بالقهر والاستعباد والطمع والجشع فإنهم لا ثبوت لهم على مقاومة هذا التيار المزعج المخرب المدمر ما مر عليه ، فما معهم من سلاح يقاوم سلاحهم ، ولا قوة تجابه قوتهم ، لكونهم لم يتمسكوا بالقرآن الذي فيه العصمة والقوة المعنوية والصلاح والإصلاح والعدل ودفع الظلم والآداب والأخلاق العالية التي لا تزعزعها عواصف الخراب ، بل تقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق ، فإذا جاء هؤلاء المفسدون بالتعطيل المحض والإنكار الصرف أبدى القرآن من الحجج والبراهين على وجود اللَّه وصدقه وصدق من جاء به ما تصدع له الجبال وتخضع له فحول الرجال ، وإذا تسرب هؤلاء الأشرار لتوسط الأخلاق الرذيلة وانحلال الأداب الجميلة ووجدوا مسلكًا في هذا الطريق يعينهم على تنفيذ باطلهم جاءهم هذا القرآن بالحث على الأخلاق العالية والأعمال الصالحة والأداب الجميلة التي لا تدع للشر على صاحبه سبيلًا ، وإذا صالوا بالفقر والفقراء ووجوب المساواة واحتجوا على أرباب الأموال بالاحتكار والسيطرة واستعبادهم للعباد واستبدادهم بالأملاك والأموال ولم يجد هؤلاء قوة عليهم وليس بهم طاقة بوجه من الوجوه تصدى هذا القرآن

العظيم بعدله وقسطه وإيجاب الحقوق المتنوعة الدافعة للحاجات كلها بعد قيامها بالضرورات بصدهم ومقاومتهم وإبطال كل ما به يصولون ويجولون ثم إذا برز بصلاحه وإصلاحه العظيم ونظامه الحكيم وهديه القويم وحثه على سلوك الصراط المستقيم ونوره الساطع وحججه القواطع لم يبقِ في وجهه باطل إلا محقه ولا شر إلا سحقه ولا بقي من قصده الحق والصواب إلا اختاره ، واعتنقه ولا تأمله صاحب عقل إلا صدع له ، فهو الحصن الحصين من جميع الشرور ، وهو القامع لكل من قاومه في كل الأمور.

* * *

القاعدة الواحدة والسبعون

في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني

اعلم أن ما مضى من القواعد السابقة هي المقصود بوضع هذا الكتاب ، وهو بيان الطرق والمسالك والأصول التي يرجع إليها كثير من الآيات ، وأنها وإن تنوعت ألفاظها ، واختلفت أساليبها ، فإنها ترجع إلى أصل واحد ، وقاعدة كلية .

وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم فإن كثيرًا منها من الألفاظ الجوامع ، وهي من أعظم الأدلة على أنها تنزيل من حكيم حميد ، وعلى صدق من أعطي جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصارًا ، ولنضرب لهذا النوع أمثلة ، ونذكر نموذجًا منه ، فمنها :

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] ، ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ، ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ [الواقعة : ١٠] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] الآية ، ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل : ٢٠] ، ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات : ٦] ، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] ، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴾ [يونس : ٤٤] ، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ [آل عمران : ٣٠] الآية ، ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء : ١٢٨] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٨١] ، ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٥] ، ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [آل عمران : ٣٠] ، ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] ، ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ [البقرة : ٢٢] ، ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٣] ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] ، ﴿ وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ [هود : ٨٨] ، ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود : ٣] ، ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [هود : ٨٥] ، ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود : ١١٢] ، ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود : ١١٥] ، ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] ، ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] ، ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ٨٠] ، ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ [الرعد : ٢١] الآيات ، ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] ، ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : ١٢٦] ، ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] ،

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء : ٩]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥]، ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة : ٩١]، ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف : ١٥٧]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى : ٤٠]، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف : ٤٦]، ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم : ٧٦]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥]، ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨]، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب : ٤]، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان : ٣٣]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب ٢١]، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر : ٧]، ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب : ٥٣]، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب : ٥٨]، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦].

فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها كل كلمة منها قاعدة، وأصل كبير، تحتوي على معانٍ كثيرة.

وقد تقدم في أثناء القواعد منها شيء كثير، وهي متيسرة على حافظ القرآن، المعتني بمعرفة معانيه، ولله الحمد.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد يسر اللَّه تعالى علينا ما مَنَّ بجمعه، فجاء - ولله الحمد - على اختصاره ووجازته ووضوحه كتابًا يسر الناظرين ويعين على فهم كلام رب العالمين، ويبدي لأهل البصائر والعلم من المعاقل والمسالك والطرق والأصول النافعة مالا يجده مجموعًا في محل واحد، ومَخْبر الكتاب يغني عن وصفه.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، مقربًا لديه في جنات النعيم،

وأن ينفع به مؤلفه وقارئه، والناظر فيه وجميع المسلمين، بمنه وكرمه وجوده وإحسانه وهو خير الراحمين، وصلى اللّٰه على محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه جامعه العبد الفقير إلى اللّٰه في كل أحواله عبد الرحمن بن ناصر أبو عبد اللّٰه السعدي. وقد تم ذلك في ٦ شوال عام ١٣٦٥ هـ.

والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *

كمبيوتر : ربيع محمود - ت : ٤٧٥٠٠٨٠